

المؤلفة الحائزة على جائزة نوبل للآداب 2009

أرجوحة النفس

هيرتا موللر

ترجمة: وحيد نادر



نبذة عن المؤلفة:

ولدت الكاتبة هيرتا موللر عام 1953 في نتشكيدروف/ بنات في رومانيا، جاءت إلى ألمانيا في عام 1987 لتعيش في برلين. وعملت بعد ذلك كمعلمة وأستاذة زائرة عام 2001 بجامعة توبنجن وفي عام ٢٠٠٥ في الجامعة الحرة ببرلين.

تكتب هيرتا موللر القصة والشعر والرواية وتقوم بالترجمة، ولقد حازت على العديد من الجوائز الأدبية الهامة مثل جائزة الأدب مارابالوزيا فلايسير، وجائزة رياكردا هوخ الأدبية 1987، كما حازت على جائزة كلايست عام 1994 وبوسف برايتباخ 2002 وكونراد أديناور 2004 وجائزة برلين الأدبية 2005 وجائزة فورث للأدب الأوروبي 2006، وهي عضو في الأكاديمية الألمانية للغة والشعر منذ عام 1995.

أرجوحة النفس

فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

أرجوحة النفس
هيرتا موللر

الطبعة الأولى 1430 هـ 2009 م

PT 2673. V29234 A7712 2009
Müller, Herta
(Atemschaukel)

أرجوحة النفس: رواية/ هيرتا موللر؛ ترجمة: وحيد نادر -ط.1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009 .
266 ص.؛ 17x24 سم.
ترجمة كتاب: Atemschaukel
تدمك: 978-9948-01-455-3
1 - القصص الألمانية. أ- نادر، وحيد. ب- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الألماني:
Herta Müller
Atemschaukel
©2009 Hanser Verlag, München

info@kalima.ae
www.kalima.ae
KALIMA

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+

http://www.fask.uni-mainz.de
JOHANNES GUTENBERG UNIVERSITÄT MAINZ
Johannes Gutenberg-Universität Mainz
Fachbereich Translations-, Sprach- und Kulturwissenschaft
An der Hochschule 2, 76726 Germersheim
Postfach 11 50, 76711 Germersheim
Telefon: 07274-508-0, Fax: 07274-50835-429

أرجوحة النفس

هيرتا موللر

ترجمة: وحيد نادر

مراجعة: مصطفى السليمان

كلمة
KALIMA

JOHANNES GUTENBERG UNIVERSITÄT MAINZ

المحتويات

حولَ حزم حقيبة السفر

أحمل معي كل ما عندي.

أم أحمل معي كل ما أملك.

هاقد أخذت كل ماعندي، رغم أنه لم يكن ملكي، وكان هذا الذي حملته غير ضروريّ وربما كان ملكاً لشخص آخر. فحقيبة جلد الخنزير كانت تستخدم صندوقاً للجراموفون، والمعطف الواقي من الغبرة كان للوالد. أما المعطف المدنيّ بشرائطه الكثيرة على العنق فقد حصلت عليه من جدّي، وأعطاني عمي إدوين السروال، وأهداني جارنا السيد كارب مشدّات السّاق الجلديّة. كانت أشيائي التي أملكها حقاً لا تتجاوز الشال ذي اللون الخمريّ، وصندوق الأغراض الضرورية، وهي بدورها هدايا من عيد الميلاد الأخير.

كانت رحى الحرب مازالت دائرة في كانون الثاني 1945. على إيقاع ذلك الهلع وفي منتصف الشتاء، إذ لم يكن أحد يدري إلى أين سيؤول به الطريق إلى الروس، أراد كلّ واحد من معارفي أن يعطيني غرضاً قد ينفعني، حين لا ينفع شيء، فمتى عادت أشياء هذا العالم بالنفع علينا؟ ولأنّ اسمي كان على قائمة الروس، ولا أحد يستطيع تغيير ذلك، فقد قدم كلٌّ مساهمته التي يستطيع تقديمها؛ وربما فكّر أيضاً بمأساتي القادمة على طريقته.

وأنا أخذت كلّ ما أُعطيت، ورغم أن سنّي يومذاك لم تتجاوز السابعة عشرة بعد، فقد فكرت بأن هذه الرحلة جاءت في وقتها. حتى لوكان سبب الرحيل أمراً آخر غير قائمة الروس، فهو إن لم يُمِتْني فسوف ينفعني. كنت أريد الخروج بأيّة طريقة من عقلة الإصبع هذه، من ضيق مدينتي الصغيرة، حيث للأحجار عيون. لقد انتابني قلق خفيّ وانتابني بدل الخوف تأنيبُ ضمير، لأن القائمة التي شكّت بها عائلتي، كانت أمراً مقبولاً بالنسبة إليّ.

كانوا خائفين من أن يحدث لي شيء في الغربة، أما أنا فقد أردت الرحيل إلى مكانٍ لايعرفني فيه أحد. فقد تغيّر فيّ شيء ما، شيء كان حصوله ممنوعاً، لأنّه شيء رذيل ووسخ وفاحش، لكنه جميل. ماحصل كان على الطرف الخلفي لحديقة أشجار البتولا في الجهة الأخرى لهضبةٍ من حصيد العشب، يومها مررت وأنا في طريقي إلى البيت في الساحة

الدائرية وسط الحديقة، حيث تعزف الأوركسترا موسيقاها أيام الأعياد. هناك بقيتُ جالساً لفترة وجيزة أنظر إلى الضوء المتسلل عبر فوضى الأغصان المشغولة بدقة، وأرقب خوف الظلال الدائرية والمربعة والظلال التي لها شكل المعيّن الفارغة والمربوطة بمخالبِ زخرفٍ أبيض. كانت تلك الظلال صورةً لضياعي ونموذجاً للخوف الذي يعلو وجه أمي عليّ. في تلك الساحة أقسمت ألا أعود ثانية إلى هذه الحديقة.

كنت كلما تشددتُ في منع نفسي، ألحّ عليّ الذهاب أكثر – أعني أني عدتُ بعد يومين فقط إلى الراندي فو[1]، هكذا كان يسمى الموعد في الحديقة.

ذهبت إلى موعدي الثاني مع نفس الرجل الأوّل. كان اسمه السنونوة. أما الرجل الثاني فلم أكن أعرفه من قبل وكان يسمى الصنوبرة. وأما الثالث فيهم فكان اسمه الأُذن، بعد ذلك جاء الخيط ثم الشحرورة الذهبية وبعده القلنسوة.

فيما بعد جاء دور الأرنب والقطة والنورس، ومن ثمّ اللؤلؤة. لم يكن يدري أحد غيرنا، أيّ اسم ينتمي لأيّ شخص. لقد كانت المبادلة بهيميّةً في الحديقة، فقد سمحت لهم أن يتبادلوني فيما بينهم. وكان صيفاً وكانت أشجار البتولا مازالت ترتدي لحاءها الأبيض، في ذلك الدغل من الياسمين والبيلسان ونما الجدار الأخضر من غصن كثيف مانع، وكان للحب أوقاته خلال السنة. فالخريف ينهي مهمة الحديقة، لأنه يعرّي الأغصان، ويرسلنا بمواعيدنا العاشقة إلى حمّام نيبتون.

وهناك عُلِّق إلى جانب الباب الحديدي رمزٌ بيضويّ يحمل صورة إوزة، هناك حيث كنت ألتقي كلّ أسبوع الرجل الذي كان يكبرني بالعمر مرتين. كان رومانيّ الجنسية ومتزوجاً. لن أقول اسمه لأحد. كنا نجيء بوقتين مختلفين كي لانسمح، لا للمحاسبة في غرفتها الزجاجية ذات اللون الرّصاصيّ ولا للأرضية الحجرية العاكسة كالمرآة ولا للأعمدة التي تتوسط القاعة ولا لأحجار السيراميك المزهوّة بنموذجها المزهر باللوتس على الحائط ولا للأدراج الخشبية أن تشعر أننا على موعد. ذهبنا لحوض السباحة نسبح مع الآخرين، ولم نلتقِ وحيدَين إلا في حجرات الساونا.

1– راندي فو Rendezvous: مواعيد العاشقين.

أيام زمان، أي قبل ذهابي إلى المعسكر بقليل، ثم بعد عودتي منه وحتى العام 1968، حيث غادرت بلادي بشكلٍ نهائي، كان يمكن أن تؤدي مثل هذه المواعيد إلى سجن لا تقل مدته عن خمس سنوات، طبعاً لو أمسكوابي متلبساً. وقد قبضوا على البعض، وقادوهم من الحديقة أو من حمام المدينة بعد تحقيق وحشيٍّ إلى السجن ومن هناك أخذوهم إلى معسكر تأديب. والآن أعرف، أنهم لم يكونوا يعودون من تلك القناة. والذي عاد منهم، كان جثةً تمشي، عاجزاً ومخرَّباً وغير قادر على ممارسة أي شكلٍ من أشكال الحب في هذه الدنيا.

أما لو ضبطوني في مثل تلك المواعيد أيام معسكر الرّوس، لكنت الآن في عداد الأموات.

كنت بعد إخلاء سبيلي من المعسكر أجوب صخب الشوارع كلّ يوم، وأتدرب على أفضل الجمل التي يمكن أن أقولها في حال اعتقالي، فعلى تهمة مثل: **ضُبطتَ متلبساً بالجرم المشهود**، حضّرت ألف إجابة وادّعاء بغيابي عن المكان. رغم حملي الذي لايحتمل فلقد صمتُّ عليه طويلاً وبعمق، فأنا من الذين لا يستطيعون التعبير عن أنفسهم بالكلمات، وحين أحاول ذلك، فإنني أعبّر بطريقة مختلفة.

في آخر صيف من صيفيّات المواعيد، ولكي أطيل طريق العودة من حديقة شجر البتولا إلى البيت، وصلت بمحض الصّدفة عبر المتحلق الكبير إلى كنيسة الثّالوث المقدّس. هذه الصّدفة ساقت معها قدراً، فلقد بصرْتُ حياتي القادمة. كان القدّيس بمعطفه البنيّ واقفاً على أحد الأعمدة قرب الهيكل الجانبي، قبّة معطفه شاةٌ حول رقبته. هذه الشاة في العنق هي الصمت. فهناك أشياء لا يتكلم الإنسان حولها. وأنا أدرك عمّاذا أتكلم عندما أقول: إن سكوت العنق شيء آخر غير سكوت الفم. فلقد عشت الخوف قبل المعسكر وأثناءه وبعده ولمدة خمسة وعشرين عاماً متواصلة، الخوف من الدولة والخوف من العائلة. الخوف من السّقوط المضاعف، أن تعتقلني الدولة بوصفي مجرماً، وأن تطردني العائلة بصفتي فضيحة. في ضجة الشوارع أنظر في مرايا واجهات العرض، في نوافذ البيوت والتراموايات، في مياه الينابيع وبرك الماء الصغيرة، أنظر ولا أصدّق، فربما كنت شفافاً فعلاً.

كان أبي معلم رسم. أما أنا، برأسي المملوء بحمام نيبتون، فقد كنت أرتجف كأن أحداً رفسني بقدمه، حين كنت أسمعه يلفظ كلمة **أكواريل**[1]. كانت كلمة «لوحة بألوانٍ مائيّة» تعرف الحدّ الذي كنت قد تجاوزته. قالت أمي ونحن على طاولة الطعام: لا تطعن حبة البطاطا بالشوكة فتفتّتها، خذ الملعقة، فالشّوكة نستعملها لتقطيع اللّحم. هذا ماجعل صدغيّ يضطربان، فما علاقة اللحم بالبطاطا والشّوكة. عن أي لحمٍ تتكلم أمّي. فأنا سارق نفسي والكلمات سقطت اعتباطاً وأصابتني.

كان أبي، وبالأخصّ أبي، مفتوناً، ككلّ الألمان الذين يعيشون في مدينة صغيرة، بجمال الجدائل الشقر والجوارب البيض التي تغطي السّاق حتى الركبة

مثلما فُتن أهلي بمربع شوارب هتلر الأسود. كان أهلي معجبين بنا نحن الألمان الساكسونيين بوصفنا عرقاً آريّاً في منطقة زيبِن بورغن (القلاع السبعة) في رومانيا. رغم أنّي في سري خجلٌ جداً من جسدي، وإذا أضفتُ علاقتي بالرجل الروماني فوق ذلك كلّه، فإننا أمام فضيحة عرقيّة.

كنت أريد الرّحيل عن العائلة ولو إلى معسكر العمل الإجباري عند الرّوس. ماكان يؤلمني هو هجر أمّي التي لا تدري، كم تفتقر إلى معرفتي، والتي ستفكر بي في غيابي أكثر بكثيرٍ مما سأفكر أنا بها.

رأيت في الكنيسة إلى جانب القديس صاحب شاة صمتِ العنق عبارةً مكتوبةً في ركنٍ أبيض في الحائط تقول: **وترسلُ السماءُ الزمانَ حركةً**. عندما جَهّزت حقيبتي للسفر قلتُ في نفسي: لقد ترك هذا التجويف الأبيض أثره. فالآن هو الوقت الموضوع في عجلة الحركة. كنت فرحاً، لأنني لن أساق للحرب، لن أساق إلى الجبهة في هذا الثلج. وهكذا رحت أحزم حقائبي بشجاعة الغبيّ وخضوعه دون أيّ دفاع عن نفسي. مشدّات جلدية برباطات، سراويل فضفاضة، معطف بنطاقٍ حريريّ – لا شيء يناسبني منها، فالأمر متعلّقٌ بالزمن المرسل في حركته وليس بالثياب. والمرء سيكبر وينضج في هذه الثياب وفي غيرها. قلتُ في نفسي، العالم

1– أكواريلّ Aqwarell: الرسم بالألوان المائيّة.

ليس حفلة تنكُّريّة بأيّة حال، وليس مضحكاً مَنْ عليه السفر للرّوس في قلب هذا الشتاء.

كانت الدوريّة المؤلفة من شرطيين، واحد روماني والآخر روسي ومعهم القائمة، تدور على المطلوبين من بيت لبيت. لا أدري إذا كانت تلك الدورية قد لفظت عندنا في البيت كلمة **معسكر**. وإذا لم تكن هي اللفظة التي قيلت، فقد قالوا كلمة أخرى لن تكون سوى روسيا. وإذا كانت معسكر هي الكلمة المقالة فعلاً، فإنها لم ترعبني. فرغم الحرب وصمت مواعيدي في عنقي كنت مازلت أخبئ في أعوامي السبعة عشر طفولةً ساخطة حمقاء.

من الكلمات التي تركت أثراً في نفسي كانت كلمتا أكواريل ولحم. أما كلمة معسكر، فقد بقي سَمْعي أمامها أطرش. إذ خطرت على بالي أيام زمان وقصّة الطعام والبطاطا والشّوكة، وعندما أصابتني أمّي بكلمة لحم، يومها كنت صغيراً ألعب في أرض الديار إذ صرخت أمّي من نافذة الشُرْفة: إذا لم تأتِ فوراً للأكل وإذا احتجت لمناداتك مرّة أخرى، فالأفضل أن تبقى حيث أنت. ولأنني لم أكن أصعد إليها في الحال وأبقى برهة أطول في الدار، كانت تقول لي حين أصل إليها: تستطيع الآن أن تجهّز حقيبتك المدرسية وترحل أنّى شئت وتفعل ماشئت، في هذا الكون. ثم تجرّني إلى الغرفة آخذةً حقيبة الظهر الصغيرة حاشرةً فيها قلنسوتي الصوفيّة والجاكيت، فأسألها: ولكن إلى أين أذهب؟ ألست ولدك؟

يقول الكثير من الناس إن تجهيز الحقائب للسفر مسألة تدريب، يتعلّمها المرء من نفسه كالغناء والصلاة. نحن لم نتدرّب وليس لدينا حقائب. فعندما ذهب أبي إلى الجبهة لأداء خدمته الإلزامية في الجيش الروماني، لم يكن هناك مايجب تجهيزه. فالعسكري يحصل على كل شيء مع البدلة العسكرية، ماعدا بعض الحاجات الخاصة بالسّفر وحاجات أخرى ضدّ البرد. نحن لم نكن نعرف لماذا وجب علينا التجهيز. فالمرء لايملك لحظتها مايمكن أن يقول عنه: صحّ. المرء يرتجل لحظتها، ليصبح المغلوط ضرورياً، أمّا الضروري فيصبح عندئذٍ الشيء الوحيد الصّحيح، ذلك فقط لأنّه متوفّر.

بعد أن جلبت أمي الغرامافون من حجرة الجلوس ووضعته على طاولة المطبخ، حوّلت صندوق الجرامافون إلى حقيبة بواسطة مفكّ البراغي. حيث قمت أولاً بفك قسم الحركة

وصحن الاسطوانات، ثم أغلقتُ ثقب التعشيقة بفلّينة. البطانة الداخلية بقيت في مكانها كما هي، مخملٌ أحمر بلون الثّعلب.

لم أفكّ العلامة المثلّثة وعليها صورة الكلب، العلامة الموجودة أمام النفير والمكتوب عليها بالإنكليزية: (هِز ماسترز فويس)، **صوت سيّده**. وضعت على أرضيّة الحقيبة أربعة كتب: فاوست بجلده الكتّاني[1]، زرادشت[2]، فاين هيبر[3] ذي القطع الصغير، ومجموعة مختارات شعرية من القرون الثمانية الأخيرة. لم آخذ معي أيّة رواية، فالرّواية يقرؤها المرء مرّة واحدة لا تعاد. فوق الكتب وضعت علبة الضروريات: زجاجة ماء حمام وزجاجة كولونيا وآلة حلاقة من نوع تارّ ومعجون حلاقة وماكينة حلاقة يدويّة وفرشاة حلاقة وحجر ألونيت[4] وصابون غسيل لليدين ومقصّ أظافر. إلى جانب علبة الحاجات الضرورية وضعت زوج جوارب صوفية (بنيّ اللون ومرقّع)، زوج جوارب طويلة حتى الركبة وقميص فانيللا بالأبيض والأحمر وسروالين داخليين قصيرين من قماش مضلّع. فوق كلّ ذلك في الأعلى، وكي لايتجعّد من شدّة الضّغط، وضعت الشّال الحريريّ الجديد، ذلك الشال الأحمر النبيذيّ المخطّط من ذاته وبذاته والذي تراه مرّة لمّاعاً وفي الأخرى معتماً. هكذا امتلأت الحقيبة ليأتي دور الصرّة: غطاءٌ أخذته من ديوان البيت (من الصّوف المخطّط بالبيج والأزرق الفاتح، رغم كبره فإنّه لا يدفيء). لففت في قلبه: معطفاً أغبر اللون (لونه من لون خلطة الفلفل والملح، مستهلك من كثرة الاستخدام) وزوج مشدّات جلدية (عتيقة جداً، من أيام الحرب العالمية الأولى، صفراء بطيخيّة ولها ربّاطات).

ثم جاء دور كيس الخبز: علبة لحم مملّح من فخذ الخنزير من ماركة سكانديا وأربع سندويتشات وبضع قطعٍ من بواقي كعك من عيد الميلاد ومطرة ماء عسكريّة مع كوب للشرب.

وضعت جدتي حقيبة الغرامافون والصرّة وكيس الخبز قرب الباب. متاعي جاهزٌ قرب

1– فاوست Faust: تراجيديا كتبها غوته ونشرها في العام 1808، وتعد من أهم الأعمال الأدبية الألمانية.
2– زرادشت Zarathustra: فيلسوف فارسي من القرن الثامن عشر قبل الميلاد، صاحب مذهب الزرادشتية الديني، أمّا «هكذا تكلم زرادشت» فهو كتاب للألماني نيتشه.
3– فاين هيبر Weinheber: شاعر وقاصّ نمساوي من بدايات القرن العشرين.
4– ألونيت Alaunstein: وهو معدن مكون من سولفات ألمنيوم البوتاسيوم الخالي من الماء.

الباب لأن الشرطيين أعطياني منتصف الليل موعداً لسوقي.

بعد ذلك لبست ثيابي: سروالاً داخليّاً طويلاً وقميصاً من الفانيللا (بيج مع أخضر مخطّط) وسروالاً فضفاضاً (رماديّاً، كما قلتُ سابقاً، فقد حصلت عليه من عمّي إدوين)

وسترة قماشيّة بأكمام محبوكة على التريكو وزوج جوارب صوفيّة وزوج أَحذية خاصّة بالجبال. كان زوج القفازات الأخضر من عمتي فيني في متناول اليد على الطاولة. ربطت حذائي الجبليّ وفي ذات اللحظة تذكرت أمّي وهي ترتدي بدلة بحّار خاطتها بيديها، كان ذلك أيام العطلة في بيتنا الريفي وحديقتنا في الفينش[1]. وخلال نزهة قمنا بها على المرج تركت أمي نفسها تسقط واقعة بين الأعشاب الطويلة كالميتة. يالهول المصيبة، لقد سقطت السماء في العشب. أغمضت عينيّ كيلا أرى الخوف وهو يبتلعني. وفجأةً نهضت أمي منتفضة وهزّتني وقالت: أنت تحبّني أليس كذلك، لا تخف، أنا مازلت حيّةً، انظر!

كنت قد ربطت حذائي الجبليّ وجلست على الطاولة أنتظر منتصف الليل. وجاء منتصف الليل، لكنّ الدورية تأخرت عنه. ثلاث ساعات. وقت طويل يصعب على المرء لحظتها تحمّله. وقفت أمّي تحمل بيديها معطفي ذا الرباط المخمليّ الأسود، حيث دلفتُ فيه بمساعدتها. بكت أمي حين لبست قفازاتي الخضر. وهناك، على المدخل الخشبي تماماً، حيث عدّاد الغاز، قالت جدتي: **أنا أعرف أنك ستعود.**

حفظت هذه الجملة عن ظهر قلب دون قصد مني، وأخذتها معي دون انتباه إلى المعسكر. فأنا لم أدرِ يومها أن هذه الجملة سترافقني. لقد كانت جملةً ذات شخصيّة مستقلّة، عملت وعلّمت فيّ مالم تستطعه كلّ الكتب التي حملتها. «**أنا أعرف أنك ستعود**» صارت رفيقةً لرفش القلب و غريمَ ملاك الجوع. ولأنني عدّت فعلاً فإنه يحقّ لي أن أقول: مثل هذه الجمل تعينك على البقاء حياً. لقد كانت الساعة الثالثة من ليل الخامس عشر من كانون الثاني، يناير للعام 1945، عندما حملتني الدوريّة معها، وكان البرد هو السيّد يومها، فقد انخفضت درجة الحرارة حتى الخامسة عشرة تحت الصفر.

حملتنا سيارة شاحنة في مقطورتها المغطاة عبر المدينة الخالية وأنزلتنا في صالة

1– فينش Wench: اسم المنطقة التي توجد فيها مزرعة العائلة وبيتها الريفي حيث تقضي العائلة إجازتها الصيفيّة.

المعارض، وهي صالة خاصة باحتفالات الساكسونيين وحوّلوها الآن إلى نقطة تجمّع. لقد تزاحم بداخلها حوالي ثلاثمئة إنسان. على الأرض تكوّمت حصائر النوم وأكياس القشّ، كما استمر قدوم السيارات من القرى المجاورة مفرغةً حمولاتها من البشر، ليصبح عدد المساقين في الصباح حوالي الخمسمئة. ورغم أنّ المصباح كان يشع طوال الليل، لم يكن إحصاء الناس كلّهم ممكناً، فأنت لا ترى الجميع، فالجميع يدور في المكان باحثاً عن معارفه. لقد سمعنا أنه تمّ تجنيد نجارين لتشييد عرباتٍ خشبية جديدة مثل تلك التي تنقل فيها الحيوانات. كما تم تجنيد عمال آخرين لبناء مدافئ أسطوانية في العربات، وآخرين لفتح ثقوب المراحيض في أرضياتها. كانت الأحاديث تدور بلا توقف بأعين نصف مفتوحة. أعين تضغط مخرجة دمعها الغزير بهدوء. كانت رائحة الهواء تذكرك برائحة الصوف العتيق، رائحة الخروف العرقان واللحم المشويّ ذي الدّهن الكثير، بل برائحة كعك الفانيللا والخمر. خلعت إحدى النساء منديلها، وهي امرأة قرويّة بلا شكّ، كانت قد ضفرت شعرها في جديلة على خلفية رأسها ثم طوتها مرتين وثبتتها في المنتصف مرفوعة بمشط عاجيّ نصف منحنٍ. كانت أسنان المشط العاجيّ تختفي في شعر الجديلة ومن طرفه المنحني تبرز زاويتان كأذنين صغيرتين محدبتين. وهكذا بدت خلفية رأس المرأة بجديلتها السميكة وأذني المشط مثل قطّة جالسة. أمّا أنا فجلست أنظر بين الأرجل الواقفة وأكوام الأمتعة المكدّسة، وخدّرني النعاس بضع دقائق وأخذني الحلم:

في الحلم رأيت أمّي معي في المقبرة، كنّا واقفين أمام قبر جديد. في وسط القبر تماماً تنمو نبتة متوسطة الطول مثلي ولها أوراق كالفرو. على ساقها توجد ثمرة على شكل كبسولة لها مقبض جلديّ مثل حقيبة صغيرة.

الكبسولة مفتوحة بعرض إصبع ومحشوة بمخمل أحمر كجلد الثعلب. نحن لا نعرف من مات. تقول أمي: خذ الطبشورة من جيب المعطف. وأقول أنا: ليس لدي طبشورة. وعندما أدسّ يدي في جيبي أجد فيها فعلاً قطعة طبشور من النوع الذي يستعمله الخيّاطون. فتقول أمي: يجب علينا كتابة اسم قصير على الحقيبة، ليكن روت، فنحن لا نعرف أحداً بهذا الاسم. وأكتب أنا: روت.

لقد كان واضحاً في الحلم أنني متّ، ولكنني لم أكن أريد أن أقول لأمي ذلك الآن. انتفضت واقفاً لأن رجلاً مسنّاً في يده مظلّة مطريّة جلس فجأةً إلى جانبي على كيس القشّ ووشوش في أذني: سوف يأتي صهري أيضاً، ولكنّ الصّالة محاطةٌ بالحرّاس من كل جهاتها. لن يسمحوا له بالدّخول. نحن مازلنا في المدينة وهو لا يستطيع المجيء لا إلى هنا ولا إلى البيت. على كلّ زرّ فضيّ من أزرار سترته طار طيرٌ، وكان الطير إمّا بطةً أو قطرساً، والصليب الظّاهر على خيال صدره تحت القميص رأيته مرساةً حين انحنيت أمامه أكثر، أمّا المظلة فقد وقفت كعصا نزهةٍ بيني وبينه. سألته: هل ستأخذها معك، ردّ عليّ: هناك يسقط ثلجٌ كثير، أكثر حتى من هنا.

كانوا قد أخبرونا متى وكيف الخروج من صالة التجمّع إلى محطة القطار، بل متى وكيف يسمح لنا بالخروج من الصالة، فأنا أردت أن تبدأ الرحلة إلى الروس أخيراً ولو كانت بعربات نقل الحيوانات، ولو كانت مصحوبةً بصندوق الغرامافون وكل هذه الصرر في الرقبة. لم أعد أدري كيف وصلنا إلى المحطة. كانت عربات نقل الحيوانات عالية، ونسيت الطريقة التي صعدنا بها إلى تلك العربات، فقد سافرنا أياماً وليالي طويلة، وكأننا كنّا فيها طوال حياتنا، كما أنني لم أعد أتذكّر المدّة التي استغرقتها رحلتنا.

كان رأيي أن السّفر الطويل ارتحال بعيد. فطالما استمرّ، لن يصيبك سوء. أي مادمنا على سفر، فإنّ الأمر على مايرام.

رجال ونساء، شباب وكهول بأمتعتهم على الطرف الأمامي للمقطورة. دردشة وصمت، أكل ونوم وزجاجات خمر تدور عليهم صفّاً صفّاً. وحين بدأ السفر يصبح عادةً، بدأت هنا وهناك محاولات تسلية، فقد صاروا يرون واقعهم بعين ويهربون منه بالأخرى.

جلست قرب ترودي بيليكان وقلت: أنا أشعر وكأني في نزهة تزلّج في جبال الكاربات[1] على عزال بوليا[2]، في الموضع الذي ابتلع فيه أحد الانهيارات الجليدية

1- الكاربات Karpaten: سلسلة جبال الكاربات تمتد في أوروبا الوسطى والشرقية، بدءاً من جمهورية التشيك وحتى رومانيا.

2- بوليا Bulea: منطقة عالية في جبال الكاربات مشهورة ببحيرتها وعرزالها وثلوجها. وهي منطقة سياحية.

نصفَ صفٍّ من المدرسة الثانوية. هذا لن يحدث معنا، قالت هي، فنحن لم نأخذ معنا أيّة أداة من أدوات التزلّج. بصندوق غرامافون تستطيع أن تركب، أن تركب عبر النهار وعبر الليل. أنت تعرف ريلكه[1] بالتأكيد، قالت ترودي بيليكان، وهي ترتدي معطفها الجرسيّ الشكل ومانشيتات الفرو الممتدة حتى الكوع. مانشيتات من الشَّعر البنيّ وكأنها ترتدي نصفي كلبٍ صغير، لتدخل أحياناً يديها بشكل متعاكس بعضها فوق بعض في أكمام المعطف ويصبح نصفا الكلب كلبين مكتملين. لم أرَ البادية قبل ذلك في حياتي، لو رأيتها لفكّرت هذه اللحظة بكلاب الأرض[2]. كانت رائحة ترودي بيليكان كلّها، حتى رائحة فمها من رائحة السفرجل الساخن، سفرجل هيمنت رائحته على هواءٍ كهواء عربة قطار خاصة بنقل الحيوانات وحتّى اليوم الثالث والرابع من الرحلة. كانت تجلس في معطفها كسيّدة تأخذ الترامواي في طريقها إلى مكتبها، وحكت لي: اختبأت عن أنظار الدّوريات أربعة أيام متواصلة في حفرة في حديقة الجيران خلف الخمّ. غير أن الثلج أتى وأصبحت الخطوات مرئيةً بين البيت والحفرة. ولم تستطع أمّها بعد ذلك أن تأتي لها بالطعام سرّاً. لقد كان بإمكان كل إنسان أن يتتبع أثر أقدامها فوق الثلج في كامل الحديقة ويقرأها.

لقد وشى الثلج بها، لتخرجَ طائعةً وبملء إرادتها من المخبأ، فالثلج أجبرها على الخروج باختيارها. لن أغفر للثلج فعلته مادمت حية، قالت هي. لا يمكن محاكاة الثلج الطريّ، الثلج لايمكن رتقه، ليبدو وكأنه غير ممسوس. يمكن إعادة ترتيب التربة، قالت ترودي، والرملَ أيضاً، حتى العشب يمكن إصلاحه، إذا مااجتهد المرء في ذلك. الماء يعيد تشكيل نفسه بنفسه، لأنه يبتلع كل شيء ثم ينغلق على نفسه بعد البلع فوراً. أما الهواء فلا يؤذي تشكيلته شيء، لأن طبيعته هكذا والإنسان لا يستطيع رؤيته. كل شيء كان يمكن أن يسكت إلا الثلج، قالت ترودي بيليكان. أن يكون الثلج هو المذنب الرئيسي، وأن يسقط في المدينة وكأنه يعرف أين هو، وكأنه يستضيف نفسه في بيته، ويضع نفسه فوراً في خدمة الروس، فذلك يعني أني هنا بسبب غدر الثلج بي.

1- ريلكه Rilke: من أهم شعراء الألمانية، ولد في براغ ومات في سويسرا منتصف القرن العشرين.

2- كلاب الأرض Erdhunde: وهو حيوان القاقوم، من فصيلة بنات عرس، ولا علاقة له بكلاب الأرض، لكن بطل الرواية ليو أوبيرغ أطلق عليه هذه التسمية، ربّما لأنّه يبني مخبأه في الأرض.

سافر القطار بنا اثني عشر أو أربعة عشر يوماً دون توقف، ساعات لاتحصى. بعدها توقف القطار ساعات أخرى أيضاً لا تحصى، دون سفر. لم نكن نعرف أين كنّا نقف، إلا إذا استطاع أحد من الطوابق العليا للقاطرة أن يقرأ لافتة المحطة عبر فتحة النافذة الصغيرة التي تفتح للأعلى: **بوتسيو**[1]. في المدفأة الاسطوانية كسبطانة مدفع والمنصوبة في وسط العربة كانت النار تتّقد بصوت مسموع وزجاجات الخمر تدور، والكلّ يتمايل باضطراب، البعض من تأثير المشروب والبعض الآخر من شدة القلق، أو من كليهما معاً.

ماذا يمكن أن تخبيء كلمات مثل **«اقتاده الرّوس»**، ذلك مادار في خلد البعض، دوراناً لم يصل إلى الوجدان: يمكنكم نصبنا على الحائط فور وصولنا، أما الآن فمازلنا مسافرين. وبما أنهم لم ينصبونا حتى الآن على حيطان رمينا، كما كنا نعرف من الدعاية النازيّة في الوطن، فنحن تقريباً بلا هموم.

تعلّم الرجال في عربة القطار الخاصة بنقل الحيوانات أن يشربوا حتى الازرقاق. أما النساء فقد تعلمن أن يغنين للزرقة:

في الغابة تزهر وُريْدة الحجر

وفي الحفر مازال الثلج يقبع

هذه التي كتبتها لي

رسالتك الصغيرة توجعني

دائماً نفس الأغنية، لدرجة أن المرء لم يعد يعرف، إذا كنّ فعلاً يغنين أم لا، فقد صار الهواء يغني. والأغنية تترجرج في رأس واحدهم ثم تكيّف نفسها متناغمة مع السفر – إنها مقطوعة بلوز[2] خاصة بعربات نقل الحيوانات، إنها أغنية الكيلومتر الخاصة بالزمن المرتمي في عجلة الحركة. لقد أصبحت أطول أغنية سمعتها في حياتي، بقيت النسوة يغنينها خمس سنوات طوال، ليجعلن منها نحن، أغنيةً مريضةً بالحنين إلى الوطن.

كان باب العربة مغلقاً من الخارج بالشّمع الأحمر. لم يفتح إلا أربع مرات. كان باباً

1- بوتسيو Buzău: مدينة في رومانيا.

2- بلوز Blues: نوع موسيقى صوتي وآلي يتحدر من أغاني أشغال الزنوج في الولايات المتحدة يتغنّى فيه المغنون بحزنهم وأساهم. كان للبلوز أثر بليغ في الموسيقى الأمريكية الشعبية.

جرّاراً يسير على عجلات، وكنا مازلنا على الأراضي الرومانية. رموا لنا في العربة مرتين خلال الرحلة بنصف عنزة مسلوخة، تمّ نشرها طولياً في وسطها. كان نصف العنزة يابساً من شدة تجمّده. وكان حين يرمى ويرتطمُ بالأرض يحدث ضجّة قوية. لقد خلنا أوّل نصف عنزة رموه لنا قطعة حطب للحرق. وهكذا قطعناها وأطعمناها للمدفأة. كانت ناشفة لدرجة أننا حين حرقناها لم نشتم لها رائحة، فقد كان احتراقها كاملاً. أما العنزة الثانية فقد دوت في رؤوس الجمع مثل كلمة **بسطرما**، اللحم المجفف في الهواء من أجل الأكل. وضحينا أيضاً بعنزتنا الثانية وضحكنا. فقد كانت يابسة ومزرقّة مثل الأولى تماماً، هيكلاً عظمياً من أجل تخويف الآخرين. ضحكنا قبل الأوان وكنا مغرورين حين أعرضنا عن العنزتين اللتين تصدّق بهما الرومانيون.

وهكذا نمت الألفة وازدادت مع الوقت، وحدثت في هذا الحشر من البشر أشياء صغيرة مثل القعود والوقوف، تنبيش الحقائب وترتيب الأغراض ووضعها في أمكنتها، الذهاب إلى المرحاض خلف ملحفتين مرفوعتين على أعمدة.

كلّ صغيرة كانت تجرّ وراءها صغيرة أخرى، ففي عربة نقل الحيوانات يضمرُ كلّ خُلقٍ، لأن المرء موجود مع الآخرين أكثر مما هو مع نفسه. لم تكن مراعاة الآخرين ضروريّة، فقد كنا يعتمد بعضنا على بعض كما يعتمد المرء على أفراد عائلته. ربما أتكلم عن نفسي، عندما أقول هذا الآن. أو قد ينطبق ذلك أيضاً على غيري، فربّما روضني الضيق في عربة نقل الحيوانات. أنا من الذين كانوا يريدون الرحيل بكلّ حالاته، ومازال في حقيبتي مايكفي من الطعام. نحن لم نكن ندري كيف سينقضُّ علينا الجوع الوحشيّ مرّةً واحدة ونصبح يابسين مثل تلك العنزات الزرقاء اليابسة التي قذفوها إلينا أثناء ترحيلنا، وكم تحسّرنا على ذلك اليُبْس حين كان يهاجمنا ملاك الجوع في سنواتنا الخمس القادمة.

صرنا الآن في الليل الروسي وصارت رومانيا خلفنا، إذ شعرنا بخبطات قوية في توقفنا الذي استمر ساعات وبدّلت خلاله العجلات على محاور العربات استعداداً للسير على سكّة الحديد الروسية الأكثر عرضاً، والمتناسبة مع وسع البادية. كثرة الثلج أنارت ليل الخارج حين توقفنا للمرة الثالثة في فراغ حقلٍ وسط تلك البادية.

كان جنود الحراسة الروس يصرخون أوبورنايا[1]، لتفتح أبواب كلّ العربات، ونتدحرج بعضنا وراء بعض على أرض ثلجية أكثر انخفاضاً وتنغمس أرجلنا في الثلج حتى باطن الركب. لقد أدركنا قبل أن نفهم أن كلمة أوبورنايا تعني الذهاب الجماعيّ إلى التواليت. فوق وعلى ارتفاع كبير جداً، ابتسم القمر دائري المحيّا، وبخار تنفسنا يتطاير أمام وجوهنا متلألئاً كالثلج الذي تحت أقدامنا، ومن حولنا البنادق الآلية مصوبة نحونا. ثم يأتي الأمر: نزّل بنطالك!

هذا الموقف المخزي، وخجل العالم أجمع. لكنّ الحظّ في اللاحظّ أن تكون تلك البرية الثلجية هي الشاهد والمرُافق الوحيد لك في تلك المأساة، وأنّه لا أحد غيرها كان يتفرّج عليك حين أكرهتك تلك البريّة ذاتها على الاصطفاف مع آخرين في رتلٍ لفعل الشيء نفسه. لم يكن بي حاجة للتبرّزِ، لكنّي أنزلت بنطالي وجلست القرفصاء كما فعل الجميع.

ما أخسّ بريّة هذا الليل وأهدأها، وكيف سخرت منا في قضاء حاجتنا! كيف وقفت ترودي بيليكان عن يساري رافعة أطراف معطفها ذي القصّة الجرسية على كتفيها منزّلةً سروالها حتى الركبتين، كيف وصوص هذا الساقط مابين فردتي حذائها. وكيف كان المحامي باول غاست خلفي يضغط متأوهاً وأمعاء زوجته جودرون غاست تنقّ كالضفادع من شدة الإسهال. وكيف تجمّد فوراً بخار الخراء الحار متلألئاً في الهواء كالطاعون. كيف لقنتنا هذه الأرض الثلجية هذا العلاج العنيف وتركتنا وحيدين بمؤخرات عارية في معمعة ضجيج أجزائنا السفلية. ما أحقر ماصارت إليه أحشاؤنا في ذلك العرض الجماعي.

ربما نضج الذعر فيّ، فلست أنا الذي نضج في ذلك الليل. ربما لا يتّحدُ الناس بشكل حقيقي إلا هكذا. لأنّا حين قضينا حاجتنا أدرنا وجوهنا، جميعنا وبلا استثناء وبشكل أوتوماتيكي، باتجاه جسر سكة الحديد. كلّنا وضع القمر خلف ظهره، كي يبقى باب عربة نقل الحيوانات أمام ناظرنا، فقد صرنا بحاجة لذلك الباب، كحاجة المرء لباب غرفته التي

1- أوبورنايا Ubornaja: كلمة روسية وتعني مجموعة أو فريق، كفريق رياضة معينة مثلاً.

يعيش فيها. لقد عصف بنا خوف مجنون، أن ينغلق الباب ونحن خارجه ويسافر القطار من دوننا.

كان بيننا واحد راح يصرخ في وسع الليل: ها هو هنا، الشعب الساكسوني الخريان، كلّه في كومة واحدة. عندما يسري الماء ساقطاً بغديره نحو القاع، فإن الغدير لايسقط وحده. أليس صحيحاً أنّكم بأجمعكم تحبون الحياة كثيراً. كان يضحك فارغاً كبرميل تنك. وتزحزح الجميع قليلاً مبتعداً عنه، ليعطيه محلاّ للجلوس. بعدها انحنى إجلالاً أمامنا مثل ممثّل على الخشبة، مردداً بصوت عالٍ وجاد: أليس صحيحاً؟ بالطبع أنتم تحبون الحياة.

كان في صوته صدى. جهش بعضنا بالبكاء وكان الهواء بلوريّاً ووجه الرجل يغطس في الوهم واللعاب على صدر سترته يتجمد، حيث رأيت طبعة صدره تحت القميص. لقد كان هو الرجل صاحب أزرار طائر القطرس. بعدها قام ووقف وحيداً وشهق باكياً بصوت طفوليّ، حيث لم يبق بجانبه سوى ذلك الثلج الملوّث، أما خلفه فكان العالم المتجمد بقمره المعتم مثل صورة شعاعية.

أطلقت القاطرة صَفْرَتها الوحيدة العميقة. هذا **الأوووه** العميق الذي كنت قد سمعته في مرّة سابقة. كلّ ركض مسرعاً إلى باب عربته، صعدنا وتابعنا السفر.

كنت سأتعرف على ذلك الرجل ثانيةً حتى لو لم أر طبعة صدره، فأنا لم أره في المعسكر أبداً.

الملوخيّة

لا شيء بين الأشياء التي حصلنا عليها في المعسكر له أزرار. فللقمصان والسراويل الداخلية رباطتان تعقد بهما. أما مخدة النوم فتحمل رباطتين مضاعفتين. ومخدّة نومنا كانت فقط في الليل مخدّةً للنوم، أما في النهار فتتحول إلى كيس كتانيّ نحمله معنا في قضاء كل حاجة، كالشحادة والسرقة.

كنا نمارس السرقة قبل العمل وخلاله وبعده، أما في الشحادة فلم نكن نسرق، فالشحادة بيعٌ بالتجوال من بيت إلى بيت أو ماكنّا نطلق عليه **التبييت** – سرقة جارنا في البرّاكة كانت ممنوعة – ليس سرقةً ماكنا نفعله على منحدرات الكتل الردميّة في طريقنا إلى البيت بعد العمل، حيث كنّا نقطف العشب لنملأ به أكياس مخدّاتنا. وفي شهر آذار استطاعت النسوة أن تعرف عن طريق سكّان القرية أن هذا العشب ذا الأوراق المسنّنة يسمى **لوبوديه**، وأنهم يأكلونه في الربيع في بيوتهم كسبانخ برية، وأنّ اسمه ميلدي **كراوت**[1]، أي ملوخية. كما كنّا نقطف عشباً آخر أيضاً اسمه الشبت، وهو نبات ذو أوراق لها ريش. كان أهمّ مافي الأمر أن يكون لديك ملح، وهو من المواد التي تحصل عليها في البازار بالمقايضة. كان للملح شكل رماديّ وكان خشناً مثل شقف الزّلط، ويجب طحنه بدقّه قبل استخدامه، كان الملح لا يقدر بثمن.

هناك طريقتان لطبخ الملوخية:

في الأولى يتناول المرء أوراقها بعد تمليحها نيّئة كما هي، وكما تؤكل أوراق البقلة، ثم ترشّ عليها نتفٌ من نبات الشبت.

في الثانية تسلق سوق الملوخيّة بالماء المملّح، ثم يتم اصطيادها بالملعقة كاصطياد السمك في الماء، حيث يشعر الآكل بطعم مُسكرٍ لسبانخ مزيّفة. يمكن معها شرب ماء سلقها، إما بوصفها حساء صافياً أو شاياً أخضر.

تكون نباتات الملوخيّة في الربيع غضّةً بطول الإصبع وذات لون أخضر فضّي. ويزداد طولها في أوائل الصيف لتصبح بارتفاع الركبة، كما تصير أوراقها مستديرة ورفيعة كأصابع

1– ميلدي كراوت **Meldekraut**: الملوخية أو السبانخ البريّة الإسبانيّة.

يد تلبس قفازاً، كل ورقة بلون وكأنها قفاز آخر. ما يجمع بين تلك القفّازات هو الإبهام المتدلي في أسفل كلّ واحدة منها. الملوخيّة، بلونها الأخضر الفضّي، نبات يؤكل طالما بقي الجو بارداً، إنه طعام خاص بالربيع. أما في الصّيف فعلى الإنسان أن يكون حذراً، لأن الملوخيّة تطول بسرعة كبيرة وتصبح متشابكة الأغصان وذات سيقان قاسية كالخشب. طعمها مرٌّ مثل طعم الطين، وتطول نبتتها حتى تصل إلى أسفل الخصر، مخرجةً من وسط سويقتها الغليظة غصناً سائباً. في أوج الصيف تتلون اوراقها وسويقتها مبتدئة بالورديّ ثم تحمرّ كالدم، وفي النهاية يزرقّ احمرارُها ثم يقتم أحمرُها في الخريف حتى يصبح عميقاً كالنيلة، حيث تبني نهايات أغصانها عقوداً من الثمار الكرويّة كما في القرّاص. العقود الثمرية للملوخية لا تتدلى، بل تقف منحرفةً باتجاه الأعلى. ثمّ تتدرج هذه الثمار في تلوّنها مع الوقت من الورديّ وصولاً إلى النيليّ.

الغريب في الأمر أن هذه الملوخيّة تبدأ بالتّلون لتصبح جدّ جميلة ولتبقى بعد ذلك تحرسها أطراف الطرقات دون أن تكون قابلةً للأكل. لقد انتهى وقت أكل الملوخيّة، لكنّ الجوع لم ينته، بل طال ليصبح أكبر من المرء نفسه.

ماذا يمكن للمرء أن يقول حول الجوع المزمن. أيقول هناك جوع يجعلُكَ مريضاً من شدّته، وينزِلُ عند جوعك المزمن أكثر جوعاً. هذا الجوع القادم دائماً، ينمو ولا إمكانية لإشباعه، ثم يثب نازلاً على جوعك الأزلي في قِدمه، جوعك الذي طالما تعبت بلا كللٍ في تدجينه.

كيف يدور المرء حول العالم، إذا لم يكن لديه مايقوله عن نفسه سوى أنه جائع؟ وإذا كان لا يستطيع التفكير بشيء آخر إلا الجوع. فالحنك أكبر من الرأس، قبة عالية مرهف سمعُها وصاعدة في القحف. في لحظة ما حيث لا يستطيع المرء بعدها تحمل جوع صار يزحف في سقف الحلق وكأنه جلد أرنب طريّ مشدود خلف الوجه كي يجفّ، تيبس الوجنات وتغطي نفسها بزغب ناعم شاحب اللون.

لم أكن أعرف، فيما إذا ماكان عليّ أن أتهم هذه الملوخيّة المرّة بالتّخشّب وأنها صارت عصيّةً على الأكل. هل تعرف هذه الملوخية، أنّها لم تعد تنفعنا، لا نحن ولا الجوع وأنّها

إن نفعت فإنها تنفع ملاك الجوع وحده؟ ليست أطواق ثمارها الحمراء إلا حِلى حول عنق ملاك الجوع. فعندما سقط أول ثلج في بدايات الخريف بدأت نباتات الملوخية تزيّن نفسها، وتزداد زينتها مع كل يوم جديد حتى تجمدت. بجمال السمّ كانت ألوانها، التي راحت تنغرز في تفاحة العين. تلك الثمار الكرويّة، هذه الصفوف التي لا تعدّ من القلائد الحمراء، جوانبُ طرق بكاملها تزين ملاك الجوع. والملاك يرتدي زينته، ونحن نرتدي سقف حلق عالٍ، لدرجة صار فيها المرء يسمع صدى خطاه عبر فمه حين يمشي. هذه الشفافية في جمجمة الرأس، وكأن المرء فينا قد ابتلع ضوءاً ساطعاً، ضوءاً يتفرج على نفسه في الفم، ينسلّ بطلاوة إلى اللهاة حتى تنتفخ وتصعد فينا حتى الدماغ. حتى يصبح الواحد فينا بلا مخّ ويمتليء الرأس بصدى الجوع. لا توجد كلمات مناسبة لوصف عذاب الجوع. يجب عليّ أن أُري الجوع اليوم أني استطعت الإفلات منه. صرت ألتهم الحياة نفسها بتفاصيلها، منذ اليوم الذي لم أعد فيه مجبراً على أن أجوع. أنا حبيس طعم الأكل حين آكل. أنا مازلت آكل مذ عدت من المعسكر إلى البيت، منذ ستين عاماً أكافح ضد الموت جوعاً.

عندما رأيت الملوخيّة، التي لم نعد نستطيع أكلها، حاولت أن أفكر بشيء آخر. أن أفكر بآخر حرارة شمسٍ متعبة أواخر صيف ينتظر شتاءه الجليدي. لكنّي صرت أفكر عوضاً من ذلك ببطاطا لم تكن متوفرة. فكرت بنساء سكنّ في الكولخوز[1]، علّهن حصلنَ على بعض حبات البطاطا التي يضعنها في حساء الأعشاب اليوميّة. وإلا فلن يحسدهنّ أحد. كنّ يسكنّ في ثقوبٍ داخل الأرض، وكان عليهنّ أن يعملنَ يومياً لمدة أطول من المعتاد، من طلوع الضوء حتى غروبه.

كان الربيع يعني لنا نحن السعاة طبخ الملوخيّة فوق أكوام الردم. إن **كلمة ميلده كراوت**[2]، **أيّ ملوخية**، اسم قويّ، وفي نفس الوقت لا يقول شيئاً. إن **ميلِده** كلمة بلا إيقاع بالنسبة لنا، كلمة كانت تتركنا وحالنا. لم تكن تعني **قدّم نفسك**، كما هي في الألمانية تعني، لم تكن عشبةً

1- كولخوز Kolchos: جمعية فلاحية اشتراكية أيام الاتحاد السوفييتي سابقاً.

2- ميلِده Melde: وتعني في الألمانية تسجيل أو تقديم الإنسان لنفسه أمام دائرة حكومية ما.

خاصة بترديد الشعار في (الطابور)، كانت كلمة خاصة بجوانب الطرق، لأنها كلمة جوع. مع ذلك كله فقد كانت هذه الكلمة كلمة (طابور) مابعد العشاء -عشية (الطابور) المتأخّر، وليست ولا بأيّة حال عشية لـ(الطابور) نفسه. غالباً ما ينتظر المرء متلهفاً لطبخ الملوخيّة، لأنّ اصطفاف أَخْذِ التفقّدِ لم يكن قد عُقد بعد، وإنْ عقد فسيستمرّ طويلاً، فكلّ شيء كان مغلوطاً.

كان يوجد في معسكرنا خمس **رابوتشي باتليون**[1]، أي خمس فرق عمل. أطلق على كلّ فرقةٍ اختصاراً **ورب**، أي أوديلنا رابوتشي باتليون، أي فرقة عملٍ مستقلّة، وتتألف كلّ فرقة من 500 إلى 800 معتقل. وقد حملت فرقتي الرقم 1009، وكان رقمي 756.

كنا نقف في (الطابور) - وهو تعبير عن كتائب الجوع الخمسة هذه، كتائب العيون السميكة والأنوف الكبيرة والوجنات الفارغة. أرجل وبطون منفوخة بماء نقص التغذية.

كان القرّ والحرّ سواء علينا، ففي كليهما نقضي ليالي كاملةً صامتين في (طابور) ترديد الشعار. خلال تلك التفقدات اللانهائية لم يكن يسمح بالحركة إطلاقاً، إذا مااستثنينا حركات القمل على أجسادنا. كانت قطعانه تزحف ولساعات طويلة من الرأس حتى شعر العانة سكرى تنفذ استعراضاتها العسكرية على لحمنا الفقير.

في أغلب الأحيان كانت القملات تشرب حتى الثمالة، ثم تضطجع نائمة بين درزات خيوط لباسنا القطني ونحن مازلنا واقفين في الصف صامتين تحت قرع صرخات قائد المعسكر شيشتفايونوف التي تتوالى بلا توقّف. لم نكن نعرف اسمه الأول. كان يسمى فقط تافاريش شيشتفايونوف، أي الرفيق شيشتفايونوف. لقد كان الاسم طويلاً بما يكفي للتلعثم من شدة الخوف عند لفظه. كان يخطر على بالي في كلّ مرة يلفظ فيها اسم توفاريش شيشتفايونوف هدير عربة ترحيلنا، والركن الأبيض في حائط الكنيسة: **وترسل السماء الزمان حركة**. ربما كان وقوفنا الطويل الصامت هذا احتجاجاً ضد ذلك الرّكن. لقد انفردت عظامنا منتفخة كالحديد. فإذا ما انتهى اللحم على جسد أحدنا، فسيكون حتى حمل العظام عليه صعباً، فتراه مشدوداً للأسفل نحو باطن الأرض.

1- رابوتشي باتليون Rabotschij Batalion: روسية وتعني فريق عمل.

تمرّنت على نسيان نفسي أثناء الوقوف الصامت في(الطابور)، ثم على عدم فصل الشهيق والزفير بعضهما عن بعض وتحريك العينين حول نفسيهما دون أن أرفع رأسي، ثم البحث عن زاوية غيمةٍ في السماء يمكن للمرء أن يعلق عليها عظامه. وحين كنت أنسى نفسي ثم أجد فجأةً ذلك الخطاف السماويّ، فإنه كان يسرع في تثبيتي في مكاني.

غالباً ما كان ينتفي وجود الغيوم، كانت زرقة لا مبالية مثل ماء مفتوح.

غالباً ما كان لدينا سقفٌ مغلقٌ من الغيوم فقط، رماديٌ غير عابيء بشيء.

غالباً ما كانت الغيمات تنسحب مبتعدات، وتبقيك بلا مشبك يثبتك.

غالباً ما كان المطر يحترق في العينين ويلصق ثيابي بجلدي.

غالباً ما كان الجليد يقضم أحشائي.

في مثل تلك الأيام كانت السماء تدور فاتحة عينيّ باتجاهها ثم يأتي نداء (الطابور) ليغلقها - كانت عظامي مرمية بداخلي، هكذا وحيدة ودون تثبيت. كان الكابو تور بريكوليتش[1] يتمشى متبختراً بيننا وبين قائد المعسكر شيشتفانيونوف، بين أصابعه تنزلق قوائم التفقد المجعلكة بأوراقها العديدة. كان يرتجف صدره مثل ديك في كلّ مرة ينادي فيها على رقم. أما يداه فقد بقيتا كيدي طفل، بعكس يديّ اللتين نمتا في المعسكر وصارتا مربعتي الشكل، قاسيتين ومسطحتين كعارضتين من خشب.

بعد انتهاء الطابور وعندما كان أحدنا يستجمع كل جرأته ليسأل أحد الرؤساء أو حتى قائد المعسكر شيشتفانيونوف عن موعد عودتنا إلى أوطاننا، كانوا يجيبون: **سكورو دوموي**. وهذا يعني: **قريباً** ستعودون. لقد سرقت منا هذه ال قريباً الروسية أطول زمنٍ في العالم. كان تور بريكوليتش يترك مسألة الحلاقة ونتف شعر الأنف وحتى قصّ الأظافر للحلاق أوسوالد إنييتر. فقد كانا الحلاق وتور بريكوليتش من بلدٍ واحد. لقد قَدِما من مثلث البلدان الثلاثة كاربات أوكرانيا[2].

1- كابو Kapo: وهو اسم وظيفي لمعتقل في معسكرات النازية، وكان عمل الكابو هو الإشراف على زملائه السجناء بالتعاون مع قيادة المعسكر.

2- كاربات أوكرانيا Karpato–Ukraine: منطقة تاريخية واقعة في أقصى غرب أوكرانيا. وهي تحد بولونيا وسلوفاكيا وهنغاريا ورومانيا.

في إحدى المرّات سألتُ عمّا إذا كان من المعتاد في ذلك المثلّث أن يقصّ الحلاق أظافر زبائنه المفضّلين. أجاب الحلاق: كلا، الأمر ليس هكذا في مثلث البلدان الثلاثة. هذه العادة فرضها هنا تور ولاتنتمي لعادات بلدنا. مانعرفه من بلادنا أن الخامس يأتي بعد التاسع. فسألت: وماذا يعني ذلك. ردّ الحلاق: يعني شيئاً من النكد. فسألت أيضاً: وماذا يعني هذا. فقال: شيء من الفوضى.

لم يكن تور بريكوليتش روسياً مثل شيشتفانيونوف. لقد كان يتكلم الألمانية والروسية، ولكنه كان ينتمي للروس وليس لنا. هو معتقل مثلنا، لكنه يعمل معاوناً لقيادة المعسكر.

قام تور بتوزيعنا على الورق إلى فرق عمل وترجم الأوامر الروسيّة مضيفاً لها أوامره الخاصة. ثمّ وضع لكلّ اسم من أسمائنا رقماً خاصاً له علاقة بفرقة العمل التابع لها وأضاف لذلك أرقام تشغيل، كي تستطيع القائمة تقديم نظرة شموليّة عن الوضع. كان على الواحد منا ألاّ ينسى أرقامه لا ليلاً ولا نهاراً، ويدرك أنّه ليس شخصاً بل مجرد رقم.

كتب تور بريكوليتش ملاحظات إلى جانب أسمائنا بين أعمدة القوائم مثل: كولخوز، معمل، نقل ردم، نقل رمل، سكّة الحديد، ورشة البناء، نقل فحم، الكراج، بطارية الفحم، بقايا الاحتراق، القبو. كان كلّ شيء متعلقاً بهذه الملاحظات أو نتيجةً لها: هل نحن متعبون كالكلاب أم ميتون من التعب، هل سيكون لدينا الوقت والقوة بعد العمل للذهاب إلى البيع الجوّال. هل سيحقّ لنا أن نبحث، دون أن يرانا أحد، في زبالة المطبخ خلف الكانتينه أم لا.

لا يذهب تور بريكوليتش إلى العمل إطلاقاً، فهو لم يفرز إلى أيّة فرقة عمل ولا إلى أيّة مجموعة شغل ولا إلى أيّة ورديّة. هو يحكم، لذلك هو حَركٌ مثل عصفور الدّج وغير واضح. إذا ابتسم، فإنّ في ابتسامته فخّاً. وإذا ماابتسمتَ لابتسامته، وأنت عليك فعل ذلك، فقد عرّضت نفسك للسخرية. فهو يبتسم لأنه كتب شيئاً جديداً خلف اسم ما في جداول التفقّد، شيئاً أسوأ مما هو عليه الوضع السيء. حين تجمعني الصدفة به بين البرّاكات، في ذلك الجزء الرئيس من المعسكر، فإنني أبتعد من طريقه وأفضّل أن أبقى بعيداً عنه لمسافة تكفي لمنعه من التّكلم معي. ومع ذلك فقد اكتشف، ومن على الطريق العلوي

الذي كان يمشي عليه، فردتي الحذاء اللامعتين كلمعان حقائب اللاتيكس الأسود، وكأن الزمن الفارغ يسقط منه هارباً بين نعليّ الحذاء. لقد كان متيقظاً ويرى كلّ شيء. كانوا يقولون، حتى ماينساه تور هو أَمرٌ أيضاً.

كان لتور بريكوليتش منزلة أعلى من منزلتي في صالون الحلاقة. هو يقول مايريد، ولا خطر عليه إطلاقاً. كان يفضّل أن يجرحنا دائماً، فهو يعرف أن عليه أن يبقينا محتَقرين، لكي تبقى الأمور على ماهي عليه. كان يمطّ رقبته حين يتكلّم، وإذا تكلّم فدائماً باتجاه الأسفل.

إنّه يملك الوقت الكافي لكي يعجب نفسه، فكامل النهار في يديه. تور يعجبني أنا أيضاً. فهو يملك جسماً رياضيّاً، عيناه صفراوان كالنحاس الأصفر ونظرته زيتيّة، أذناه معلقتان مثل مشبكين، ذقن من البورسلان، أنف بجناحين ورديين مثل زهر نبتة التبغ ورقبته مثل الشمع. من حسن حظّه أنه لا يحتاج مطلقاً لتوسيخ يديه. وحظّه هذا يجعله أجمل مما يستحقّ. والحقيقة أنّ من لا يعرف ملاك الجوع يستطيع أن يعطي الأوامر في (الطابور)، ويتبختر في مشيته في ساحة المعسكر وأن يسترق الابتسامة في صالون الحلاقة. لكنه لا يستطيع المشاركة في اتخاذ القرارات. أنا أعرف عن تور بريكوليتش أشياء أخرى، غير تلك التي يحبّ أن يسمعها، لأنني أعرف بيا تساكل جيداً، وبيا تساكل هذه هي عشيقته.

تُسمَع الأوامر الصادرة من فم الروس متشابهةً، وكأنها كلّها ترديد لاسم قائد المعسكر تافاريش شيشتفانيونوف. إنها نوع من اصطكاك وتحشرج أصوات الخاء والشين وتش وشتش في الحلق. أما محتوى تلك الأوامر فلم نكن نفهمه ولا في أي حال من أحوال خروجه من الفمّ، كلّ ماكان يصلنا منه هو الاحتقار في نبرته. هذا الاحتقار الذي يتعود الإنسان عليه، فمع الوقت تتعود الأذن على ترددات نبرة الأمر وكأنها نوع من النحنحة أو السعال أو العطاس أو المخاط أو البصاق - مثل بصق البلغم بعيداً. كانت ترودي بيليكان تقول: الروسيّة لغة مصابة بالزكام.

حين كان الآخرون يعانون الوقوف في (طابور) المساء، كان عمال الورديات، والذين

كانوا مُسْتَثْنَيْن من (الطابور) وترديد الشعار، قد أوقدوا نيرانهم الصغيرة في زاوية المعسكر خلف البئر، ووضعوا عليها طناجر يسلقون فيها الملوخيّة أو أشياء أخرى نادرة الوجود، كتلك التي تحتاج إلى غطاء كي لاتثير فضول الآخرين إذا رأوها، مثل اللفت، والبطاطا وحتى الذرة البيضاء، هذا حين كان ينجح أحد منا في عملية مقايضة ذكيّة – كأن يحصل على عشر قطع لفت لقاء جاكيت أو يبادل كنزةً بثلاثة مكاييل ذرة بيضاء، أويعطي زوج جوارب صوفيّة مقابل نصف مكيال سكر أو ملح.

لطبخ طعام خاصٍّ كهذا لابد للطنجرة من غطاء، ولكن لم يكن يوجد أغطية، ولا قطعة من تنك، وهذه أيضاً لم تكن موجودة ربما إلا في أفكارنا. كنا نجد في كل مرة وبطريقة ما غطاء للطنجرة، وفي كل مرّة نخترعه من مادة معينة، ونقول بعناد: الطنجرة يلزمها غطاء. بالرغم من أننا لم نملك يوماً غطاء للطنجرة، إلاّ أنّ هذه الطريقة في الحديث كانت تحضرنا دائماً. ربما تعتمر الذاكرة غطاء، عندما لم يعد المرء يعرف، من أية مادة يكون الغطاء، وعندما لايملك هذا المرء ولن يملك إطلاقاً هذا الغطاء، سواء أكان من هذه المادة أم من تلك.

على كل حال كانت نيران المواقد الصغيرة بين حجرين قرميدين تتلّوى ملتهبة في زاوية المعسكر خلف البئر في صيرورة المساء. كان تعدادها بين الخمسة عشر والعشرين موقداً، أما باقي الجوعى فلم يكن لديه شيء خاص يطبخه إلى جانب علف الكانتينه.

كان الفحم يرسل دخانه بينما يحرس أصحاب الطناجر مواقدهم والملعقة في أيديهم، فقد أحضروا الكثير من الفحم والطناجر من الكانتينه، وكانت قُدور طبخ سيئة من صناعة محليّة. أوعية طعام من التنك المدهون بلون أسمربنيّ مليء بالطعجات وقشور الصدأ. أوعية تستعمل طناجر على النار في البهو ثم ترتقي لتصبح صحوناً على طاولات الكانتينه. وما إن ينتهي الواحد فينا من طبخ طعامه، حتى يسارع صاحب طنجرة يقف منتظراً دوره لاستلام موقد النار.

وعندما لم أكن أملك شيئاً للطبخ، أترك الدخان يسعى كأفعى عبر فمي وأمطّ لساني للأمام وأمضغ بفَم فارغ. ما أكثر ما أكلت اللعاب مع دخان المساء وفكرت إذ ذاك

بالسجق المشويّ. حين لم أكن أملك شيئاً أطبخه، كنت أمرّ بجانب الطناجر وأمثّل حالة الذاهب للبئر لتنظّيف أسنانه قبل النوم. وآكل مرتين قبل أن أدسّ فرشاة الأسنان في فمي، مرةً آكل النار الصفراء بجوع عينيّ ومرّةً الدخان بجوع حلقي. وبينما كنت آكل، كان كلّ شيءٍ يهدأ من حولي، لأسمع فقط طقطقة بطاريات الفحم عبر الغسق وهي تسّاقط هناك على أرض المصنع.

كنت كلما أردت الإسراع في الابتعاد عن البئر أكثر، صارت خطواتي أبطأ. كان عليّ أن أسحب نفسي منفصلاً عن تلك النيران الصغيرة. ومن خلال طقطقة بطاريات الفحم كنت أسمع صرصرة معدتي، تلك البانوراما المسائية كلّها كانت جائعة. السماء انخفضت سوداء باتجاه الأرض، وأنا أتأرجح في البرّاكة على ضوء مصباح الخدمة الأصفر.

كان يمكن تنظيف الأسنان أيضاً من دون معجون. علبة المعجون التي كنت قد أحضرتها معي من الوطن انتهت. والملح أغلى من أن تستعمله لمثل هذا الغرض، فلو استعمله الانسان لتنظيف أسنانه لما ملك الجرأة على بصقه بعد الفرك، لقد كان ثروة لا تقدر بثمن. أستطيع الآن تذكر الملح وقيمته. أما تذكّر فرشاة الأسنان فأمرٌ غير ممكن. أنا أخذت معي واحدة في صندوق الضروريات، ومن غير الممكن أنها صبرت معي كلّ تلك السنوات الأربع. كان شراء فرشاة أسنان جديدة ممكناً فقط في السنة الخامسة والأخيرة من المعسكر، هذا إذا كنت قد اشتريتها فعلاً ، يومها صار بيدنا نقود، نقود لقاء عملنا. كما أنني لا أستطيع تذكر فرشاة أسناني الجديدة فيما إذا كانت قد وجدت فعلاً. أوّل معجون أسنان متأكد منه أحضرته معي من البيت كان اسمه **كلورودونت**. هذا الاسم يستطيع أن يتذكرني، أما فرشاة الأسنان الأولى والأكيدة والفرشاة الثانية الممكنة فقد نَسِيَتاني. الشيء نفسه حدث أيضاً مع مشطي، فأنا حزتُ على واحدٍ بالتأكيد، لأن ذاكرتي مازالت تحمل كلمة **باكيليت** وكلّ الأمشاط التي ملكناها نهايات الحرب في البيت كان من نوع أمشاط باكيليت.

هل يمكن أن أكون قد نسيت كل الأشياء التي جلبتها معي من الوطن قبل نسياني الأشياء التي حصلت عليها في المعسكر؟ إذا كان هذا ماحصل فعلاً، فالسبب الوحيد هو أنّ هذه الأشياء جاءت معي وأنني كنت أملكها وأستعملها على الدوام حتى تآكلت واهترأت

وكأنني لم أكن مع هذه الأشياء في مكان آخر، بل في الوطن طوال الوقت.

يبدو أنني أستطيع تذكر أشياء الآخرين أكثر من تذكّري لأشيائي، لأنني كنت مجبراً على استعارتها منهم. فأنا أستطيع تذكّر أمشاط التنك في المعسكر، تلك التي ظهرت في زمن القمل. صنعها صناعيو المعمل وأهدوها للنساء. أمشاط مصنوعة من صفيح الألمنيوم بأسنان مثلّمة، تعطي عند إمساكها باليد أو استخدامها في الرأس انطباعاً بالرطوبة، لأنها كانت تملك نسمة باردة. عندما كنّا نأخذها باليد، كانت تأخذ حرارة الجسد بسرعة لتصبح رائحتها مرّةً مثل رائحة الفجل. رائحة تبقى على اليد، حتى بعد ترك المشط بفترة طويلة. لقد صنع الشَّعر أعشاشاً بمساعدة تلك الأمشاط التنكية، وكان على المرء أن يسحب مضنياً أعصابه من الشدّ، وفي النهاية يعلق على المشط من الشعر أكثر مما يعلق من القمل.

كان لأمشاط القمل عدة أنواع: الرباعي والعظمي المسنّن من الجانبين، تلك التي جلبتها البنات القرويّات معهنّ. كان لها على أحد جوانبها أسنان غليظة لفرق الشعر وتجديله وعلى الجانب الآخر أسنان ناعمة لإزاحة القمل. كانت أمشاط العظم قوية وثقيلة في اليد، والشَّعر يبقى ناعماً بفضلها ويسهل تمشيطه بها، وكان باستطاعتك استعارة أمشاط العظم هذه من البنات القرويّات.

منذ ستين عاماً وأنا أريد استعادة أغراض المعسكر إلى ذاكرتي. إنها أشياء حقيبتي الليليّة. منذ عودتي من المعسكر صارت ليالي السهر عندي، حيث لانوم إطلاقاً، حقيبةً من الجلد الأسود. هذه الحقيبة التي تسكن جبهتي. منذ ستين عاماً فقط وأنا لا أدري فيما إذا كنت أعجز عن النوم إن أردت تذكر تلك الأشياء، أم العكس.

أم أنني أبقى متجوّلاً معها ضارباً الطول بالعرض، فأنا وفي كلّ الحالات لن أستطيع النوم. وفي كلّ الحالات سيحزم الليل حقيبته السوداء رغماً عني، هذا ماعلي تأكيده الآن فعلاً. أنا مجبر على التذكّر ضدّ إرادتي. حتى حين لا أكون مجبراً، وأريد ذلك، كنت أفضّل ألاّ أجبر على الإرادة.

لا تهجم عليّ أغراض المعسكر واحداً تلو الآخر، بل تأتي كالقطيع إلى ذاكرتي. ولذلك أعرف أنّ تلك الأغراض التي تزورني ليست مهتمّةً بأن تذكّرني بها، أم أنّها لاتريد فقط

أن تذكّرني بها، بل هي تأتي لمضايقتي والاثقال عليّ. قلّما أفكّر بأني أخذت معي يومها أدوات الخياطة في صندوق الضروريّات حتى تتدخّل المنشة في الأمر، هذا الذي لا أعرف حتى كيف كان شكلها. ثم يأتي مقصّ الأظافر، الذي لا أتذكره إطلاقاً، إذا كان معي أم لا. أما مرآة الجيب، فلا أدري فيما إذا كانت موجودةً حقاً. وساعة اليد، أنا لا أذكر أين قذفها الدهر، هذا إذا كنت قد أخذتها معي فعلاً. أغراض تبحث عني بالرغم من إمكانيّة ألاّ تربطني بها أيّة علاقة. أغراض تريد ترحيلي ليلاً وأخذي ثانية إلى المعسكر، هي تريد ذلك فعلاً، لأنها تأتي على شكل قطعان ولا تبقى فقط في الرأس. إنني أشعر بضغط في المعدة، ضغط يصعد إلى الحلق. أرجوحة النفس تراكب بعضها فوق بعض، وأنا ألهث كالكلب. هذه فرشاة الأسنان/المشط/الإبرة/ المقصّ/ المرآة غولة أيضاً تتغوّل من الجوع. لو أن الجوع لا يوجد بوصفه شيئاً لما أتت هذه الأشياء إليّ في بيتي باحثة عني.

عندما تزورني هذه الأشياء في بيتي وتأخذُ بخناقي، أفتح النافذة بسرعة وأمدّ رأسي إلى الفضاء الخارجي. في السماء قمرٌ جامدٌ مثل كأس حليب بارد، حليب يغسل لي عيني. فيعود تنفسي إلى وقعه الطبيعي، وأظلّ أبتلع الهواء البارد حتى أصبح خارج المعسكر.

بعدئذٍ أغلق النافذة وأضطجع في السرير. بياضات السّرير لا تدري بشيء مما حصل وتدفئني. هواء الغرفة ينظر إليّ، حيث تنبعث منه رائحة طحين ساخن.

إسمنت

مامن مرّة وجد من الإسمنت كفاية. أما الفحم فقد توفّر أكثر من اللاّزم، وأحجار البلوك والبحص والرمل توفّر منها ما يكفي. أما الإسمنت فقد كان ينفد دائماً، كان يتناقص من نفسه. وهكذا كان على المرء أن يأخذ حذره منه، فقد يصير كابوساً. كان يمكن لهذا الإسمنت أن يختفي ليس فقط من ذاته، بل في ذاته، لتصبح الأشياء مليئة بالإسمنت ثم ينتهي مختفياً فجأة. صرخ قائد المجموعة: يجب أن ننتبه إلى الإسمنت.

صرخ رئيس العمال: يجب أن نوفّر في مادة الإسمنت.

وعندما تهبُّ الريح: لا يجوز أن تأخذ معها الإسمنت. وعنما تمطر أو تثلج: لا يجوز أن يتبلّل الإسمنت.

أكياس الإسمنت من الورق، وهو ورق أرقّ من أن يتحمل شحنة الإسمنت. يمكن لشخص واحد أن يحمل كيس الإسمنت، ويمكن أن يتعاون اثنان على حمله. ويحمل إمّا على البطن أو باليدين من زواياه الأربع – فيتمزّق. لا تستطيع بكيس ممزّق أن توفر إسمنتاً. وعندما يكون الإسمنت جافّاً، فإن نصف إسمنت الكيس المتمزّق يسقط على الأرض. أما إسمنت الكيس الرطب المتمزّق فإن نصفه يعلق على جدران الورق الداخليّة. لا يمكنك أن تغيّر في الأمر شيئاً، فكلما وفّرت منه أكثر، نفق هذا الإسمنت أكثر. إن الإسمنت خديعة كغبار الشوارع وكالضباب والدخان – فهو يطير في الهواء، يزحف على الأرض، ويلتصق على الجلد. تراه في كل مكان، ولا تستطيع الإمساك به ولا في أيّ مكان.

يجب على المرء توفير الاسمنت، ولكن على هذا المرء أيضاً أن ينتبه إلى نفسه حين يتعامل مع هذا الإسمنت. يحمل المرء كيس الإسمنت بهدوء، ومع ذلك يصبح الإسمنت أقلّ. يُشتم المرء وكأنّه مخرب للاقتصاد، فاشي وعميل وسارق إسمنت. يتعثر المرء في خطاه عبر هذا الصراخ ويمثّل دور الأطرش. أما عربات الملاط فتدفع على لوح خشب مائل إلى الأعلى وتقدّم للبنّائين على السقالة. لوح الخشب يهتز، فيمسك المرء العربة بقوة. يمكن أن يطير المرء في السماء حين تهتز تلك الخشبة، لأن فراغ المعدة يصعد حينها إلى الرأس.

إلى ماذا يريد حرّاس الإسمنت الوصولَ بشكوكهم. أنت بوصفك عامل سخرة لا

تملك أكثر من بوفايكا[1]، طقم قطني داخلي. أمّا في البرّاكة فَلَكَ حقيبة وهيكل سرير. من أين يأتي احتمال سرقتك للإسمنت إذن. إذا ماأخذه المرء معه فعلاً ، فلا يأخذه كسرقة، وإنما كوسخٍ لم يستطع التخلّص منه. كلّ يوم لك جوعك الأعمى، لكنّك لا تستطيع أكل الإسمنت. أنت تبرد أو تتعرّق من شدة الحرّ، والإسمنت لا يدفئ ولا يبرّد. إنه يوقظ الريبة والشكّ، لأنه يطير ويتسلّل ويلتصق، لأنه بنيّ بلون الأرنب، ناعم وبلا شكل محدد ويختفي من غير سبب.

كانت ورشة البناء قائمة خلف المعسكر، إلى جانب الإصطبل، الذي لم يبق فيه غير المعالف، فمنذ زمن بعيد لم يعد فيه خيول. تم بناء ستّ بنايات سكنيّة للروس، قالوا لنا ستّ فيللات ثنائية البيوت في كل بيت عائلة، وكل بيت يحتوي على ثلاث غرف. نحن نعتقد أنّهم بدل عائلة واحدة في البيت، فسيضعون خمس عائلات على الأقل، لأننا أثناء جولات البيع التي كنا نقوم فيها على البيوت كنّا نرى ذلك الفقر المدقع الذي كان يعيشه الناس هناك، لقد كان ذلك ظاهراً في أجساد تلاميذ المدارس الهزيلة. لم يكن في الإمكان التفريق بين البنت والصبيّ، كانوا كلّهم حليقي الرأس على الصفر وكلٌّ منهم كان يرتدي ثوباً ذا شقين بلون أزرق فاتح. يمشون أزواجاً في الوحل إلى جانب ورشة البناء يمسك بعضهم بأيدي بعضهم الصغيرة في مسير عسكريّ كمشي البطة مرددين أناشيد بطولية.

في الوحل أمام المسير خاضت سيدةٌ دائرية الشكل خرساء وفي الوحل خلفه خاضت سيّدةٌ أخرى دائريّة الشكل وخرساء أيضاً. كانت نظرات كلّ من تلك السيدتين تخفي مزاجاً معتلاً وتتمايل مؤخرتها ذات اليمين وذات الشمال وكأنّها باخرة.

كان هناك ثماني مجموعات عمل في موقع البناء. كانوا يحفرون الأساسات وينقلون أحجار البلوك وأكياس الإسمنت ويحركون الطلاء الكلسي ويجبلون الخلطة الإسمنتية ثم يصبّون الأساسات ويقدمون الملاط للبنائين. مرّة يحملونه على حمّالة، ومرّة أخرى يدفعونه معبّأً في العربة على السقالة، كما كانوا يجهزون الطّين لصَقْل الحيطان. كان البناء يسير في الأبنية الستّة جنباً إلى جنب وفي وقتٍ واحد. ذهابٌ وإياب دائم بحركة

1- بوفايكا Pufoaika: بدلة قطنية من شرق أوروبا، تتكون من جاكيت وسروال.

فوضويّة دون أن يتغير شيء. كنت ترى البنائين وأحجار الجير على السقالة، ولكنك لم تكن ترى كيف كانت الحيطان ترتفع. هذا هو المعقّد في البناء – عيونك مفتوحة طوال اليوم على ماحولك، ومع ذلك فإنّك لا ترى كيف ترتفع تلك الحيطان باستمرار. وبعد ثلاثة أسابيع لا تشعر إلاّ والحيطان قد نبقت أمامك فجأة. فتقول في نفسك، لا بد أنها كانت فعلاً تزداد علواً مع الوقت، ربما كانت تفعل ذلك في الليل، ووحدها مثل القمر. أنت لا تصدق كيف كان الإسمنت يختفي، وكيف كانت الحيطان تنمو أيضاً. الأوامر تأتيك من كل حدب وصوب، فلا تبدأ بعمل وتنهيه، إذ قد يأتيكَ أمر ليرسلك بعيداً عما بدأته. كانوا يصفعون ويركلون بأرجلهم. لتصبح دواخلك مع الوقت عنيدة وسوداوية، وصوب الخارج أنت كلب وجبان. الإسمنت يفترس لثة الأسنان ويجرحها، وعندما يفتح المرء فمه، تنخزق الشفتان عن بعضهما مثل أكياس الإسمنت الورقية. أنت تغلق فمك وتصغي لما تؤمر به.

تنمو الريبة وسوء الظنّ ليصبحا أعلى من كل جدار. ويشكّ كلّ واحد بالآخر في كآبة الورشة. كأنْ تظنّ أنّ شريكك في العمل يحمل شيئاً ما في الجهة الخفيفة من كيس الإسمنت، أو أنه يستغلك ويحافظ على نفسه. كان الصراخ يحتقر كل واحد فينا، والإسمنت يخدعك وورشة البناء تخونك. عندما يموت أحدنا يقول رئيس العمال مواسياً: شالكو، أوتشِن شالكو، ياخسارة! ثم يغير لهجته بعد ذلك فوراً ويقول: فنيمانييه، انتباه!

تجرف بالرفش وتسمع دقات قلبك وتسمع أنّ **على المرء أن يوفّر مادة الإسمنت، يجب أن ننتبه إلى الإسمنت، لا يجوز أن يتبلل الإسمنت بالماء، يجب ألاّ يطير الإسمنت مع الريح**. ولكن الإسمنت يعثر نفسه من نفسه على المكان، إنه مضياع بطبيعته وبخيل معنا حتى النهاية. نحن نعيش كما يريد لنا هذا الإسمنت. إنه لص، هو الذي سرقنا، لسنا نحن من سرقه. وليس هذا فقط، فبتأثير الإسمنت يصبح المرء لئيماً. إنه يبذر الشّك، حيث يتبعثر، فالإسمنت دسّاس.

كلّ يوم وفي الطريق إلى البيت، وعلى المسافة الضروريّة من الإسمنت، حين أدير ظهري إلى ورشة البناء، اكتشفتُ أنّ بعضنا لا يخون بعضاً، وإنما نحن جميعنا مخدوعون بالروس

وإسمنتهم. لكن وفي اليوم التالي خيّم الشّك ضد معرفتي وضد الجميع. والجميع أحسّ بذلك. ووقف الجميع ضدّي، وهذا ما أحسست به أيضاً. إنّ الإسمنت وملاك الجوع رفيقان. فالجوع يفتح المسامات ويدخلها، وعندما يتمكن داخلها يأتي الإسمنت ويغلقها ليصبح الإنسان مسمنتاً.

يمكن أن يصبح الإسمنت قاتلاً في العنبر الذي يبلغ ارتفاعه أربعين متراً. العنبر بلا نوافذ، هو فارغ، تقريباً فارغ، ورغم ذلك فيمكن أن يغرق فيه الإنسان. بالنسبة لضخامة العنبر يعتبر المبعثر حوله بقايا صغيرة ليست معبأة بأكياس. نحن ننبشها بأيدينا ونضعها في سطول. إنها إسمنت عتيق، لكنه خبيث وصاح. مليء بالحياة، يتربّص بنا وينزلق باتجاهنا مغبراً وأخرس بأسرع من رفة الرمش وقبل أنْ نهرب من وجهه مسرعين. يستطيع الإسمنت الجريان كالماء، وهو يسيل بسرعة تفوق سرعة جريان الماء وبأقلّ عمق. وبالتالي يمكن لمسيل الإسمنت أن يأخذ الإنسان معه ويغرقه.

لقد صرت مريضاً بالإسمنت. لا أرى ولأسابيع طويلة إلا الإسمنت وفي كلّ مكان: كانت السماء الصافية مكسوّةً على الناعم بالاسمنت، السماء الغائمة كانت مليئة بأكوام الإسمنت. أما المطر فقد عقد خيوطه بين السماء والأرض من الإسمنت. وعاء طعامي التنكيّ المبرقع بنقط بنيّة من الإسمنت. وكلاب الحراسة حملوا على أجسادهم فرواً من الاسمنت، وكذا الجرذان على قمامة المطبخ خلف الكانتينه. ودود الأرض كان يزحف بين البراكات وهو يلبس جرابات من إسمنت. أشجار التوت، التي ملأها دود الحرير بشرانقه، أقماع من الحرير والإسمنت، أردت مسحها عن عيني، عندما أضاءت الشمس شاحبة، غير أنّي لم أجدها هناك. في ساحة (الطابور) على طرف البئر كان يجلس كلّ مساء طير من الإسمنت. كان غناؤه خشناً، ونشيده من إسمنت. كان المحامي باول غاست يعرف مثل ذلك الطير في بلده، إنه القبّرة. سألته مرة: هل القبرة في بلادنا أيضاً من الإسمنت، أجاب بعد تريّث: عندنا تأتي القبّرة من الجنوب.

شيء آخر لم أسأله، لأن المرء رأى الصور في أماكن الخدمة وسمع في مكبّرات الصوت: كانت عظام حنك ستالين وصوته من الحديد الصبّ، أمّا شواربه فمن الإسمنت. كلّ

عملٍ تقوم به في المعسكر يملؤك بالوسخ. لكن لم يكن هناك وسخ يتطفل عليك بإلحاحٍ مثل الإسمنت. لا تستطيع الهروب من درب الإسمنت كما في حال الغبرة والتراب، لأنّك لا تراه من أين يأتي، لأنّك لا تجد نفسك إلا فيه. يوجد في رأس الإنسان إلى جانب الجوع شيء آخر سريع مثل الإسمنت هو الحنين إلى الوطن. هو يسرقك لدرجة الغرق فيه. يبدو لي، أنّ في رأس الإنسان شيء واحد فقط أسرع من الإسمنت – هو الخوف. وهكذا أستطيع أن أفسّر لنفسي، كيف كان عليّ مرّة، بداية الصيف عندما كنت في ورشة البناء، أن أكتب على قطعة من ورق أكياس الإسمنت الرماديّة الرقيقة دون أن يراني أحد:

الشمس عالية في حجابها

ذرة صفراء ولا وقت

لم أكتب أكثر من هذا، لأنه كان علينا أن نوفّر في الإسمنت. في الأساس كنت أريد أن أخطّ شيئاً آخر تماماً:

يقف الهلال في السماء

عميقاً ومائلاً ومتربصاً باحمرار

حين يغرب

هذه المقطوعة أهديتها لنفسي، لقد قلتها لنفسي هامساً في فمي. ولكنها لم تلبث أن انكسرت، فقد صرّ الإسمنت بين أسناني. بعدها صمتُّ. على المرء أن يوفّر الورق أيضاً ويخبّئه. مَنْ يُضبَطُ فينا وفي يده قطعة ورق مكتوبة يرسل للحبس – وهو عبارة عن سرداب إسمنتي، إحدى عشرة درجة تحت الأرض، ضيّق لدرجة يستطيع معها المعاقَب أن يقف. عَفِن الرائحة من البول والبراز ومليء بالحشرات. يتم إغلاقة من الأعلى بشبك حديدي.

غالباً ماقلت لنفسي وأنا أجرّ خطواتي مساءً في طريق العودة إلى البيت: يقلّ الإسمنت دائماً، هو يستطيع الاختفاء من ذاته. أنا أيضاً من الإسمنت وأصبح مع الوقت دائماً أقلّ. كيف لا أستطيع مثله الاختفاء أيضاً.

نساء الكلس

مجموعة نساء الكلس هي إحدى مجموعات العمل في ورشة البناء. وتتألّف من نساءٍ يقمن بجرّ عربة الخيول المحملة بالأحجار الكلسية أولاً على المنحدر الواقع قرب الإصطبل ثم ينزلْنَ بها بعد ذلك على طرف الورشة حيث الحفرة الخاصة بالإطفاء. أما العربة فهي عبارة عن صندوق خشبيّ له شكل شبه منحرف. على كلّ جهة للعربة تُربط خمس نساء من أكتافهن وحوضهن بسيور جلديّة إلى النير. وإلى جانبهن يسير أحد المراقبين. من شدّة مايُجْهِدْن أنفسهن في الشدّ تتبلل أعينهن بالدمع وتبقى أفواههن نصف مفتوحة.

إحدى نساء الكلس هي ترودي بيليكان.

عندما ينسى المطر هذه البريّة لعدة أسابيع ويَتَحجَّر الوحل حول حفرة الطفي وكأنه وردة من فرو، يصير ذباب الطّين عنيداً جدّاً. تقول ترودي بيليكان، ذباب الوحل يشمّ الملح في الأعين والحلاوة في الحلق. وكلما ضعف الإنسان، دمعت عيناه أكثر وزادت حلاوة ريقه. كانت ترودي بيليكان تُعلّق على العربة في الخلف تماماً، لأنها أضعف من أن تحمل مع الجزء الأمامي. لم تعد ذبابات الوحل تحطّ على زاوية العين بل في العين على الحدقيّة، ولا على الشفاه، بل تطير داخلة في الفم. وتترنّح ترودي بيليكان كأنها سكرى، وتسقط على الأرض، وتدعس دواليب العربة أصابع رجليها.

مجتمعٌ محشور

أتَيْنا، ترودي بيليكان وأنا، ليوبولد أوبيرغ، من هيرمان شتات[1]. لم نكن يعرف بعضنا بعضاً قبل أن نجبر على الصعود إلى عربة نقل الحيوانات. أرتور بريكوليتش و بياتريس تساكِل، يعني تور و بيا كانا يعرف أحدهما الآخر منذ الطفولة. وقد أتيا من قرية جبلية اسمها لوغي[2]، وهي واقعة في زاوية البلدان الثلاثة لأوكرانيا الكارباتيّة. وقد قدم من نفس المنطقة، التي اسمها راخيف[3]، الحلاق أوسوالد إنبيتر. كذلك جاء لاعب الأكورديون كونراد فونّ من زاوية البلدان الثلاثة، من المدينة الصغيرة سوخولول[4]. أما شريكي على الشاحنة كارلي هالمِن فقد قدم من كلاين بيتشكيريك[5]. ألبيرت جيون، الذي عملتُ معه فيما بعد في قبو فضلات الاحتراق فقد قدم من آراد[6]. سارا الأولى، يعني سارا كاونتس، صاحبة الزغب الحريري على اليدين أتت من فورم لوخ[7]، أما الثانية سارا فاندشنايدر والتي تحمل ثؤلولة على البنصر فقد قدمت من كاستِن هولتس[8]. لم تكن إحداهما تعرف الأخرى قبل المعسكر، لكن هاتين الاثنتين تشابهتا مثل أختين. وسماهما الناس في المعسكر الثنائي تسيرِّز. إرما بفايفر جاءت من مدينة صغيرة اسمها ديتا[9]، وجاءت ميتسي الطرشاء، يعني آنّا ماري بيرغ من ميدياش[10]. أما المحامي باول غاست وزوجته هايدرون غاست فكانا من أوبِرفيشاو. ضارب الطبل الحدّاد أنطون قدم من مدينة صغيرة اسمها كارانزه بيش[11] في جبال البانات[12]. كاتارينا زايدل، والتي

1– هيرمان شتات Hermannstadt: مدينة رومانية تقع في منطقة عيش الأقلية الألمانية في إقليم زيبن بورغن.

2– لوغي Lugi: مدينة بولونية على حدود أوكرانيا.

3– راخيف Rakhiv: مدينة في غرب أوكرنيا في جبال الكاربات الشرقية.

4– سوخولول Sucholol: مدينة بولونية على حدود أوكرانيا.

5– كلاين بيتشكيريك Kleinbetschkerek: مدينة رومانية واقعة في الغرب من تيمشوارا، سكانها من الألمان.

6– آراد Arad: مدينة في شمال غرب رومانيا على الحدود مع هنغاريا.

7– فورم لوخ Wurmloch: مدينة رومانية واقعة في منطقة زيبن بورغن حيث تستوطن الأقلية الألمانية الرومانية.

8– كاستِن هولتس Kastenholz: مدينة رومانية واقعة في منطقة زيبن بورغن حيث تستوطن الأقلية الألمانية الرومانية، ويعني الاسم صندوق الخشب.

9– ديتا Deta: مدينة رومانية واقعة في منطقة زيبن بورغن حيث تستوطن الأقلية الألمانية الرومانية.

10– ميدياش Mediasch: مدينة رومانية واقعة في منطقة زيبن بورغن حيث تستوطن الأقلية الألمانية الرومانية.

11– كارانزه بيش Karansebesch: مدينة في جنوب غرب رومانيا في إقليم بانات.

12– جبال الباناتِر Banater Bergland: مناطق جبلية في إقليم بانات جنوب غرب رومانيا.

كنا نطلق عليها كاتي البلانتونيّة[1]، جاءت من باكوفا[2]. كانت خفيفة العقل، لم تكن تعي مكان وجودها خلال سنوات المعسكر الخمسة. الميكانيكي الذي مات تحت تأثير براندي الفحم الحجري بيتر شيل قدم من بوغاروش[3]. المغنية لوني، إيلونا مِش قدمت من لوغوش[4]. الخياط السيد رويش أتى من غوتّن برونّ[5]. وإلى آخره.

كنا جميعاً من الجنسيّة الألمانيّة وتمّ سَوْقُنا جميعنا من بيوتنا. ماعدا كورينا ماركو التي جاءت إلى المعسكر بشعرٍ مجدّلٍ على شكل قوارير، مرتديةً معطف فروٍ وحذاء لمّاعاً و فستان مخمل عليه بروش له شكلٌ قطّة. كانت كورينا رومانية، قبضَ عليها حراس ناقلتنا ليلاً في محطّة قطار بوتسو[6]، فالتقطوها وحشروها معنا في عربة نقل الحيوانات. ربما تمّ احتجازها لسدّ ثغرة في القائمة سبّبها موت أحدنا أثناء الرحلة. أما دافيد لومّر، والذي كان يلقب ب لومّر أبو القيثارة، لأنه كان يلعب على القيثارة، فقد كان يهوديّاً. بعد أن أمّموا صالون خياطته تحول إلى خياط جوّالٍ عبر البلاد وخاط لأحسن العائلات. هو لا يدري كيف أُنزل على قائمة الروس وهو ألمانيّ. موطنه كان بلاد البوكوفينا[7] في دوروهوي. كان أهله مع زوجته وأولاده الأربعة قد فرّوا أمام الفاشيين. ولم يكن يدري أين يذهب، كما أنّ عائلته لم تكن تدري أين أراضيه قبل ترحيله إلى المعسكر. كان يخيط في غروس بولد[8] لزوجة أحد الضبّاط بدلة من الصوف عندما تمّ الإمساك به لترحيله. لم نكن في حالة حرب، وهذا ينطبق على الجميع، لكن الروس كانوا يعتبروننا، نحن الألمان، مسؤولين عن جرائم هتلر، حتى لومَّر أبو القيثارة. فقد كُتب عليه أن يقضي ثلاث سنوات ونصف في المعسكر. وفي أحد الصباحات وقفت سيارة سوداء أمام ورشة البناء، نزل منها شخصان

1- كاتي البلانتونية Planton–Kati: أي كاتي الحارسة.

2- باكوفا Bakowa: مدينة في الجنوب الغربي من رومانيا في إقليم بانات.

3- بوغاروش Bogarosch: مدينة رومانية في إقليم بانات، كانت تسكنها أغلبية ألمانية حتى الحرب العالمية الثانية.

4- لوغوش Lugosch: مدينة رومانية على الطريق بين بوخارست وتيمشوارا.

5- غوتّن برونّ Guttenbrunn: مدينة رومانية في إقليم بانات جنوب غرب.

6- بوتسو Buzäu: مدينة في رومانيا تقع في الشمال من بوخارست.

7- بوكوفينا، في دوروهوي Bukowina in Dorohoi: مدن تقع في أقصى الشمال الشرقي من رومانيا، بالقرب من الحدود الأوكرانية.

8- غروس بولد Grosspold: مدينة تابعة لإقليم زيبِن بورغِن الروماني ذي الأكثرية الألمانية.

غريبان يرتديان قبعات قراقلي[1] من النوع الخاص بالنبلاء. وبعد أن تكلّموا مع رئيس العمال أخذوا لومّر أبو القيثارة معهم بالسيارة. حيث بقي سرير لومّر أبو القيثارة منذ ذلك اليوم فارغاً في البرّاكة.

أما قيثارته وحقيبته فربما باعها تور بريكوليتش وبيا تساكل في السوق.

قالت بيا تساكل، إنّ صاحبيْ قبعات القراقلي موظفان كبيران في الحزب جاءا من كييف. أخذا لومّر أبا القيثارة معهم إلى أوديسّا ومن هناك أُرسلاه بالسفينة إلى رومانيا. واستطاع الحلاق أوسوالد إنييتر أن يسمح لنفسه كونه ابن بلده ويسأل تور بريكوليتش، لماذا إلى أوديسّا. قال تور: ليس للومّر مكان هنا، من هناك يستطيع الذهاب أنّى يريد. فقلت للحلاق بدلاً من تور: إلى أين عليه أن يريد، لم يبق في الوطن أحد من عائلته. تور بريكوليتش يمسك أنفاسه كي لا يتأرجح في وقفته. أما الحلاق فقد شذّب له شعر الأنف بمقصّ صدئ. وعندما انتهى من فتحة الأنف الثانية نفّض له بالفرشاة بقايا الشعر المقصوص المتجمّع كالنمل على ذقنه ثم دار بجسده ليغادر المرآة نصفياً كيما يرى بريكوليتش وهو يغمز بعينه. وسأله، هل أنت مبسوط، فقال تور: من أنفي، أنا مبسوط طبعاً. كان المطر قد توقف في الدار، وفي المدخل صلصلت عربة الخبز عبر حُفَر الماء. كان الرجل نفسه يأتي كلّ يوم بالعربة محمّلة بصناديق الخبز عبر باب المعسكر داخلاً إلى الدار الخلفي للكانتينه. وكان الخبز دائماً مغطىً بشرشف أبيض من الكتان، وكأنّه يخفي تحته كومة من الجثث. سألت، أي رتبة يحمل رجل الخبز هذا. قال الحلاق، إنه لايحمل أية رتبة. إمّا أنه ورث البدلة العسكرية التي يرتديها من أحدٍ ما، أو أنّه سرقها. بهذه الكثرة من الخبز وهذا الكمّ من الجوع يحتاج للبدلة، كي يكسب بعض الاحترام لشخصه.

كان للعربة عجلتان خشبيتان مرتفعتان وذراعان طويلان من خشبٍ أيضاً. إذ كانت تشبه عربات الدفع الكبيرة، مثل تلك التي كان شحّاذو المقصّات يدفعونها أمامهم في الشوارع متجولين من مدينة لأخرى في أيام الصيف.

1- قراقلي Karakulmütze: قلنسوة القراقلي باللغة الفارسية، مصنوعة من صوف غنم القراقلي. مثال عليها القبعة التي يلبسها الرئيس الأفغاني حميد كارازاي.

كان موزّع الخبز يعرج حين يترك العربة مبتعداً عنها لبضع خطوات. إحدى رجليه من الخشب وتتكوّن من قبضتي رفش مثبتتين بالمسامير، قال الحلاق: أنا أحسد رجل الخبز هذا. صحيح أنه يقلّ عني بساق، ولكنه يملك الكثير من الخبز. حتّى الحلاق كان يلاحق رجل الخبز بنظراته، رغم أنه لم يكن يعرف إلا نصف الجوع الذي كنت أعرفه، ربما كان يعقد صفقات مع موزّع الخبز بين الفينة والأخرى. حتى تور بريكوليتش والذي يملك معدة ممتلئة، لاحق موزّع الخبز بنظراته، ربما لمراقبته أو ربما لأنّه كان شارد الفكر. أنا لم أعرف لماذا ظهرت لي المسألة وكأن الحلاق كان يريد صرف انتباه بريكوليتش عن عربة الخبز تلك. لم أستطع أن أفسّر الأمر بغير ذلك، إذ إنّه تماماً وفي لحظة جلوسي على المقعد الصغير عديم المسند قال: أيّ مجتمع محشور نحن هنا في هذا المعسكر. بشر من أماكن متعددة كما في فندق ينزل فيه المرء لبعض الوقت.

كان الوقت وقت عمل في ورشة البناء. ما علاقتنا في تلك اللحظة بتعابير مثل مجتمع محشور وفندق وبعض الوقت. لم يكن الحلاق شريكاً لقيادة المعسكر، لكنه مستفيد. فقد سُمح له بالسكن والنوم في صالون حلاقته. أما نحن، ببراكاتنا وذلك الإسمنت، ماعاد لدينا أية نكتة أخرى في ذاكرتنا. رغم أن صالون الحلاقة لم يكن في النهار لأوسوالد إنيبتر وحده، فنحن كنا أيضاً نجيء إليه ونروح منه. لقد كان عليه أن يجمّل ويحلق لكل شقيّ فينا. كان بعض الرجال يبكي عندما يرى وجهه في المرآة. وكان ذلك الحلاق يرانا، يرى كيف كانت أجسادنا تضمر شهراً بعد شهر ونحن ندخل عبر بوابته. وعبر تلك السنين الخمس كان يعرف كلّ داخل إليه، وكيف صار نصفُ هذا الداخل إلى شمع. أمّا الذين ما عادوا يأتون، فلأنهم كانوا متعبين من العمل أو مرضى من الحنين إلى الوطن، أو أنّهم ماتوا. أنا لم أكن في الحقيقة أريد تحملّ هذا كلّه. من جهة أخرى لم يكن أوسوالد إنيبتر مجبراً مثلنا على تحمّل العمل ولا على تحمّل مجموعاته ولا على تحمّل يوم واحد من أيام الإسمنت اللعينة ولا على تحمّل وردية واحدة من ورديات العمل في القبو.

كان محاطاً ببؤسنا فقط، ولكنه لم يكن مخدوعاً من الإسمنت بكل تلك الوقاحة. كان عليه أن يعزّينا، ونحن كنا نستغلّ ذلك فيه، لأننا لم نكن نستطيع فعل شيء آخر. لقد كنّا

عميان جوع ومرضى حنين إلى الوطن، كنّا خارج الزمان وخارج أنفسنا ومستغنين عن هذا العالم، يعني كان العالم مستغنياً عنا.

يومها قفزت مبتعداً عن الكرسيّ وصحت، بأنني، وبخلاف ماهو عليه، لا أملك إلا أكياس الإسمنت، أنا لا أملك فندقاً. بعدها ركلت ذلك المقعد الصغير عديم المسند الذي كاد يرتمي برجلي وقلت: أنت تنتمي هنا لملاك الفنادق ياسيد إنبيتر، أما أنا فلا.

قال لي: اقعد يا ليو، واعتقدت أننا نستعمل ضمير (أنتَ) في الكلام وكأننا أصدقاء. أنت في ضلال، فالمالك اسمه تور بريكوليتش. وتور يمدّ طرف لسانه الأحمر الزهريّ من زاوية فمه ويوميء برأسه. لقد كان غبيّاً لدرجةٍ شعر فيها أنّ الآخرين يتوددون إليه، إذا مشّط شعره أمام المرآة ثم نفخ في المشط. بعدها وضع المشط على الطاولة والمقصّ على المشط، ثم بدّل ووضع المقصّ إلى جانب المشط ثم المشط على المقصّ وخرج. وعندما صار في الخارج قال أوسفالد إنبيتر: هل رأيت، هو الذي يملك، هو الذي يتحكم بنا وليس أنا. إجلس ثانيةً، أنت تستطيع السكوت أمام أكياس الإسمنت، أما أنا فعليّ التحدث للجميع. عليك أن تفرح، لأنك مازلت تعرف ماذا يعني فندق. فأغلبهم لم يعد يعرف إلا أشياء أخرى. قلت: يعرفون كلّ الأشياء ماعدا المعسكر.

لم أجلس في ذلك اليوم ثانيةً على المقعد الصغير عديم المسند. بقيت صلباً وابتعدت خارجاً. يومها لم أكن قد اعترفت لأحد بعد، بأني معجب بنفسي تماماً مثل تور بريكوليتش. لقد شعرت بأن إنبيتر يتودّد لي حين أصبح مسالماً، رغم عدم حاجته لذلك.

فكلما رجاني أكثر، صرت أكثر تصميماً على الابتعاد دون حلاقة. لقد صار الإسمنت أكثر إلحاحاً ليترك في الوجه جذاماته. لم أعد للحلاق قبل مضيّ أربعة أيام لأجلس على كرسي حلاقته الصغير عديم المسند، وكأن شيئاً لم يحدث. لقد كنت متعباً من ورشة البناء لدرجة صار فيها فندقه لا يعني لي شيئاً. وحتى ماكينة الحلاقة لم نذكرها ثانية.

بعد عدة أسابيع تلت، وعندما كان موزع الخبز يدفع العربة الفارغة خارجاً من باب المعسكر، تذكرت الفندق مرة ثانية. لقد أعجبني ذلك. كنت أحتاج هذا لمواجهة السأم. فقد كنت قادماً من تنزيل الإسمنت في الوردية الليليّة بخطىً بطيئةٍ متكاسلة مثل عجلٍ

يتنزه في هواء الصباح. في البراكة ثلاثة مازالوا نائمين. ألقيت جسدي على السرير كما هو بوسخه وقلت لنفسي: لا أحد يحتاج هنا في الفندق لمفتاح. لا يوجد حتى استقبال، سكن مفتوح، وضع يشبه الأوضاع في السويد. إن براكتي وحقيبتي مفتوحتان دائماً. أما أغراضي الثمينة فهي السكر والملح. وتحت مخدتي أملك قطعة خبزي اليابسة التي حرمت فمي منها. إنها ثروة تحرس نفسها بنفسها. أنا عجل في السويد والعجل يفعل دائماً الشيء نفسه عندما يأتي إلى غرفته في الفندق - إنه ينظر تحت مخدته أوّلاً بأوّل، ليعرف ما إذا كان الخبز موجوداً.

قضيت نصف صيفي في الإسمنت وكعجل في السويد. جئت من وردية الليل أو وردية النهار ولعبت لعبة الفندق في رأسي. في بعض الأيام كان عليّ أن أضحك في داخلي. في أيام أخرى كان الفندق يجلب معه الغلظة ويشملني فيها معه، وتنهمر دموعي. كنت أريد أن أركّز ولكنني لم أعد أستطيع التعرف على نفسي. هو الفندق، تلك الكلمة الملعونة. لقد عشنا السنوات الخمس كلّها جنباً إلى جنباً - في (الطابور).

خشبٌ وقطن

يوجد نوعان من الأحذية: خفّ من البلاستيك، وكان ترفاً. والنوع الثاني هو الأحذية الخشبية، وكانت فاجعة. لقد كان النعل فقط من الخشب، وهو لوح خشبيّ بسمك أصبعين. أمّا الجزء العلوي فهو مصنوعٌ من قماش الكتّان الرماديّ، مقلّماً بقطعة جلد دائرية قليلة العرض، وقد دقّت قطعة الجلد على مدارها في النعل بواسطة مسامير. ولأنّ القماش الكتّاني أضعف من أن يثبّت بالمسامير، كان ينشقّ دائماً مبتدئاً عند الكعب. كانت الأحذية الخشبية من النوع العالي، ولها فتحات للربّاطات، رغم عدم توفر هذه الربّاطات إطلاقاً. ولذلك ربطناها بسلكٍ معدنيّ رفيع فتلنا أطرافه وعقدناها بعضها على بعض. عند فتحات الرباطات كان القماش الكتاني ينشقّ دائماً بعد أيام قليلة من لبسه.

لا يستطيع لابس الأحذية الخشبيّة طيّ أصابع رجليه. وحين يمشي لا يرفع أقدامه عن الأرض بل يشحط رجليه شحطاً. ومن كثرة مايجرّ ساقيه تتيبّسان مع الوقت حتى الركبتين. وحين يتشقق النعل الخشبي على الكعب يصبح الأمر مريحاً جدّاً، إذ تصير أصابع القدم أكثر حرية ويستطيع المرء بعدها طيّ ركبتيه بشكل أفضل.

في الأحذية الخشبيّة لا يوجد فردة يسرى وأخرى يمنى كما أنه لم يكن متوفراً في المعسكر إلا ثلاثة قياسات: صغيرة جداً، كبيرة جداً ونادراً ماتوفر قياس الوسط. حيث كنّا نبحث في غرفة الغسيل، مكان وجود الأحذية، عن زوج متشابه في الطول. كانت بيا تساكِل عشيقة تور بريكوليتش وبالتالي المتحكّمة بلباسنا. وكانت تساعد البعض منّا في البحث لإيجاد قطعتين مثبتتين جيّداً بالمسامير.

أما مع غير هذا البعض فقد اكتفت بيا، ومن دون أن تنحني، بجرّ كرسيها قريباً من كومة الأحذية كي تستطيع مراقبة الحفاة ومنع السرقة. بيا ترتدي زوجاً من الأحذية الجلدية النصفيّة الجيدة، وكثيراً ماتبدلها حين يشتد البرد بحذاء طويل فيه فَرْو. وأحياناً عندما تضطر للسير في الأوساخ فإنها تغلّف هذا الحذاء بخفّ من الغوما.

كان يجب على الأحذية الخشبية أن تكفي لنصف عام حسب خطة قيادة المعسكر، رغم أنّ القماش كان ينشق عند الكعب بعد ثلاثة أو أربعة أيام. وقد حاول كلّ واحد منا أن

يوفّر لنفسه أغلفة حذاء إضافية بعمليّات مقايضة. كانت تلك الأغلفة قابلةً للطيّ وخفيفة، كما كانت أكبر من القدم بعرض كفّ، كي تترك مكاناً كافياً لحشر عدّة خرق بعضها فوق بعض، وهي خرق كنّا نرتديها بدلاً من الجوارب. ولكي لا تخرج الأقدام من غلاف الحذاء أثناء المشي، كنا نربطها من تحت النعل على الرجل بشريط معدني، حيث يتم عقده من فوق على ظاهر القدم. وهناك في مكان تماسّ عقدة ربط الشريط على مشط القدم نقطة تتألّم الأعصاب فيها حين يتآكل لحم القدم في ذلك المكان من كثرة الاحتكاك. وفي مكان الجرح هذا تحصل على أولّ وزمة حين يجيء البرد. فقد كانت تبقى الأحذية الخشبية مع أغلفتها متجمدة على خرق الحشوة طيلة أيام الشتاء، كما تتجمد خرق الحشوة بدورها على الجلد. لقد كانت أغلفة الأحذية تلك أبرد من الأحذية الخشبية نفسها، لكنها تصمد عدة شهور قبل أن تهترئ.

أما ثياب العمل، وهي بدلة المعسكر الموحدة والتي لايوجد غيرها، فقد كانت توزع علينا كلّ نصف سنة. ولم يكن هناك أية فروق بين بدلة الرّجل وبدلة المرأة. إلى جانب الأحذية الخشبية وأغلفتها فقد شملت بدلة العمل لباساً داخلياً وطقماً قطنياً وقفازات خاصّة بالشغل وخِرقاً للقدمين وبياضاتٍ للسرير ومنشفةً وقطعة صابون مقطوعة من سبيكة كبيرة تفوح برائحة الصوديوم. كانت قطعة الصابون تلك تحرق الجلد، فنرميها بعيداً من كثرة الجروح على جلودنا.

كان لباسنا الداخليّ من الكتان غير المبيّض: سروال داخلي طويل عدد 1 برباطات على الكعبين ومن الأمام على البطن، سروال داخلي قصير عدد 1 برباطات، قميص داخلي عدد 1 برباطات. كل هذا يجمع في تعبير واحد هو **قميص داخلي شتوي وصيفي ليلي ونهاري**.

كانت البدلة القطنيّة تسمى بوفايكا، وهي عبارة عن طقم من قماش اللحاف مع تكوّرات طولية. أما بنطال البوفايكا فله قصّة إسفينية، كي يناسب أصحاب الكروش أيضاً، وكلاّبات ضيّقة برباطات تعقد على الكرسوع. في الأمام وعلى البطن فقط كان له زرّ، ومن اليمين واليسار جيبان. جاكيت البوفايكا لها شكل كيسيّ بقَبّة واقفة يطلق عليها قبّات **روباشكا**، ولها مانشيتات بزرّ على الذراع، من الأمام صفّ من الأزرار وجيبان

مربعا الشكل مدروزان من الخارج على الجانبين. وكغطاء للرأس حصل كلّ رجل وكلّ امرأة على قبعة بوفايكا بأغطية للأذنين تنتهي برباطات.

ألوان البوفايكا كانت زرقاء رماديّة أو خضراء رماديّة، وذلك حسبما شاء مزاج لحظة الصباغة. على كلّ حال يصبح لون البدلة بعد أسبوع وسخاً رمادياً متصلّباً من العمل. لقد كانت ألبسة البوفايكا جيّدة، فهي أدفأ لباس لخارج البيت في الشتاءات الجافّة، عندما كان يتلألأ الجليد، ويتجمّد النفَسُ على الوجه. أما في حرّ الصيف فقد كانت البوفايكا واسعةً بما يكفي لدوران الهواء على الجسد وتجفيف عرقه. وفي الجو الرطب كانت تلك البوفايكا نكبة حقيقية. إذ يمتصّ القطن حتى الشبع مطراً وثلجاً ويبقى مبللاً لأسابيع طويلة بعد ذلك، حيث يترد المرء مطقطقاً بأسنانه طوال الوقت وحتى المساء. في البراكة، بهياكل أسرتها الثمانية والستين ومعتقليها الثمانية والستين ببدلاتهم القطنية الزرقاء الثماني والستين وقبعاتهم الثماني والستين وأزواج خرق حشوات أقدامهم الثماني والستين وأزواج الأحذية الثمانية والستين، كان هواء عكر يتبخر.

لقد كنّا نضطجع غير نائمين ننظر في ضوء الخدمة الأصفر وكأنّ فيه ذوبان الثلج. وفي ذوبان الثلج رائحة ليل نتنٍ راح يغطينا بتراب غابة وورق شجرها المتعفن بعد سقوطه.

أوقات مثيرة

بعد العمل، وبدلاً من أن أذهب إلى المعسكر، ذهبت للاستجداء في القرية الروسيّة. كان الأونيفيرماغ[1]، أي السوبر ماركت مفتوحاً، دون أن ترى أحداً بداخله. فالبائعة تنحني جالسة على منصّة قبالة مرآة حلاقة تفلّي رأسها من القمل وإلى جانب مرآة الحلاق تلك يصدح فونوغراف بأغنية تاتاتاتاااا. أغنية أعرفها من الوطن، كنت قد سمعتها في الراديو، مع بيتهوفن والبلاغات الخاصة بالحرب.

كان أبي قد اشترى في العام 1936 من أجل سماع أخبار الألعاب الأولومبية في برلين راديو من ماركة النقطة الزرقاء وعين القطّة الخضراء، أيامٌ وصفها أبي آنذاك بالأوقات المثيرة. لقد نفعت كثيراً تلك النقطة الزقاء، فقد جاءت أيام أكثر إثارة فيما بعد، يعني بعد ثلاثة أعوام وفي بداية شهر أيلول في زمن أكْل سلطة الخيار في الظلّ على الشرفة. كان أبو النقطة الزرقاء يجلس على طاولة موضوعة في الزاوية، وبجانبه على الحائط علّقت خارطة كبيرة لأوروبا. من النقطة الزرقاء دوّت تاتاتاااا ثم خبر عاجل. فمال أبي بجسده مع الكرسي حتى وصلت يده إلى زرّ الراديو وبرمه رافعاً من قوّة الصوت. توقف الجميع عن الكلام، وأوقفوا طرطقة أدوات الطعام، حتى إن الريح أصغت من خلال نافذة الشرفة. ماكان قد بدأ في الأوّل من أيلول كان حسب قول أبي حرباً مباغتة. أما أمي فقد وصفته بغزو بولونيا. جدي الذي كان قد جدّف حول العالم على سفينة منطلقاً من مدينة بولا[2] فقد كان يشكّ في الأمر. لقد كان جلّ اهتمامه ينصبّ حول مايقوله الإنكليز حول هذه القصّة.

كلما ذكرت بولونيا يأخذ جدّي ملعقة سلطة خيار ويصمت. قالت أمّي، الطعام قضية عائلية، ولا تتلاءم مع أخبار السياسة في الراديو.

في نفاضة السجائر إلى جانب راديو النقطة الزرقاء كان أستاذ الرسم أبي قد رسم أعلام نصرٍ صغيرة ثلاثيّة الشكل، وعلقها على دبابيس ذات رؤوس ملونة. ولثمانية عشر يوماً

1- أونيفيرماغ Univermag: وهي الكلمة الروسية للسوبر ماركت، رغم احتوائه أكثر على أدوات المطبخ.

2- بولا Pula: ميناء ومدينة كرواتية بمقاطعة إستريا.

متتالية كان أبي يمضي بأعلامه الصغيرة باتجاه الشرق على صفحة الخارطة. وبعدها حدث ماحدث. قال الجدّ، انتهت قضية بولونيا وقضية الأعلام الصغيرة ومعهما الصيف أيضاً. بعدها نزعت جدتي الأعلام الصغيرة من الخريطة ثم عن دبابيسها وأعادت الدبابيس إلى علبة الخياطة. وراح راديو النقطة الزرقاء إلى غرفة نوم والدي. عبر ثلاثة حيطان متتالية كنت أسمع في بُكْرة كلّ صباح إشارة الاستيقاظ لراديو ميونيخ. كان اسم البرنامج رياضة الصباح ومع تلك الرياضة تبدأ أرضية البيت بالاهتزاز بشكل إيقاعي. أما أهلي فقد مارسوا تمريناتهم بقيادة مدرّب الرياضة من الراديو، وأرسلوني مرّة في الأسبوع إلى درس رياضة خصوصي لأمارس رياضة جمباز خاصة بالمعوقين، لأنني كنت مائلاً إلى السمنة وعليّ أن أصبح أكثر عسكرية.

يوم أمس قدم إلينا في المعسكر ضابط زائر بقبعة خضراء كبيرة مثل صحن من الكاتو، وألقى علينا خطبة أثناء وقوفنا في (الطابور). كانت خطبة عن السلام وثقافة الأقدام. أما تور بريكوليتش فقد سُمح له ألاّ يقاطع الضابط. كان واقفاً بجانبه، خاضعاً مثل مساعد القديس أثناء القداس وفي النهاية قدّم خلاصة لكلمة ذلك الضابط قائلاً: إن ثقافة الأقدام تقوي قلوبنا. وفي قلوبنا ينبض قلب الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية. إن ثقافة الأقدام تجعل قوة الطبقة العاملة فولاذية. عبر ثقافة الأقدام يزهر الاتحاد السوفييتي بقوة الحزب الشيوعي وبسعادة الشعب بالسلام.

لقد أوضح لي لاعب الأوكورديون كونراد فونّ، وهو من نفس بلد تور بريكوليتش، بأن حرف الواي Y بالروسية يلفظ يو U. وهكذا يجب فهم التعبير الذي ترجمه تور إلى ثقافة الأقدام على أنّه الرياضة. أي أن الضابط كان يتكلم عن تأهيل الجسد وقوته، وهي رياضة الجمباز باللغات السلافية. فالمشكلة كانت في لفظ الضابط للكلمة خطأً وفي عدم جرأة تور على تصحيح ماقاله ذلك الضابط.

أما رياضة الأقدام فقد عرفتها في درس الرياضة الخصوصي، حيث تقدّم المدرسة تمارين تكسير العظم في يوم الخميس الشعبي. إذ كان علينا كلّ خميس أن نشارك في الأمسية الوطنية التي تعقدها الثانوية. وفي هذه الأمسية نتدرب في ساحة المدرسة على الانبطاح

ثم القيام ثم تسلق الجدار ثم القرفصة والانبطاح وكسر الساعد ثمّ الوقوف أخيراً. كما تمرّنا هناك على النظام المنضم وترديد الأناشيد القومية حول إله الجرمان فوتان[1] وأقوام الفيكنغر[2] الجرمانية البحرية وملاحمها من القرن التاسع الميلادي. في أيام السبت والأحد كنا نعبر المدينة في مسير عسكري حتى نقطعها متعدين إلى خارجها. كما تدربنا في أحراش الهضاب المجاورة على أعمال التمويه بوضع أغصان الأشجار على رؤوسنا، أو أعمال الإشارة والاتجاهات بالمواء وتقليد عواء الكلاب. وتعلمنا ألعاب الحرب بتقسيمنا إلى فريقين عبر خيوط صوفيّة زرقاء وحمراء نضعها على الذراع. والذي كان يستطيع أن يقطع خيط عدوّه يكون قد قتله. ومن جمع في النهاية أكبر كمية من الخيوط يتمّ تتويجه مثل تتويج الأبطال وتزيينه بثمر الزعرور الأحمر كالدم.

في إحدى المرّات لم أعبأ بيوم الخميس الشعبي ذاك، وعدم المشاركة لم يكن أمراً بسيطاً في الحقيقة. ففي اليوم الذي سبق ذلك الخميس حدث زلزال كبير، وتهدّمت في بوخارست بناية كبيرة دافنةً تحت أنقاضها الكثير من مستأجريها. عندنا في المدينة لم تتهدم إلا المداخن الحجرية في أعلى البنايات، أما في بيتنا فلم يسقط سوى أنبوبان من المدفأة على أرضية المنزل. وهذا ماستخدمته حجّةً من أجل الامتناع عن الذهاب إلى ذلك المساء. لم يسأل المدرّب عن الغياب وسببه، لكنّ رياضة المعوقين كانت قد تركت آثارها في رأسي. فقد رأيت في غيابي عن ذلك المساء برهاناً على أني فعلاً معوق جسدياً.

في تلك الأيام المثيرة قام أبي بتصوير البنات الساكسونيات بثيابهن التقليدية، كما التقط صوراً للاعبات الجمباز كذلك.

كان قد اشترى لهذا الغرض كاميرة لايكا، ومارس الصيدَ في أيام الأحد من الأسبوع. حين راقبته يوم الاثنين كيف كان يسلخ جلد الأرنب الذي اصطاده، أو كيف كان الأرنب عارياً من جلده، مزرقاً ومشدوداً كلاعبات الجمباز الساكسونيات على العارضة. كانت تلك الأرانب تؤكل، أما جلودها فقد كانت تعلق مثبتة على حائط الكراج. وكلّ نصف

1- فوتان Wotan: وهو اسم الإله الجرماني أودين.
2- فيكنغر Wikinger: أقوام جرمانية بحرية محاربة من القرن التاسع الميلادي.

سنة يأتي السيد فرينكل ليأخذها. في إحدى المرّات لم يأت الرجل، ولم يُرد أحد أن يعرف السبب. كان فرينكل يهودياً، أشقر محمرّاً، كبير الجثة نحيفها، يشبه الأرنب تقريباً. والأمر نفسه حدث لفيردي رايش الصغير وأمه، اللذين كانا يسكنان عندنا في الطابق السفلي ببَيْتنا، لم يبق لهم أثر. ولا أحد يريد أن يعرف أكثر من ذلك. كم كان سهلاً ألا تعرف شيئاً. فقد قدم لاجئون من بيسّارابيِن المولدافية على البحر الأسود ومن ترانسنيستريِن المولدافية شرق نهر دنيسترِ. كان يتم إيواؤهم فيبقون فترة ويرحلون بعدها من جديد. ثم أتى جنود ألمان من الأمبراطورية، تم إيواؤهم أيضاً، بقوا لفترة ثم رحلوا ثانية. وذهب أقرباء لنا وجيران ومعلمون للحرب إما إلى الفاشيين الرومان أو مباشرة إلى هتلر. بعضهم عاد إلينا أيام هدنة الجبهة وبعضهم لم يعد إطلاقاً. كان يوجد أيضاً ناس للتحميس، وهم رجالٌ تجنبوا الذهاب إلى الجبهة وبقوا في البيت متنقلين بالبزّة العسكرية من حفلات الرقص إلى المقاهي يحضّون الناس من أجل الذهاب إلى الحرب.

كما ارتدى أستاذ العلوم الطبيعية الجزمة والبدلة العسكرية، حين شرح لنا درس الزنبق الذهبي كمثال على النباتات الطحلبيّة. وشرح لنا زهرة الجبل، التي كانت أكثر من نبتة، لقد كانت موضة. كان الناس كلّهم يحملون على صدورهم رتباً ونياشين بنماذج الطائرات أو الدبابات أو صنوف الأسلحة أو البربهان الأبيض أو زهرة الجبل، وكأنّهم يعلقون على أجسامهم رقية أو حجاباً. كنت أجمع تلك النياشين، وأقايض بها، وهكذا تعلمت المراتبيّة في الجيش عن ظهر قلب. أحبّ الرتب إلى قلبي كانت رتبة العريف والرقيب. إذ اعتقدت أن الجنود هم عشاق ذوو رتب، كأن تقول مثلاً: عاشق أول وعاشق مساعد. ذات مرّةً أعطينا أحد العرفاء من الأمبراطوريّة، واسمه ديترش، مأوى عندنا في البيت.

ومرّةً، وحين كانت أمي تأخذ حمّامها الشمسي على سطح الكراج، لاحقها ديترش بمنظاره من النافذة، فرآه والدي من على الشرفة، وعندما التقاه في الدار سحبه إليه وكسّر له منظاره بالمطرقة على أرض الديار المرصوفة بالحجر إلى جانب الكراج. واحتجاجاً على فعلة أبي هجرت أمي البيت آخذة معها صرّة ثياب تحت إبطها وذهبت مدة يومين إلى بيت عمتي فيني. قبل أسبوعين كان ديتريش قد أهدى أمي كوبَيْ موكّا على عيد ميلادها.

وكنت أنا المذنب في ذلك، فأنا الذي أسرّيت له بأن أمي تحبّ جمع أكواب الموكّا، وذهبتُ معه إلى محل بيع البورسلان. في المحلّ نصحته بكوبين يمكن أن يعجبا أمي. كان كوبا الموكا من اللون الوردي الفاتح مثل غضروف ناعم ويحملان حافّةً فضيةً ودمغةً ذهبية على أعلى الأذن. أمّا نيشاني الذي يأتي بالدرجة الثانية في سلم محبتي فقد كان مصنوعاً من صمغ بلاستيكي، كان أبيض ناصعاً ومطعّماً بالفوسفور، فيضيء في الليل مثل ساعة المنبّه.

لقد ذهب أستاذ العلوم الطبيعيّة إلى الحرب ولم يعد. أما أستاذ اللغة اللاتينية فقد جاء من الجبهة في إحدى العطل ومرّ علينا في المدرسة. وهناك جلس أمام الصفّ على المنصّة وأعطانا ساعة لغة لاتينيّة. لقد انتهت ساعته بسرعة أكبر مما كان يظنّ، كما أنّها كانت مختلفة أيضاً. أحدُ التلاميذ، والذي كان قد احتُفل به في أماسي الخميس الشعبيّة وزيّن أكثر من مرّة بأغصان الزعرور، قال في بداية الدرس: احكِ لنا أيها السيد الأستاذ، كيف هي الحال على الجبهة. عضّ الأستاذ على شفتيه وقال: ليس كما تعتقدون أنتم. ثم قست ملامح وجهه فجأةً وبدأت يداه ترتجفان، ذلك مالم نعهده فيه من قبل. ليس كما تعتقدون، جملته التي أعادها للمرة الثانية. ثم ألقى برأسه على الطاولة، وأرخى يديه مثل لعبة قماشية معلقة على الكرسي وجهش بالبكاء.

كانت القرية الروسيّة صغيرة، فعندما كان الواحد منّا يذهب للاستجداء فيها، كان يرجو ألاّ يلتقي بأي مستجد آخر من المعسكر، فقد كنّا جميعاً نستجدي بالفحم. عندما تكون شحّاداً حقيقياً، فإنّك تخبيء يديك، حاملاً قطعة الفحم في رقعة قماش بين ذراعيك وكأنّها طفل صغير. تطرق على باب ما، وعندما يفتح هذا الباب ترفع رقعة القماش عن الفحمة عارضاً ماليديك. لم تكن التّجارة بالفحم مضمونة النجاح بين شهري أيار، مايو وأيلول، سبتمبر، لكننا لا نملك غير الفحم. رأيت في إحدى حدائق البيوت نبات ملكة الليل وخزانةً مليئة بأكواب وردية فاتحة ذات حواف فضيّة، ثم مشيت مطبقاً عينيّ وقلت: **كوب موكا**، ثم قمت بعدّ أحرف الكلمة بصمت: سبعة. تقدمت عادّاً خطواتي حتى صرن سبعاً، بعدها أربع عشرة خطوة لكلا الكوبين. في المكان الذي وقفت فيه لم أجد أي بيت. ثم عددت حتى السبعين خطوة من أجل الأكواب العشرة التي تملكها أمي في خزانتها في

البيت، لأتجاوز بخطواتي ثلاثة بيوت. بعدها طرقت أوّل بابٍ وصلت إليه ولم يكن زهر البيتونيا موجوداً في حديقة ذلك البيت.

عن السفر

كان السفر دائماً سعادة.

أولاً: مادمتَ مسافراً، فأنت لم تصل بعد. ومادمت لم تصل، فليس من واجبك أن تعمل. إن السفر وقت للصيانة.

ثانياً: عندما تسافر، فإنك تصل إلى منطقة لاتحفل بك إطلاقاً. فالشجر لا يصرخ بوجه أحد ولا يضربه. يمكن أن يؤذيك أحد تحت الشجرة، لكن الشجرة لا علاقة لها بذلك.

الدليل الوحيد لوصولنا إلى المعسكر كان **نوفو – غورلوفكا**[1]. وهو اسم يمكن أن يكون للمعسكر أو لمدينة وأيضاً للمنطقة بكاملها. لا يمكن أن يكون اسماً للمصنع، فالمصنع يسمى **كوكزوخيم – زافود**[2]، وهو مصنع لإنتاج فحم الكوك. كان على أرض المعسكر بجانب صنبور الماء غطاء قناة كتب عليه بأحرفٍ روسيّة. بمساعدة معلوماتي البسيطة للغة اليونانية استطعت فكّ رموز كلمة **دنيبروبيتروفسك**[3]، وهذا مايمكن أن يكون اسماً لمدينة قريبة من المعسكر أو ربما لورشة صبّ معادن في الطرف الآخر من البلاد الروسيّة. عندما كنا نخرج من المعسكر، كنا نرى بدلاً من أحرف الأبجدية هذه باديةً واسعةً تحوي بعض المناطق المأهولة بالسكان، وهذا أيضاً ماجعل من السفر سعادة. كان يتمّ توزيع عمال النقل كل صباح على السيارات الشاحنة في الكراج الواقع خلف المعسكر، وغالباً في مجموعات ثنائية. وهكذا كانت سيارة اللانسيا، التي تزن أربعة أطنان، من نصيبي أنا وكارلي هالمِن، وهي شاحنة من موديلات ثلاثينيات القرن العشرين.

كنا نعرف شاحنات الكراج الخمس، نعرف إيجابياتها وسلبياتها. اللانسيا كانت من النوع الجيد، ليست عالية جداً ومصنوعة بكاملها من الصفيح ولايوجد فيها أثر لخشب. أسوأ منها كانت سيارة ال: مان ذات الخمسة أطنان، والتي كانت دواليبها تصل في ارتفاعها حتى أعلى صدر الرجل. أما سائق اللانسيا الجيدة تلك فكان أبو الفم المعوجّ. لقد كان كوبيليان طيب القلب.

1- نوفو – غورلوفكا Nowo–Gorlowka: مدينة أوكرانية.

2- كوكزوخيم – زافود Koksochim–Sawod: معمل كيميائي لصناعة فحم الكوك.

3- دنيبروبيتروفسك Dnjepropetrowsk: مدينة أوكرانية جنوب شرق العاصمة كييف.

عندما تكلم كوبيليان كيربيتش، فهمنا أنّ علينا السفر اليوم عبر البادية الفسيحة لجلب أحجار آجر حمراء. في تلك البادية وحين تكون الدنيا قد أمطرت ليلاً، كنت ترى لمعان حطام السيارات المحروقة وخردة الدبابات في المنخفضات، وكلاب الأرض تهرع هاربة أمام العجلات. جلس كارلي هالمن في الكابين إلى جانب كوبيليان. أما أنا فكنت أحبّ الجلوس فوق القاطرة ماسكاً بالسقف لتثبيت نفسي. كنت ترى في البعيد ثكنة مسكونة بطوابقها السبعة مبنيةً من حجر الآجر الأحمر، كانت بلا سقف ونوافذها مثقبة وفارغة. حداثةٌ نصف خربة، يتيمة في تلك الناحية من الأرض. ربما كانت تلك أول بناء سكنيّ في حارة جديدة تم توقيفها بين عشيّة وضحاها، أو ربما أتت الحرب قبل إكمال السطح.

كان الطريق الزراعيّ مليئاً بالحفر، واللانسيا تصلُّ مارقة على بعض الدور المذرورة هنا وهناك، حيث نما القراص في بعض الحفر حتى وصل الخاصرة في علوه، بينها انتصبت هياكل أسرّة حديدية وقد وقفت عليها دجاجات بريش أبيض هزيلة كرقع الغيم. كانت تقول جدتي: ينبت القراص فقط حيث يسكن البشر، أما الأرقطين الشائك فينبت حيث تعيش الأغنام.

لم أر بشراً في دور تلك البيوت. كنت أريد أن أرى أحداً من هذه البلاد لا يعيش في معسكر، أحداً عنده منزل وللمنزل سور وفيه غرفة مؤثثة وفيها سجادة بل وربما كان بحوزته نفّاضة للسجاد أيضاً. إذ فكّرت بأنّ المكان الذي ينفّض فيه السّجاد مكان آمن والحياة مدنية هناك والناس ينعمون بالحرية.

في إحدى الدور وفي أوّل رحلة مع كوبيليان رأيت عصاً لنفض السجاد. كان لها حلقة أسطوانية يمكن سحبها أثناء النفض للأمام والخلف. إلى جانب عصا النفض انتصب إبريق ماء مغطى بالمينا البيضاء اللون. كان الإبريق يشبه إوزةً في منقارها ونحافة رقبتها وثقل بطنها. كان المنظر جميلاً لدرجة صرت فيها وكلّ مرة، حتى في هبات الريح الفارغة في قلب تلك البيداء، أبحث عن عصا تَنْفض السجاد، لكنني ماعثرت ثانيةً أبداً لا على تلك العصا ولا على الإوزّة.

بعد تلك الدور المتقدمة بدأت تظهر إحدى المدن الصغيرة ببيوتها ذات اللون الأمغر

وزخارف الجبس المتفككة وسطوح الصفيح الصدئة. بين بقايا إسفلتية اختبأت سكّة حديد الترامواي. كانت تسير على تلك السّكة بين فترة وأخرى عربات ثنائية العجلات تجرها الأحصنة قادمة من المخبز. كانت مغطاة كلّها بملاءات كتّانية بيضاء مثل العربة اليدوية التي في المعسكر. ولكنّ الأحصنة نصف الميتة جوعاً جعلتني أشكّ بوجود خبز وأعتقد أن جُثَثاً مات أصحابها من الجوع تحت تلك الملاءات الكتانية.

قال كوبيليان: هذه المدينة تسمى نوفو-غورلوفكا. هل أخذت المدينة اسمها من اسم المعسكر، سألت أنا. أجاب: لا، المعسكر هو الذي سمّي باسم المدينة. لم يكن يوجد ولا في أيّ مكان لافتات بأسماء الأماكن. المسافر الذي يستطيع الوصول هو في الحقيقة كوبيليان واللانسيا، هما من كان يعرف أسماء المناطق. أما من كان غريباً عن تلك المناطق، فكان عليه أن يسأل عن الاسم كما كنت أفعل أنا وكارلي هالمِن. ومن لا يجد أحداً يسأله، فلن يجد هذا المكان الذي هو فيه الآن ولا حاجة له أيضاً للبحث عنه.

من منطقة مابعد المدينة حمّلنا أحجار الآجر في السيّارة. تستمر عملية التحميل تلك ساعة ونصف الساعة عندما نكون اثنين فقط وتستطيع اللانسيا أن تقترب بمؤخرتها من كومة الأحجار.

يمكنك حمل أربع حجرات في كلّ مرة، ترتّبها واحدة فوق الأخرى مضغوطة مثل الأكورديون. ثلاث حجرات في الشوط الواحد قليل، وخمس حجرات كثير. يمكن للمرء حمل خمسٍ، لكنه في هذه الحال سيخسر الوسطى فيهن، لأنها ستنزلق منفلتة، أي أنّك تحتاج ليدٍ ثالثة كي تمسكها. يمكن ترتيب الأحجار على كامل مساحة مقطورة الشاحنة بعضها إلى جانب بعض دون فواصل ولثلاث وحتى أربع طبقات في الارتفاع. للآجر رنين خفيف، وتختلف كل حجرة في رنينها قليلاً عن الأخرى. ينتج عن حجر الآجر دائماً نفس الغبار الأحمر، الذي ينزل جافّاً على الثياب. لا يقيّدك غبار الآجر مثلما يفعل فيك غبار الإسمنت، ولا يدهن نفسه عليك كالسمنة مثل غبار الفحم. حين لامسني غبار الآجر خطر على بالي الفلفل الأحمر الحلو، رغم أنه من غير رائحة.

لم تصدر اللانسيا أيّ صليل في طريق العودة، فقد كانت أثقل من أن تصدر عنها مثل

تلك الخشخشة. فقد سلكنا طريق تلك المدينة الصغيرة نوفو غورلوفكا ثانية عابرين شارع سكّة الحديد، مارّين ثانية على تلك الدور ماقبل المدينة ثم إلى الطريق الزراعي تحت رقع الغيم فوق تلك البادية حتى وصلنا إلى المعسكر، حيث اجتزناه لنصل أخيراً إلى ورشة البناء.

تنزيل الأحجار أسهل من تحميلها، رغم أنه عليك أن تصفف الأحجار بعضها فوق بعض، لكن ليس بنفس الدقة كما هو الحال في التحميل، لأنها غالباً ماتؤخذ في الحال أو في اليوم التالي على الأكثر عبر السقالة لتقدّم للبنائين على الجدار.

مع الرحلة ذهاباً وعودة ثم التحميل والتنزيل ينجز المرء نقلتين في النهار، أي حتى حلول الظلام. كان كوبيليان يذهب أحياناً في نقلة ثالثة دون أن يقول شيئاً. كنت وكارلي نعرف أنها سفرة خاصة. وهكذا لا نملأ السيارة إلا نصفها ولطبقة واحدة فقط. في طريق العودة ننحني بالسيارة خلف الخربة ذات الطوابق السبعة نازلين في منخفض، هناك تنمو أشجار الحور في صفوف حول البيوت. في تلك اللحظة كانت الغيوم أيضاً حمراء آجريّة من وطأة المساء، حين كانت السيارة تدخل بين السياج والكراج في دار كوبيليان، ثم تقف فجأة مرتدة إلى الوراء لأجد نفسي واقفاً ربما في أحضان شجرة فاكهة متيبسة وعارية إلا من كراتٍ عجوزة باقية من الصيف الماضي أو ماقبل الماضي، تلك التي غمرتني حتى أعلى مؤخرتي.

تسلق كارلي صاعداً إليّ. لقد قدّم لنا آخر ضوء بقي من ذلك النهار فاكهة معلقة أمام أعيننا وكوبيليان تركنا نقطفها قبل تنزيل حمولة الشاحنة.

كانت كرات الفاكهة يابسة كالخشب، وكان علينا مصّها وبلع رحيقها قبل أن يصبح طعمها كرزاً حامضاً، وإذا كنت جيّد المضغ، تنزلق البذرة في النهاية على لسانك ملساء وساخنة. لقد حملت لنا الكرزات الليليات معها السعادة، لكنها سببت في تعميق الجوع أيضاً.

كان الليل قد أصبح من حبر حين عدنا إلى المعسكر. كم كان نافعاً أن تعود إلى المعسكر متأخراً. فـ(الطابور) لترديد الشعار الليلي كان قد انتهى، وطعام العشاء بدأ منذ وقت

طويل، والحساء الخفيف في أعلى المرجل وزع على الآخرين، ليكبر حظّك في الحصول على حساء غنيّ من الأسفل.

ورغم كلّ تلك الإيجابيات فقد كان للعودة المتأخّرة سيئاتها، كأن لا تجد حساء إطلاقاً، وأن يصير كلّ ماتجده إلى ليلٍ كبير فارغ إلا من القمل.

عن الناس الصارمين

غسلت بيا تساكِل يديها على البئر، ثم أتت ماشية على طول الشارع الرئيسي للمعسكر. جلست إليّ على المقعد ذي المسند. كانت عيناها، اللتان بهما شيء من الحوَل، تنزلقان عبر نظرتها المقلوبة. هي في الحقيقة ليست حولاء، هي تضيف لدوران عينيها شيئاً من التأجيل، لأنها تعرف أن هذا يعطيها بعض التفرُّد المُرْبك. ثم تبدأ حديثها، هكذا ببساطة تبدأ الكلام. تتكلّم بسرعة مثل تور بريكوليتش، مع فرق واحدٍ أنّها لاتطالبك بالكثير مثله. ثم تدور بنظرتها المنزلقة باتجاه المصنع، تنظر إلى الضبابة الخارجة من أبراج التبريد، وتحكي لك عن جبال ملتقى البلدان الثلاثة، هناك حيث تلتقي أوكرانيا مع بيسّارابيان وسلوفاكيا[1].

وعلى مهلٍ تبدأ بعد ذلك عدّ الجبال التي تعرفها من بلدها، تاترا المنخفضة، البيسكيدن[2] التي تصب في غابات الكاربات على المجرى الأعلى للتايس[3]. قالت: قريتي اسمها لوغي، قرية فقيرة مختبئة عند كاشاو[4]. هناك تنظر إلينا الجبال من علٍ، هي تنظر عبر رؤوسنا إلينا مادمنا أحياءً وحتى لحظة موتنا. من يَعِشْ هناك يصبح عميقَ الإحساس، لكنّ الكثير من سكان المنطقة يهجرونها. فأنا مثلاً ذهبت إلى براغ للالتحاق بالمعهد العالي للموسيقى.

برج التبريد الكبير هذا كشيخة تحمل على عجيزتها غطاءً خشبيّاً معتماً مثل مشدّ. محشورةً تتصاعد من مقدّمتها غيوم بيضاء ليلاً ونهاراً، لتذهب هي بدورها بعيداً كما يفعل أهل جبال قرية بيا تساكِل.

ثمّ أحكي أنا لبيا عن جبال بلدي زيبن بورغن[5]، أقول لها، هي تنتمي أيضاً لجبال الكاربات. الفرق بين جبالنا وجبالكم أنّ في وديان جبالنا بحيرات عميقة مدوّرة. يقول أهل بلادي عنها، إنّها أعين البحر في الجبال، فهي عميقة لدرجة أنّ قيعانها تتصل بالبحر الأسود.

1- بيسّارابيان Bessarabien: منطقة واقعة في شمال البحر الأسود وتتبع اليوم روسيا.

2- بيسكيدن Beskiden: مناطق في جبال الكاربات منها ماهو بولوني ومنها أوكراني وتشيكي وسلوفاكي أيضاً.

3- تايس Theiss: رافد من روافد الدانوب، من كبار أنهار هنغاريا وصربيا.

4- كاشاو Kaschau: مدينة في شرق سلوفاكيا، على الحدود مع هنغاريا.

5- زيبن بورغن Sieben Bürgen: وتعني القلاع السبعة. تسمى أيضاً ترانسيلفانيا، وهي منطقة في الشمال الغربي لرومانيا الحالية، جنوب جبال الكربات، تعيش بها أقليّة ألمانيّة.

وهكذا يقف المرء بنعلي رجليه على الجبل وبناظريه على البحر عندما يتطلع في بحيرة جبليّة هناك. يقول جدي، جبال الكاربات تحمل تحت الأرض البحر الأسود على ذراعيها.

بعد ذلك تكلمت بيا عن أرتور بريكوليتش، وقالت إنّه ينتمي إلى طفولتها، وإنّه من قريتها ويسكن في شارعها نفسه، حتى إنه جلس معها على المقعد ذاته في المدرسة. أثناء اللعب كان عليها أن تأخذ دور الحصان، ويأخذ تور دور الخيّال، حيث وقعت وانكسرت ساقها. غير أنّ ماكان يفعله تور لم ينكشف إلا متأخراً. لقد كان يسوقها بالسوط ثم يزعم أنها منافقة، لأنها كانت ترفض أحياناً قبول دور الحصان ثانية. قالت بيا، لقد كان تور سادياً حين كان يلعب معي على شارعنا المنحدر، سادياً بلا انتهاء. ثم حكيت أنا عن لعبة الألف رِجْل. في هذه اللعبة يتمّ تقسيم الأولاد في مجموعتي الألف رِجْل. تصطفُّ المجموعة الأولى مقابل الثانية ويصبح على إحدى المجموعتين أن تسحب المجموعة الأخرى إلى ناحيتها عبر حدّ مرسوم بالطبشور، لأنها تريد أن تفترسها. حيث يمسك كل ولد الذي أمامَه من خصره ويشدّه بكل ما أوتي من قوة. ويكاد المرء أن يتمزق من قوة الشدّ، فقد كان حوضي يُملأُ بالرضوض وتخلع أكتافي.

أنا لست حصاناً وأنتَ لستَ صاحب الألف رجل، قالت بيا. لو أنك ما لعبتَ فعلاً، لعوقبتَ حسب القانون. والمرء لايستطيع الإفلات من ملاحقة القانون، حتى لو رحل إلى براغ. فأقول أنا، أو حتى لورحل إلى المعسكر. تقول بيا: نعم، لأن تور سيأتي أيضاً. لقد ذهب معي أيضاً للدراسة هناك، كان يريد أن يصبح مبشّراً للكنيسة، ولم يصبح.

ومع ذلك فقد بقي في براغ، محوّلاً ركبه إلى التجارة. هل تعرف أن قوانين القرية الصغيرة وحتى قوانين براغ نفسها صارمة جداً، فأنتَ لا تستطيع الإفلات منها، إنها موضوعة من قبل بشرٍ صارمين.

ثم تشرعُ بيا في ذلك التأجيل البسيط بنظرتها المنزلقة وتقول:

أنا أحبّ الناس الصارمين.

واحداً منهم، أقول أنا في خاطري وأكبح شهوتي في التفوّه بذلك، لأنها تعيش من هذه الصرامة وتحصل، بخلافي أنا، من إنسانها الصّارم ذاك على مكان عمل جيد في غرفة

الغسيل. هي تشتكي من تور بريكوليتش، تريد أن تكون منّا، بشرط أن تعيش كما هو يعيش. عندما تتكلم بيا بسرعة، تقترب أحياناً من إلغاء هذا الفرق بيننا وبينها. ولكن وقبل حدوث ذلك، تندسّ عائدة إلى نقطة أمانها. من الممكن أن تتطاول عيناها أثناء نظرتها المنزلقة بسبب نقطة الأمان تلك. كما أنّ الفائدة التي تجنيها تشغل فكرها حين تتكلم معي. وربما تكثر في كلامها لأنها تتوق لبعض الحريّة مع هذا الرجل الصارم، حرية لا يدري هو شيئاً عنها. بل وربما كانت تغريني للخروج بالاحتياطي الذي بحوزتي، لأنها تنقل لتور كلّ شيء نتحدّث عنه.

ثم أحكي لبيا أغنية طفولتي:

الشمس عالية في خمارها

والذرة صفراء

ولا وقت.

إن أقوى رائحة أشتمّها الآن من طفولتي هي رائحة عفن حبات الذرة في طور إنباتها الجنيني. كنّا قد سافرنا في العطلة المدرسية الطويلة إلى الفينش، وبقينا هناك ثمانية أسابيع متواصلة، حيث عدنا بعد انتهائها إلى البيت.

في فناء البيت وعلى كومة من الرمل وجدت حبّات الذرة نابتةً. وعندما قلعتها من الرمل، رأيت الجذور الناعمة البيضاء ومن الجانب كانت الحبّة الأمّ مازالت عالقةً بلونها الأصفر ورائحتها العفنة.

كررت بيا: ذرةٌ صفراء ولا وقت. ثم مصّت أصبعها قائلةً: عظيم أن الإنسان يكبر.

بيا تساكِل أطول مني بمقدار نصف جمجمة الرأس. جدائلها ملفوفة حول رأسها كقطعة من الحرير المحاك بخيطان سميكة كذراع اليد. ربما لا يعود الفخار البادي من مظهر رأسها إلى أنها تعمل في غرفة الغسيل، بل لأنّ عليها حمل مثل هذا الشعر الثقيل. ربما كان عليها حمل هذا الشعر الثقيل منذ طفولتها، كي لاتستطيع الجبال التي تخبّئ قريتها الفقيرة النظر إليها من فوق عبر رأسها مادامت تحيا وحتّى لحظة موتها.

لكنها لن تموت هنا في المعسكر. هذا ماسيضمنه لها تور بريكوليتش.

قطرة حظٍّ زيادة لإيرما بفايفر

مسامير من الجليد نزلت مع المطر الهاطل في نهايات شهر تشرين الأول، أكتوبر. يومها لقننا المرافق ومعه المراقب الأول المكاييل العيارية وعادوا فوراً إلى مكاتبهم الدافئة في المعسكر. لقد بدأ يومنا هادئاً في ورشة البناء، دون أن يعترينا أي خوفٍ من صراخ آمرٍ أو رئيس.

وفجأة حين كان نهار ذلك اليوم الهادئ ينتصف سمعنا صرخات صوتٍ نعرفه، إنها إيرما بفايفر. لم يفهم أحد منّا محتوى تلك الصرخات، فربما قالت كلمات مثل **ساعدوني، ساعدوني أو أنا لا أريد الاستمرار**. ولأننا لم نستطع سماع ماقالته جيّداً، فقد ركضنا حاملين الرفوش وألواح الخشب إلى حفرة صبّ (البيتون). لم نكن سريعين بما يكفي، فرئيس الورشة كان واقفاً هناك، وأمرنا بترك مابأيدينا يسقط على الأرض، ووضع أيدينا خلف ظهورنا، روكي نا ساد – لقد أجبرنا برفشه المرفوع أن نقف متفرجين أمام حفرة الصبّ دون أن نستطيع فعل شيء. كانت إيرما بفايفر ملقية في الحفرة الاسمنتية ووجهها نحو الأسفل،حيث تخرج بعض الفقاعات من خلطة الإسمنت التي حولها. بلعت الخلطة ذراعيها أولاً، ثم ارتفع اللحاف الاسمنتي الرمادي ليغطيها حتى باطن ركبتيها. لا نهائياً كان طول الثواني التي قضتها الخلطة الاسمنتية اللزجة بوجهها المجعد وهي تنتظر، لتترجرج بعدها وتغطّي المرأة دفعة واحدة حتى أعلى ردفيها. بين الرأس والقبعة اهتزت رّوبة الإسمنت حيث غطس الرأس تاركاً القبعة تطفو مرتفعة على السطح. فتحت القبعة غطائي الأذنين وسبحت مثل حمامة منتفشة الريش ببطءٍ باتجاه طرف الحفرة. أما قفا الرأس المحلوق على الصفر، المليء بعضّات القمل المقشّرة بعد جفافها فقد بقي بارزاً على السطح كنصف بطيخة.

أخيراً وحين ابتلعت خلطة (البيتون) الرأس، ولم يبق منه ناتئاً سوى حدبته، قال رئيس الورشة: **شالكو، أوتشين شالكو**، خسارة، خسارة كبيرة.

بعدها ساقنا برفشه إلى طرف الورشة حيث نساء الكلس، لنجتمع في كومة واحدة ويصرخ فينا قائلاً: **فنيمانيه ليوديه**، انتبهوا أيها الناس! كان على لاعب الأكورديون كونراد

فونّ أن يترجم: انتبهوا أيها الناس، عندما يريد أحد المخرّبين الموت، فليكن له. هي التي قفزت في الحفرة، والبناؤون رأوها من فوق السقالة.

كان علينا بعد الخطبةِ أن نصطفّ ونسير باتجاه أرض المعسكر، حيث انعقد الاجتماع قبل الظهر في ذلك اليوم، تحت هطل مسامير الجليد في المطر الساقط. يومها اعترى وقفتنا من الداخل والخارج هدوء مشوّه من شدة الذعر. جاء شيشتفانيونوف من مكتبه راكضاً مزمجراً. وحول فمه انعقد لعابه مزبداً مثل حصان ثائر. خلع قفازي يديه الجلديين وقذفهما بيننا. وحيث سقطا، كان على أحدنا الانحناء لرفعهما وإعادتهما له مرة بعد أخرى. ثانية وثالثة... حيث تركنا بعدها مخلّفاً لنا تور بريكوليتش، الذي ارتدى يومها معطفاً من جلد زيتي اللون خاص بالفرسان (جزمة غوما) طلب التفقد، أمام سر، وراء در، إعادة التفقد، أمام سر، وراء در متابعاً هذه النغمة حتى كسانا ظلام المساء.

لا أحد يعرف متى أخرجوا إيرما بفايفر من حفرة البيتون ولا أين طمرت ثانية. في صباح اليوم التالي سطعت الشمس باردة وفي الحفرة، كما هو الحال دائماً، صبّ (بيتون) جديد. لقد نسينا اليوم الذي فات، ولا شكّ في أن البعض تذكر إرما بفايفر وفكّر في قبعتها التي كانت مازالت في حالة جيدة وكذلك في طقمها القطني، إذ ربما قبرت تحت الأرض وهي ترتديه، والأموات لا يحتاجون إلى ثياب، حين يجمد الأحياء من شدة البرد.

لقد أرادت إرما بفايفر أن تختصر الطريق حين لم تستطع رؤية مواقع قدميها هي تحمل كيس الإسمنت على بطنها.

لقد ارتوى كيس الإسمنت الذي كانت تحمله مطراً ثلجيّاً وسقط في الحفرة قبلها، ولهذا لم يستطع أحدٌ منّا رؤيته حين وصلنا راكضين إلى مكان الحفرة. هذا ما كان يقصدهُ لاعب الأكورديون كونراد فونّ بكلامه. تستطيع أن تبطّنَ كلامك بكثيرٍ من المعاني، ولكنك لا تستطيع معرفة هذا الكثير.

شجرات الحَور السوداء

كان الليل الواصل بين الواحد والثلاثين من شهر كانون الأول، ديسمبر والأول من شهر كانون الثاني، يناير، أي ليل بداية السنة الجديدة، هو اليوم الأول من عامنا الثاني في المعسكر. نادوا علينا في منتصف الليل عبر مكبرات الصّوت إلى ساحة الاجتماع، ثم ساقونا يحرسنا ثمانية عساكر مدججين بأسلحتهم وكلابهم على طول شارع المعسكر، وإحدى سيارات الشّحن تسير خلفنا. في الثلج الكثيف وراء المصنع، حيث تبدأ الأراضي البور أمرونا بالاصطفاف أمام سياج من (البيتون) والانتظار، فقلنا في أنفسنا إنّها ليلة إعدامنا رمياً بالرصاص.

زاحمتُ لأقف في الصفّ الأمامي، كي أكون بين أوّل الضحايا، لا أن أضطر فيما بعد وفوق كلّ ماتحمّلته على تحميل الجثث وشحنها، فالسيارة كانت تنتظر على طرف الشارع. كان شيشتفانيونوف وتور بريكوليتش قد تسللا إلى كابينة السيارة وتركا المحرك يعمل كيلا يَبْرُدا، أمّا جنود الحراسة فقد كانوا طالعين ونازلين والكلاب واقفة بعضها إلى جانب بعض في رتلٍ مغلقة عيونها من شدّة البرد. بين الكلاب كنت ترى هنا أو هناك كلباً يرفع قائمتيه عن الأرض كيلا يتجمّدا من شدة البرد.

هناك وقفنا. عجائز في وجوهنا والحواجب من جليد. لم يكن ارتعاش شفاه بعض النساء من شدة البرد فقط، بل من تمتماتهنّ ببعض الصلوات. قلت لنفسي، سيكون لكل شيء نهاية الآن، رغم وداع جدّتي الذي يقول: أنا أعرف أنك ستعود. صحيح أن وداعها كان منتصف الليل، لكنه كان أيضاً في منتصف العالم. لقد انتهوا في الوطن الآن من احتفالهم برأس السنة الجديدة، ربما قرعوا الكؤوس عند انتصاف الليل باسمي كي أبقى على قيد الحياة.

أمنيتي أنّهم فكروا بي في الساعات الأولى من العام الجديد، قبل أن يذهبوا إلى فراشهم الدافئ. على صندوق جدّتي الليليّ يستلقي خاتم زواجها الذي تنزعه كلّ مساء،لأنه يضغط على أصبعها. أما أنا فواقف أنتظر رميي بالرصاص. رأيت، كأنني في حلم، أننا نقف في خندق كبير جداً. خندق مغطّى بسماء مدهونة بسواد الليل ومزينة بنجوم مصقولة

برهافة. قاع الخندق كان بعمق الركبة مفروشاً بالقطن، كي نسقط حين نرمى على أرض رخوة. أما حيطان الخندق فقد كانت مزينة بلا نهاية بديباج متصلّب وبكشكش من حرير وقماش مطرّزٍ بإغواء. وهناك على سور المعسكر، بين أبراج الحراسة حمل الثلج نعشاً، وفوقه في السماء انتصب سرير طابقيّ بارتفاع البرج. كان نعشاً طابقيّ المبنى، لكلّ منّا فيه مكان، مسطرين بعضنا فوق بعض كما في أسرّة البراكات. فوق أعلى طابق امتدّ الغطاء المدهون بالأسود، وفي أبراج الحراسة حول النعش وعلى الرأس وعند نهاية القدمين وقف اثنان من كتيبة التشريفات بملابس سوداء لحراسة الجثث. على طرف الرأس من جهة بوّابة المعسكر الرئيسة لمعت أضواء حراسة المعسكر مثل شمعدانات. عند نهاية القدمين المعتمة وقف تاج شجرة التّوت المغطاة بالثلج كرزمة ورد بهيّة منمقة بأسمائنا على عدد لايحصى من الشرائط الورقية. الثلج يخمّد الصوت، فكرت بيني وبين نفسي، ولهذا قد لا يسمع أحد صوت الرصاص. أهلنا ينامون الآن مهفهفين بالحرير، بلا همّ متعبين من احتفال عيد رأس السنة هناك في وسط الدنيا. ربما يحلمون الآن بجنازتنا الملعونة في بداية هذا العام الجديد. وهكذا ماعدت أودّ الخروج من الخندق ذي النعش الطابقيّ. حين تريد أن تهزم خوفك من موت لا مَحيد عنه، يحوّل الموت خوفك إلى شيء يسحر لبّك.

الشيء نفسه يحدث مع هذه البرودة الجليدية، حيث لا تستطيع أن تتحرك فيها، إنها تغزل الجحيم برقّة. لقد استسلمتُ في غيبوبة التجمّد هذه لإعدامي رمياً بالرصاص.

وهكذا ودون سابق إنذار يرمي لنا شخصان روسيان ملثّمان رفوشاً من مقطورة السيارة عند أرجلنا. بين الظلمة وضوء الثلج قام تور بريكوليتش مع أحد الملثّمين بشدّ أربعة حبال معقود بعضها على بعض بشكل موازٍ لسور المصنع، في الوقت الذي كان فيه الآمر شيشتفانيونوف مستسلماً للنوم وهو جالس في كابينة الشاحنة. ربما كان سكرانَ. لقد نام وذقنه في صدره مثل مسافر منسيٍّ في قطار توقف في محطته الأخيرة. ظلّ نائماً طوال فترة عملنا في فتح الخندق. كلا، نحن استمرينا في الحفر طالما هو نائم، لأنه كان على تور بريكوليتش أن ينتظر أوامره. لقد نام طوال وقت حفر الخندقين بين الحبال المشدودة من أجل رمينا بالرصاص. أنا لا أعرف كم امتدّ ذلك، حتى أصبحت السماء

رمادية. وطوال تلك المدة كان إيقاع الرفش يقول لي مكرّراً: أنا أعرف أنك ستعود. لقد أفاقني الحفر من غيبوبتي ثانية وقلت من الأفضل أن أستمر في تجويع نفسي كرامة للروس وأن أجمدَ من البرد وأقاسي من شدة العمل، من أن أُرمى بالرّصاص. فأنا أقرّ أن الحقّ مع جدتي حين قالت: إنني سأعود، لكنّي سأختلف معها قائلاً لها: لكنكِ تعرفين ياجدّتي، كم هو صعب تحقيق ذلك. بعد ذلك نزل شيشتفانيونوف من كابينة السيارة، فرك ذقنه بيديه ونفض رجليه، ربما لأنهما مازالتا غارقتين في النوم، ثمّ أشار للملثمَينِ بالقدوم إليه. فتح الملثمان غطاء المقطورة وأفرغوا على الأرض معاول وعتلات. حيث أشار شيشتفانيونوف بسبابته وتكلم بشكل غير طبيعي ومختصر وهادئ، ليصعد بعدها إلى كابينة السيارة، ولتقلع السيارة به مسرعةً من المكان. كان على تور أن يُكسب غمغمة شيشتفانيونوف طابع الأمر فصرخ: افتحوا حفراً لزرع الأشجار.

بحثنا عن أدوات العمل في الثلج كما يبحث المرء عن الهدايا. كانت الأرض متجمدة وقاسية كالعظام، لترتد المعاول خائبة وتدوي العتلات حديداً على جليد. قطع بحجم حبات الجوز انتثرت في وجوهنا. كنت أتصبّب عرقاً في تجمّدي وأتجمّدُ برداً في تعرّقي، لأصبح نصفين: نصفٌ يلتهب في حرّه وآخر يتجمّد من برده. كان قد احترق جذعي والتوى ميكانيكياً ليتوهّج من عزم الخوف أمام المألوف. كان أسفل البطن قد تجمّد، أما الأرجل فقد انزلقت ميتة من البرد لتدخل في الأمعاء.

حين عبرنا وقت الظهر إلى مابعده كانت الأيدي قد تبللت بدمها رغم أن الحُفَر المعدَّة لزرع الأشجار لم تتعد بعد الذراع بعمقها. وهكذا تركت كما هي.

لم تكتمل حُفَر الأشجار قبل نهايات الربيع، حيث تم زرع صفّين طويلين من الأشجار، ونمت أشجار هذا الشارع العريض بسرعة. كانت أشجاره من النوع النادر الوجود، إذ لم يوجد منها في البادية ولا في القرية الروسيّة ولا في أيّ مكان في ذلك المحيط. وعبر كلّ تلك السنين لم يعرف أحد في المعسكر اسم تلك الأشجار. فكلما كبرت، صارت جذوعها وأغصانها أكثر ابيضاضاً. لم تكن بيضاء شفافة ومثقبة مثل أشجار البتولا، بل بديعة المنظر في قوامها ولها لحاء متلبّد كعجينة الجِص.

في أوّل صيفٍ بعد مغادرتي المعسكر وعودتي إلى الوطن شاهدت أشجار المعسكر، تلك البيضاء كالجصّ، في حديقة شجر البتولا. كانت عتيقة وعظيمة. وجدت في موسوعة الأشجار التي كان يملكها عمي إدوين أن تلك الشجرة تنمو بسرعة كبيرة لتنطلق في السماء مرتفعةً حتى الخمسة والثلاثين متراً، ويشهد جذعها، الذي يصل في محيطه إلى المترين، على ثباتها، فهي شجرةٌ تعيش حتى مئتي عام.

لم يكن عمّي إدوين يدري كم كان الوصف صحيحاً، أو من الأفضل القول كم كان الوصف دقيقاً، عندما قرأ لي كلمة تنطلق في السماء مرتفعة. لقد قال: هذه الشجرة لا تطالبك بأيّ شيء، رغم أنها تهبكَ جمالاً لا يضاهى، لكنّ وقارها كذّاب. أنا لا أدري كيف يسمونها **الحور الأسود** رغم كلّ بياض جذعها.

أنا لم أعارض، لكنّي فكرت في نفسي: من انتظر مرّة نصف ليلةٍ كي يُرمى بالرصاص تحت سماء مدهونة بالسواد، لن يجد في اسم الشجرة مايمكن تكذيبه.

منديل الجيب والفئران

كان في المعسكر الكثير من المناديل، لتنتقل الحياة بهذا الشّكل من منديل لآخر. من منديل تقميط القدم إلى منشفة اليدين إلى قماش الخبز مروراً بكيس مخدة الملوخيّة وإلى إيشارب الاستجداء والتبييت وحتى إلى منديل الجيب، هذا إذا كان متوفّراً.

لم يكن الرّوس في المعسكر بحاجة إلى مناديل. كانوا يضغطون على أحد المنخرين بالسبّابة وينفخون المخاط عجينيّاً على الأرض من المنخر الآخر. ثم يغلقون المنخر النظيف لينبثق المخاط خارجاً من الآخر. لقد تدربت على ذلك طويلاً، لكن المخاط لم يخرج من أنفي. لم يكن أحدٌ في المعسكر يستعمل مناديل الجيب لتنظيف الأنف. من كان يملك واحداً من تلك المناديل كان يستعمله لحفظ السكر والملح. وعندما يهترئ المنديل تماماً يستخدمه كورق تواليت، وقد حصل مرّةً أن أهدتني إحدى الرّوسيات منديل جيب.

كان البرد قارساً يومها وكان الجوع هو الذي حرّكني. إذ ذهبت بعد نهاية يوم العمل للمبيت في القرية الروسية آخذاً معي قطعة فحم أنتراسيت، من النوع الذي يحتاجه بشر هذه الأيام للتدفئة. طرقت أحد الأبواب، ففتحت لي عجوز روسيّة، أخذت مني قطعة الفحم وأدخلتني بيتها. كان بيتها غرفةً منخفضة السقف، في أحد حيطان الغرفة شباك لا يرتفع عن الأرض أكثر من طول ساقي. على مقعد بلا مسند وقفت دجاجتان هزيلتان ومبرقعتان بالأسود والأبيض. تعلّق عرف إحداهن فوق عينها، وراحت تُحرّك برأسها كإنسانٍ بلا يدين ارتمى شعره للأمام وغطّى وجهه.

منذ برهة والعجوز تتكلّم. أنا لم أفهم إلا كلمةً من هنا وأخرى من هناك، لكنّي كنت أحسّ بموضوع حديثها. كانت تريد أن تقول لي إنّها خائفة من الجيران وإنّها تعيش منذ فترة طويلة مع دجاجتيها، لكنها تفضّل الحديث إلى الدجاجتين على الحديث مع الجيران، وإنّ لديها ولداً بعمري اسمه بوريس، وقد ترك المنزل وذهب بعيداً جداً في الجهة الأخرى إلى معسكر تأديب في أحد الألوية في سيبيريا، لأنّ واحداً من الجيران قد وشى به. ربّما تكونان محظوظَين، أنت وابني بوريس، قالت العجوز، ربّما يُسمح لكما قريباً بالعودة إلى الوطن. أشارت لي بإصبعها للجلوس على الكرسيّ، فجلست على زاوية الطاولة. أخذتِ

العجوز قبّعتي من فوق رأسي ووضعتْها على الطاولة، ووضعتْ إلى جانبها ملعقة خشبيّة. بعد ذلك اتّجهت إلى الفرن وسكبت لي من القِدر حساء بطاطا في صحن معدني. كان في الصحن ليتر من ذلك الحساء بالتأكيد. أكلت وهي جالسة إلى جانبي وعيناها لاتفارقانني. كان الحساء ساخناً، كنت أرتشفه متلذذاً وعيناي تسترقان النظر إلى العجوز، وهي تومئ برأسها للأسفل راضية. في الحقيقة كنت أريد أن آكل ببطءٍ أكثر، لأنني أردت أن أتلذذ بالحساء لفترة أطول. ولكنّ جوعي كان جالساً مثل كلبٍ أمام الصحن، وكان يفترس. أمّا الدجاجتان فقد طوتا رجليهما وغفتا مرتاحتين على بطنيهما، بينما ملأ الحساء جسدي حتى أصابع قدميّ بحرارته وبدأ أنفي بالسّيلان. أبادشي، انتظر، قالت العجوز الروسيّة وهي تحمل من الغرفة المجاورة منديل جيب أبيض كالثلج. وضعته في يدي وأطبقت لي أصابعي فوقه كإشارة منها، أن خذهُ، فهو لك. لقد أهدتني المنديل. وأنا لم أتجرأ على التمخّط به. ماحدث كان أكبر من الوجه النفعيّ في عملية المبيت، أكبر منّي ومنها ومن منديل جيب. لقد كان للأمر علاقة بابنها، وكان لذلك الفعل وقعه الحسن عليّ، وربّما لا، فقد ذهبت، وذهبت، بل ذهب كلانا بعيداً بعض الشيء عن المتعارف عليه. كان عليها أن تفعل شيئاً ما من أجل ابنها، فأنا كنت عندها في البيت وابنها غادر بيته وذهب بعيداً مثلي.

لقد عذّبني أنّي عندها في البيت ولست ابنها. وأنها أحسّت بذلك وكان عليها تجاهل ذلك الإحساس، فهي لم تعد تستطيع تحملّ كلّ ذاك العذاب. وأنا أيضاً لا أستطيع التحمّل أكثر من ذلك. أن أكون شخصين في واحد، شخصين كليهما معتقل. لقد كان ذلك حملاً ثقيلاً عليّ، لم يكن سهلاً أبداً، بل صعباً مثل جلوس دجاجتين متجاورتين على قرمة الحطب. كان ثقلي مضاعفاً فوق نفسي.

بعد ذلك، وبعد أن أصبحت خارج البيت في الشارع استعملت قماش الفحم المتوسّخ الخشن كمنديل جيب. وبعد أن تمخطت به ربطته حول عنقي ليصبح منديل عنق. وأثناء سيري على على الطريق كنت أمسح عيوني بأطراف منديل العنق هذا. مسحت عينيّ مرّات عديدة وبسرعة كبيرةٍ كيلا يراني الناس، رغم عدم وجود من يمكن أن يراقبني. في

الحقيقة كنت أريد ألاّ أرى ذلك. كنت أعرف جيداً أن هناك قانوناً داخليّاً، على أساسه لا يسمح للمرء أن يبدأ بالبكاء، عندما يملك الكثير من الأسباب الداعية لذلك. لقد أوهمت نفسي بأن الدموع تأتي من شدة البرد ثمّ صدقتها.

كان المنديل الثلجيّ الأبيض مصنوعاً من الباتسته الناعمة، لكنه كان عتيقاً. كان قطعة جيدة من زمن القياصرة، حيكت أطرافه الشبكيّة باليد وقصّب بخيوط حريرية. كانت الفتحات بين القصبات مخيّطة بدقة وعلى الزوايا وردات صغيرة من الحرير. لم أر شيئاً جميلاً كهذا منذ وقت طويل. لقد كان الحديث عن جمال الأشياء التي اعتاد الإنسان على استعمالها أمراً ليس له قيمة في الوطن. أما في المعسكر فقد كان من الجيّد أن تنسى هذه الأشياء كليّاً. ذلك الجمال أخذني مع هذا المنديل وعذبني أيضاً. هل سيعود ابن العجوز الروسية إلى بيته يوماً ما، هذا الذي سكن معي فيّ. لقد بدأت بالغناء كي أبعد أفكاري عنّي، وغنيت لنا نحن الاثنين أغنية البلوز التي كنا نغنيها في عربة القطار الخاصة بنقل الحيوانات:

في الغابة أزهرت وريدة الحجر

والثلج ما زال قابعاً في حفره

هذه التي كتبتها لي

رسالتك الصغيرة توجعني

سارت السماء، غيوم بمخدات محشوة حتى الامتلاء. ثم نظر القمر الفرحان صوبي بوجه أمّي. أزاحت الغيوم إحدى مخداتها تحت الذقن وواحدة أخرى خلف وجنة الوجه اليمنى. ثم سحبتها عبر الوجنة اليسرى. وأنا سألت القمر: هل أصبحت أمّي ضعيفة إلى هذا الحدّ. هل هي مريضة. هل مازال بيتنا موجوداً. هل تسكن أمّي فيه أم أنّها تخدم في أحد المعسكرات أيضاً. هل مازالت على قيد الحياة فعلاً. هل تعرف أني مازلت أحيا أم أنها تبكي على ميت عندما تفكر بي.

كنت أقضي شتائي الثاني في المعسكر، وحتى الآن لم يسمح لنا بكتابة رسائل إلى الوطن، ولا بإرسال أيّ شيء يدلّ على أنّنا أحياء. انتصبت في القرية الرّوسيّة شجرات بتولا عارية،

تحتها امتدت أسطح ثلجية مثل أسرّة عوجاء في برّاكات هوائية. كان لحاء شجرات البتولا مختلفاً في اصفراره في هذا الغسق المبكّر عمّا كان عليه خلال النهار ومختلفاً في ابيضاضه عن الثلج. لقد رأيت تعرّجات الريح سابحة عبر الغصون، وعلى طريق المعبد قرب سياجات الصفصاف المتداخلة تقدّم باتجاهي كلب صغير بنيّ اللون كالخشب. كان مثلّث الرأس، عالي القوائم نحيلاً باستقامةٍ كعيدان قرع الطبول. كان لهاثه يتطاير أبيضَ من فمه وكأنه يلتهم منديلي الأبيض وبرجليه يقرع طبلاً. مرق الكلب الصغير بجانبي وكأنني ظلّ سياج. معه الحقّ، فأنا لم أكن وسط ذلك الغسق في الطريق إلى سكني في المعسكر أكثر من غرضٍ روسيّ عادي.

حتى ذلك الحين لم يستعمل أحدٌ منديل الباتستة الحريريّ، أنا أيضاً لم أستخدمه، قمت فقط بالحفاظ عليه في حقيبتي حتى اليوم الأخير كتذكار من أمّ لابنها، وفي النهاية أخذته معي إلى الوطن.

ليس لمثل هذا المنديل نفع في هذا المعسكر. فقد كان بمقدوري خلال كلّ تلك السنوات أن أقايضه بشيء يؤكل من السوق. كان يمكنني الحصول مقابل ذلك المنديل على السّكر أو الملح، بل وربما على الذرة أيضاً. الإغراء كان موجوداً والجوع أعمى بما فيه الكفاية للغواية. لكن الذي منعني هو اعتقادي أنّ منديل الجيب هذا هو قدري. وعندما يفلت المرء قدره من يده يهلك. لقد كنت على يقين، أن الجملة التي ودعتني بها جدتي: **أنا أعرف أنك ستعود،** قد انقلبت إلى منديل جيب. أنا لا أستحي حين أقول: إن ذلك المنديل هو الإنسان الوحيد الذي اعتنى بي في المعسكر. أنا متأكد من ذلك وحتى يومي هذا.

تحصل الأشياء أحياناً بنعومة، كأنّها تشوّه لا ينتظره أحدٌ.

عند الرأس وخلف المخدّة كانت الحقيبة، تحت المخدّة في منديل الخبز كان الخبز الذي منع عن الفم، الخبز الغالي الذي لايقدر بثمن. في صباح أحد الأيام، وأينما وضعت الأذن على المخدة، كنت أسمع بسبسة، فأرفع رأسي مندهشاً: بين منديل الخبز والمخدّة تتململ كبةٌ بلون ورديٍّ فاتح، كبيرة بحجم الأذن، تتكون من ستة فئران عمياء، كلّ واحدةٍ منها أصغر من أصبع الطفل. أما جلدها فجورب

من حرير. كانت ترتجف لأنها كانت من لحم ودم. فئران ولدت، إنها هدية دون مناسبة. هديّةٌ صرت فخوراً بها، وكأنها هي أيضاً فخورة بي. فخور لأن أذني ولدت، لأنها اختارتني لتولد عندي من بين وجود ثمانية وستين سرير آخر في البرّاكة، ومن بين الجميع أرادتني لها أباً.

كانت الفئران المولودة للتو ملقاةً دون أمّ هناك، فأنا لم أر تلك الأمّ أبداً. لقد خجلت منهم، لأن ثقتهم بي كانت بلا حدود. وأحسست على الفور أني أحبّهم وأنّ عليّ التخليّ عنهم فوراً، قبل أن يفترسوا الخبز الذي وفّرته عن فمي وقبل أن يستيقظ الآخرون ويلحظوا شيئاً غير عاديّ.

أخذت كبّة الفئران عن منديل الخبز، ومنحتها عشّاً من أصابعي، كيلا أوجعها، ثمّ تسللت خارجاً من البراكة إلى الفناء وبيدي العشّ. ارتجفت رجلاي من تعجّلي، فأنا لا أريد أن يراني أحد من الحرّاس وأن لا يشتمّ رائحتي واحد من كلابهم. كانت عيناي مثبتتين على المنديل، كي لا يفلت أيٌّ من الفئران ويسقط على الأرض حتّى وصلت أخيراً إلى المرحاض وهززت المنديل مفرغاً مابداخله في الثقب. فوقعت الفئران الصغيرة في الحفرة: لا صوت. تنفستُ مرة واحدة بعمق، لقد نجحت.

وجدت مرّة وأنا في التّاسعة من عمري على إحدى السجادات في الزاوية الخلفية لمطبخ الغسيل قطّة مولودة للتوّ، كانت خضراء رمادية ومغلقة العينين. أخذتها في يدي ممسّداً لها على بطنها. فما كان منها في تلك اللحظة إلا وفتحت فمها نافخة وعاضّة على إصبعي الصغرى، ولم تتركني حتى رأيت دمي. فما كان مني إلا أن أخذتها من رقبتها ضاغطاً بإبهامي وسبابتي – أنا أعتقد أني ضغطّت بشدة على تلك الرقبة الغضّة. سمعت قلبي يدقّ

كأني في مبارزة. لقد ضبطتني تلك القطة الصغيرة متلبساً بجريمة القتل، لأنها كانت قد ماتت. وما زاد الطين بلّة، أن القتل لم يكن بقصد. فالحنان الزائد يختلف عن الوحشية المقصودة في طريقة توريطك في الذنب. إنه أكثر عمقاً وأبعد طولاً.

ماهو المشترك بين القطّة الصغيرة والفئران: لا صوت إطلاقاً.

وما الفرق بين القطة الصغيرة والفئران: في حالة الفئران حركتني النيّة والشفقة. أما في حالة القطّة فقد كانت المرارة. أنت أردت أن تدللها بالمسح عليها فقابلتك بالعضّ. هذا أولاً. والثاني هو محصّلة الأوّل بالضرورة. فحين تبدأ بالضغط تفقد قدرتك على التراجع.

حول الرّفش الذي يشبه القلب

هناك الكثير من الرفوش. ولكن الرفش القلبيّ، أي الذي له شكل القلب، هو الأحبّ بينها على قلبي. وحده الذي منحته اسماً. فبه لا تستطيع جرف أي شيء غير الفحم، أكوام الفحم الهشّة، فقط بالرفش القلبيّ تستطيع تحميلها أو تنزيلها.

للرفش القلبيّ صفيحة تجريف واحدة، كبيرة كرأسين تعانقا. رفش له شكل القلب، عميق التكوّر، لدرجة يسع فيها خمسة كيلوغلرامات من الفحم، وتجد فيه مؤخرةُ ملاك الجوع كلها مايسعها. للرفش العادي عنق طويل مربوط بدرزة لحام. أما الرفش القلبيّ، إذا ماقارنّاه بالعاديّ، فإن عصاه قصيرة وتنتهي بمقبضٍ عرضي.

بيد تمسك العنق وبالأخرى المقبض العرضي فيٍ أعلى العصا، ربما كان الأفضل أن أقول، في أسفل العصا. لأن الرفش القلبيّ عندي موجود في الأعلى، أما عصاه فهي مسألة ثانوية، يمكن أن تكون على الجانب أو من تحت. وهكذا فأنا أقبض على الصفيحة القلبية الشكل فوق العنق وأقبض على المقبض العرضي على العصا. لأحافظ على التوازن، وليصبح هذا الرفش أرجوحة في يدي، مثل أرجوحة النفس في الصدر.

يجب تشذيب الرفش القلبيّ حتى تصبح صفحة الرفش شديدة اللمعان، حتى ترقد درزة اللحام كندبة في يد أنسيّ – ويصبح كامل الرفش توازناً إضافيّاً لك من خارجك.

في الحقيقة يختلف تنزيل الفحم بالرفش القلبيّ عن تحميل حجر الآجر.

لتنزيل أحجار الآجر تملك يديك فقط، إنّها مسألة منطق. ويحوّل الرفش القلبي، وهو أداة العمل في هذه الحالة، المنطق إلى فنّ، في حالة تفريغ الفحم. إنّ تفريغ الفحم رياضة محترمة، مثلها مثل ركوب الخيل تقريباً، أو مثل القفز الفنيّ أو رياضة التينس المهذّبة. إنها كالرّقص على الجليد. يمكن القول إنّي والرفش زوجٌ راقص. يكفي أن تحوز مرّةً واحدةً على رفشك القلبيّ، حتى يشدّك إليه، ويغويك في كلّ المرّات.

هكذا يبدأ تنزيل شحنة الفحم: إذا كانت مقطورة الشاحنة قلاّباً وأفرغت الشحنةً جزئياً للأسفل محدثةً ضجةً، فإنّك تقف على كومةِ الفحم المتبقّية يساراً في الأعلى وتغرز حدّ الرفش بشكل مائل فيها حتى يصل إلى أرضيّة الصندوق، ضاغطاً برجلك على الصفيحة

القلبية الشكل، كما تفعل عند الحفر بالمعزقة. أما إذا حصلت على مكان لرجليك على طرف الشاحنة، بحيث تستطيع تثبيت رجليك واقفاً على الأرضية الخشبية، فإنك تبدأ الآن التفريغ كما ترفش في الحالات الطبيعية. كلّ العضلات تمارس دورها في هدهدة وقع هذا الاندفاع. وأنت تمسك بيدك اليسرى المقبض العرضي وباليمنى على أسفل العصا الطويلة بحيث تطبق الأصابع على عقد درزة اللحام في عنق الرفش الذي تغرزه في الفحم من اليسار العلوي وتسحبه على شكل قنطرة للخلف ليصل إلى حافة المقطورة، ومن هناك ومن فوق الحافة ترفش الفحم بنفس الاندفاع إلى الخارج لينزل في الحفرة. هذا يعني، أن تترك يدك اليمنى تنزلق على العصا الخشبيّة حتى تصل إلى المقبض العرضي تقريباً – حيث يتحول وزن الجسم متمركزاً على بطة الساق اليمنى ويسري في الجسم نزولاً حتى أطراف أصابع القدم. بعدها تسحب الرفش فارغاً إلى اليسار على كومة الفحم. لتبدأ اندفاعة جديدة مالئة الرفش ودافعة إياه يميناً إلى الأسفل.

بعد أن يفرغ القسم الأكبر من الفحم، وتصبح المسافة بين الكومة وحافة المقطورة كبيرة، فإنك لا تستطيع أن تنجز تفريغ الفحم برفشة قوسيّة واحدة. في هذه الحالة عليك أن تأخذ وضعية المبارز بالسيف: تدفع قدمك اليمنى إلى الأمام بشكل لدن، ساحباً اليسرى بشكل متوازن إلى الخلف كمحور داعم ومحوِّلاً أصابع قدميك قليلاً إلى الأمام.

ثم تمسك باليد اليسرى المقبض العرضي، أما اليد اليمنى فلا نقبض بها هذه المرة على أسفل العصا، بل نتركها تنزلق بحريّة طالعة ونازلة بحركة مستمرّة على العصا، بينما نقوم نحن بموازنة الحمولة. والآن تغرف بالرفش في كومة الفحم، واضعاً ركبتك اليسرى للمساعدة، حيث تنسحب للخلف وتركِّز وزنك من خلال حركة دورات خبيرة على القدم اليسرى، بطريقة تضمن فيها عدم وقوع أيّة قطعة فحم من فوق الرفش ذي الصفيحة القلبيّة، لتُتْبِع ذلك بحركة دائرية جديدة، هذا يعني الانسحاب خطوة إلى الخلف بالقدم اليمنى، حيث يدور الجذع والوجه معك. ثم تقوم بنقل الوزن على نقطة ثالثة جديدة هي خلفيّة القدم، حيث تقف القدم اليسرى عندها لدنة بكعبٍ مرفوع قليلاً مثلما هي الحال عند الرقص، ويُترك الطرف الخارجي لإبهام الرجل وحده من أجل التشبّث بالأرض –

الآن ترمي الفحم من الرفش ذي الصفيحة القلبيّة بعيداً في الغيوم، بحيث يندفع الرفش آخذاً وضعاً أفقياً في الهواء ومُمْسكاً فقط باليد اليسرى على مقبضه العرضيّ أعلى العصا. رقصٌ جميل مثل التانغو هذا الرقص، متبدل الخطو بزواياه الحادة ووقعه المنتظم.

إذا طلب منّا أن نرفش الفحم لمسافة أبعد، فيجب علينا أن نحلّ أنفسنا دون توقف من وضعية المبارز بالسيف عبر خطوات رقصة الفالس، بحيث يتركّز الوزن على مثلّث كبير وتكون زاوية ميل الجسم خمساً وأربعين درجة، بحيث تطير قطع الفحم محلّقةً على مسافة القذف مثل سرب من الطيور. وملاك الجوع يطير معها، فهو في الفحم ملاك وفي صفحة الرفش القلبية وفي التفكير. إنه يعرف ألاّ شيء يدفّئ الجسم كلّه مثل الترفيش، هذا الذي يضني الجسد جميعه. ويعرف أيضاً بأن الجوع يفترس كلّ ماله علاقة بالفنّ في هذا العمل.

كنا اثنين دائماً عند تنزيل شحنة الفحم وأحياناً ثلاثة. وملاك الجوع لايحصي الأعداد هنا، لأننا لسنا متأكّدين من وجود ملاك جوعٍ واحدٍ للجميع، فربّما يوجد لكلّ منّا ملاكه الخاصّ.

كان ملاك الجوع مفرطاً في قربه من كلّ واحدٍ فينا. كان يعرف أين يتمّ تفريغ الفحم، رغم أنّه كان يمكن وقتها تحميله لا تفريغه. ولو استمر ملاك الجوع بالتفكير بطريقته الرياضيّة هذه، لكانت النتيجة مفجعة له: إذا كان لكل واحدٍ فينا ملاك جوعه الخاصّ، ولبقيت ملائكةٌ بلا أصحاب حين يموت هؤلاء الأصحاب. وهكذا لا يبقى في النهاية سوى ملائكة جوع مفجوعين، ورفوش ذات صفائح قلبيّة مفجوعة وفحم مفجوع.

عن ملاك الجوع

الجوع موجود أبداً.

ولأنه موجود فإنه يأتي حين يريد وكيفما يريد. إن قانون السببيّة من صنع ملاك الجوع. فهو يأتي بقوةٍ عندما يأتي.

الأمر واضحٌ جداً:

رفشة واحدة = غرام خبزٍ واحد.

أنا لم أكن بحاجةٍ للرفش القلبيّ. ولكن جوعي لا يعيش دونه. كم تمنيتُ لو كان هذا الرفش الذي يشبه القلب أداة عملي. إنه في الحقيقة سيّدي، وأنا أداة العمل، هورفش يحكمني وأنا الخاضع له. ومع ذلك فهو رفشي الذي أحبّ. لقد أجبرت نفسي على حبّه. إنني صاغرٌ له، فهو سيبقى سيّدي الأفضل عليّ، حين أستسلم له ولا أكرهه. إن من واجبي أن أشكره، فعندما أرفش من أجل الحصول على خبزي اليومي، فإنني أتسلّى ناسياً الجوع. ولأن الجوع لا ينتهي، فإنه الضّامن أبداً، أن يتقدم الترفيش على الجوع. فالترفيش هو في المقام الأول عند العمل بالرفش، وإلا فلن يستطيع الجسد إنجاز العمل.

يتم رفش الفحم بعيداً، ومع ذلك فإن كميته لا تقلّ. إنه يأتي لحسن الحظّ يوميّاً من يازينوفاتايا[1]، هكذا كتب على عربة النقل. كلّ يوم يزداد الرأس ارتفاعاً في الترفيش، بل يصبح كامل الجسم، مقاداً من الرأس، وهو أداة الرفش هنا، ولاشيء عدا ذلك.

الترفيش صعبٌ. أن تؤمر بالترفيش ولا تستطيعه فواحدة، أما الثانية التي تضاعف درجة يأسك فهي عندما تريد أن ترفش ولا تستطيع، فالانكسار أمام الفحم كالانحناء لتحيته.

أنا لا أخاف أبداً من الترفيش، وإنما أخاف من نفسي. يعني أخاف من أن أفكر بشيء آخر غير الترفيش حين أرفش بالرفش. وقد كان يحدث معي مثل ذلك في الفترة الأولى أحياناً. ذلك ما يذهب بالقوى التي يحتاجها المرء للترفيش. وصحن الرفش القلبيّ يشعر بذلك فوراً، حين لا أكون بكاملي عنده. ليلفح رقبتي بعضٌ من الذعر. وحركة صافيةٌ

1- يازينوفاتايا Jasinovataja: مدينة أوكرانية.

في وقعها الثنائي تطرق الصدغين، نبضٌ يتقدّم منك كعصابةٍ من كلاب صيد كلاكسون الذكيّة. أنا أقترب من حالة الانهيار، في حلاوة الحنك تتورم اللهاة وينشب ملاك الجوع كلّه داخل فمي، صاعداً على شراع حنكي. هو ميزانه، وهو يفتح عينيّ ويتأرجح الرفش القلبيّ ويطفو الفحم على السطح. عندئذٍ يضع ملاك الجوع خدّي على ذقنه. يدع نَفَسي ينوس. أرجوحة النفس هذيان، وياله من هذيان. أنا أرفع بصري، ففي الأعلى قطنٌ صيفيّ ناعم، أشغال حياكة الغيوم. دماغي يهتزّ معلقاً برأس إبرةٍ في كبد السماء ومازال يبصر نقطته الثّابتة ويُشْغَل بخيالات الطعام. حيث أرى الطاولات المفروشة بألوان الطعام معلقة في الهواء والحصى تطقطق تحت رجليّ، والشمس تبدو لي ساطعة وسط الغدة الصنوبريّة[1]. أما ملاك الموت فيتطلع صوب ميزانه ويقول:

مازلتَ لست سهلاً بما يكفي عليّ، كيف لا ترخي العنان قليلاً!

وأنا أقول: أنتَ تخونني في لحم جسدي، الذي تدهور من أجلك. ولكني أنا لست لحمي. أنا شيء آخر ولن أضعف أمامك. لم يعد السؤال الآن: ممن أنا، ولكنني لن أقول لك، ماذا أنا. أنا ما يخدع ميزانك.

هذا ماكان يحدث غالباً في الشتاء الثاني للمعسكر. آتي من ورديتي الليليّة في الصباح الباكر ميتاً من التعب. وأقول: الآن لديّ وقت، لكن عليّ أن أنام أولاً وأستلقي في الفراش فعلاً. كلّ الثماني والستّين سريراً في البرّاكة فارغة، كلّ الآخرين الآن في العمل، لكنني لا أستطيع النوم، وأنسحب خارجاً إلى فراغ فناء مابعد الظهر. الريح تقذف بثلجها الخفيف الذي يئزّ في قفا رقبتي، فيذهب معي الملاك بجوع مفتوح إلى كومة الزبالة خلف الكانتينه، أما أنا فأترنّح خلفه بخطواتي، وأتعلّق بشكلٍ مائلٍ على شراع حنكي. خطوة بخطوة أذهب خلف قدميّ، إذا لم تكونا قدميه. الجوع في اتجاهي، إذا لم يكن الاتجاه اتجاهه. يتركني الجوع أمشي أمامه، دون أن يخجل، إنّه يريد ألاّ يراه أحد برفقتي أبداً. بعد ذلك أحني ظهري، إذا لم يكن ظهره هو. طعمي مازال خاماً ويداي وحشيتين. إنهما يداي، فالملاك لا يلمس القاذورات. أدفع بقشور البطاطا في فمي وأغمض عيني الاثنتين،

1- الغدة الصنوبرية: غدة صغيرة في تجويف الدماغ، لها شكل حبة صنوبر.

هكذا أستطعم بها أفضل، حلوة ومقرمشة، قشور البطاطا المتجمدة.

يبحث ملاك الجوع عن بقايا لا يمكن محوها، ويمحو بقايا لا يمكن الإبقاء عليها. أما حقول البطاطا فتَجولُ في مخيلتي، مساكب الأرض تلك الملقاة بشكلٍ مائل بين بيادر العشب في بيتنا الريفي على الفينش، بطاطا جبليّة من الوطن. أوّل حبّات بطاطا في الموسم، دائريّة الشكل شاحبة في اصفرارها. أو حبات بطاطا من آخر الموسم، تلك الزرقاء البللورية المتقبضة الوجه المعوجة. والبطاطاالطحينيّة التي بحجم اليد، حباتها حلوة الاصفرار وقشورها مثل الجلد. أو تلك البطاطا الورديّة صغيرة الحجم وصعبة الطّبخ بيضويّة الشكل وذات قشرٍ ناعم. كيف تزهر تلك البطاطا بكلّ أنواعها في الصيف.بمجاميع شفّافة؟ ألوانها بيضاء مصفرة وحمراء رماديّة أو ليلكيّة، محمولة على سيقان مضلّعة حشيشيّة ومُرّة في خضرتها!

وكيف أكلت قشور البطاطا المتجمدة كلها بشفة مرفوعة وبسرعة. أدفع القشرة وراء الأخرى بسرعة في فمي ودون فواصل زمنية كما يفعل الجوع، من دون أن يترك شيئاً، وكأنّ تلك القشور شريط طويل واحد بلا تقطّعات.

كلّها، كلّها، كلّها.

ثم يأتي المساء ويعود الجميع من العمل إلى البيت. ويصعد الجميع في الجوع. ويرى الجوعانُ هياكل أسرّةٍ إذا نظر إلى جوعى آخرين. هو الخداع بعينه، فأنا أعرف من نفسي، كلّه من الجوع الصّاعد في دواخلنا. نحن الهيكل لهذا الجوع. نحن جميعاً نأكل وعيوننا مغمضة، نحن نعلف الجوع طوال الليل ونحن نسمّنه عالياً على الرفش.

آكل نوماً قصيراً، ثم أستيقظ لأتناول بعدها الغفوة القصيرة القادمة. حلم كالأحلام الأخرى، حلم يتمّ التهامه. الأكل الإجباري رحمة في الحلم، رغم عذابه. أنا آكل حساء الأعراس والخبز والفليفلة المحشية، آكل التورتة الشجرية[1]. بعدها أستيقظ وأنظر في ضوء الخدمة في البراكة، هذا الأصفر القصير النظر، أغفو ثانيةً وآكل حساء اللفت مع

1- تورتة شجرية Baumtorte: وهي تورتة دائرية الشكل مكونة من طبقات مختلفة وكل طبقة بلون، وحين تقطع عرضياً يرى المقطع مثل مقطع الشجرة.

الخبز وأرنباً محمّصاً بالخبز وبوظة فريز في أكواب فضيّة. بعد ذلك أتناول معكرونة بالجوز وكعكة الضباط[1]. بعد ذلك آكل مقلوبة أرزّ مع ملفوف ولحمة مع الخبز ثم تورتة بالرّوم. بعدها آكل رأس خنزير مسلوق مع الفجل والخبز. في النهاية تمنيت فخذ غزال بالخبز ومربّى المشمش، لكنّ صوت الميكرفون صرصر داخل البراكة، فقد أصبحت الدنيا نهاراً. النوم يبقى خفيفاً كلما أكلت أكثر، أما الجوع فلا يتعب أبداً.

لقد عرفت مَنْ هم الأموات الثلاثة الأوائل منّا، ضحايا الجوع. عرفت تسلسل موتهم أيضاً. فقد كنت أغرق في التفكير عدّة أيام طوال بعد موت كلّ واحدٍ فيهم. ولكن الرقم ثلاثة لايبقى أبداً نفسه الرقم ثلاثة الأوّل. كلّ رقم يمكن اشتقاقه وتعويده على الخشونة.

عندما يصبح المرء مجرد جلدٍ على عظم، ويفقد تماسكه الجسدي، فإنه يبعد الأموات قدر المستطاع عنه. فقد وصل عدد الأموات في ربيع العام الرابع للمعسكر وحسب بقايا الحسابات إلى ثلاثمئة وثلاثين ضحيّة. وبالتالي يصبح صعباً أن يبدي الواحد فينا أحاسيسه بوضوح، فهو مازال يسترجع ذكراهم ولو للحظات قصيرة.

لقد قام كلّ واحدٍ فينا بخلع هذا الجوّ الموحش عن جلده، وأبعد عن نفسه أشباح الحزن الهلامية قبل قدومها بفترة وجيزة، فالموت أصبح ناضجاً ومشتاقاً للجميع. ولذا لايسمح للمرء أن يقدّم نفسه له، بل عليه ألاّ يلتفت إليه، كما يفعل مع كلبٍ ثقيل الظلّ.

لم أكن في حياتي منحازاً ضدّ الموت كما كنت في سنين المعسكر الخمس. والمرء لايحتاج لحياته ليقف ضد الموت، هو يحتاج لشيء واحد فقط، شيء لم يصل إلى نهايته بعد. الأموات الثلاثة الأول في المعسكر هم:

ميتسي الطرشاء، هرست تحت عربتي قطار.

كاتي مايِر، طمرت في برج الإسمنت.

إيرما بفايفر، خنقت في صبّة (البيتون).

1- كعكة الضباط Offizierskipfel: معجنات أو كعكة على شكل هلال مثلاً.

أما أول ميت في براكتي فقد كان الميكانيكي بيترِ شيل، الذي تسمّم ببراندي الفحم الحجري.

لقد كان لكلّ ميتة سببها المختلف عن مثيلاتها الأخرى، لكن الجوع كان مشاركاً فيها جميعاً.

عنّت على بالي مرّةً مخلفات مادة الرياضيات فقلت في مرآة الحلاق أوسفالد إنييتر: كلّ بسيط هو نتيجة دقيقة وكل امرئ يملك شراعاً في حنكه. وملاك الجوع يقوم باختبار كلّ واحدٍ، ليقفز خارجاً من رفش قلب الذين يضعفون. هذا هو مبدؤه السببي وقانون ميزانه.

قال الحلاق: لا يمكن الاستخفاف بأيّ من القانونين، رغم استحالة هضمهما أيضاً. وهذا أيضاً قانون، بُحتُ صامتاً للمرآة.

قال الحلاق: رأسك مملوء بزهيرات من القيح، لا يفيدنا هنا إلا استعمال ماكينة الصفر.

سألت ماهذه الزهيرات.

لقد كان صنيعاً جيداً منه، حين بدأ بتجريدي من شعري. شيء واحد مؤكد، قلت في نفسي، إن ملاك الجوع يعرف شركاءه. لقد قام بملاطفتهم ثم تركهم يسقطون. بعدها يتقصّفون وهو يتقصّف معهم. إنه من نفس اللحم الذي يخونه. وهذا أيضاً من قوانين ميزانه. وماذا عليّ أن أضيف الآن، كلّ شيء من الأشياء التي تحدث، هو بسيطها. ولتسلسل حدوثه مبدأ حين يطول هذا الحدوث. وعندما يستمر ذلك خمس سنوات، يصبح من غير الممكن سبر أغوار هذا الذي يحدث أو إعارته أي انتباه.

والآن، وبعد كلّ هذه السنين، وإذا ما أراد المرء الكلام، يبدو لي، أنّ من لايتأقلم غير موجود: إن ملاك الجوع يفكّر بشكلٍ صحيح، لا يتخلّف أبداً، لا يذهب بعيداً بل يعود دائماً، له وجهته ويعرف حدودي، يعرف منبتي وتأثيره، يسير متحزّباً بعيون مفتوحة، يعترف بوجوده وهو شخصيّ إلى حدّ القرف. هو يملك نوماً شفافاً، خبير بالملوخيّة وبالسّكر والملح والقمل والشوق للوطن. عنده ماء في البطن وفي الأرجل. ماذا يستطيع

المرء أن يفعل أكثر من العدّ.

حين لا يصيبك الضعف، فإنك تقصد بذلك أنّ الوضع نصف سيء فقط. من داخلك يتكلم حتى هذه الأيام ملاك الجوع. ومهما قال فهو واضحٌ جدّاً:

رفشة واحدة = غرام خبز واحد

لا يجوز للإنسان أن يتكلّم عن الجوع حين يكون هذا الإنسان جائعاً. فالجوع ليس هيكل سرير، وإلا لكانت له أبعاد. الجوع ليس شيئاً ماديّاً.

براندي الفحم الحجريّ

في إحدى الليالي اللَّيْلاء، ليالٍ انعدم فيها حتى التفكير بالنوم، ليالٍ لم تأت إليها حتى رحمة الاضطرار للأكل، لأنّ عذاب القمل لم يتوقّف أبداً. في واحدةٍ من مثل تلك الليالي، رأى بيترِ شيل أنني مثله لا أستطيع النوم. جلستُ على سريري، وجلسً هو في فراشه أمامي على انحراف وسألني:

ماذا يعني الأخذ والعطاء.

قلت: النوم.

ثم استلقيت ثانيةً. أما هو فقد بقي جالساً. وفجأة سمعت ضحكاً. كانت بيا تساكل قد قايضت في السوق كنزتها الصوفيّة بكحول الفحم، هذا الذي شربه بيتر شيل، ولم يفه بعدها بأيّ سؤال. في الصباح التالي أخبرنا كارلي هالمن، أنّه سأل بعدها عدّة مرات: ماذا يعني الأخذ والعطاء، لكنّك كنت تغطّ في نوم عميق.

منطاد زِبلن

هناك، حيث لا بطاريات فحم كوك ولا شفاطات ولا أنابيب تتصاعد منها الأبخرة، حيث لم يبق إلا غيوم صاعدة من أبراج التبريد تتطلع من علٍ، حين تطير متباعدة في البادية، حيث تنتهي آخر سكك الحديد. أما نحن فإننا لانرى أثناء تنزيل حمولة الفحم القادمة من الياما[1] إلا الأعشاب البريّة المزهرة ناميةً على أكوام الردم. أعني هناك خلف المصنع حيث أجدب الأرض وأفقرها، هناك حيث تتصالب طرق مرسومة بدبدبة الأقدام قبل أن تسلِّم نفسها للحرش الذي يبدأ هناك. هي طرق تقودك إلى أنبوب كبيرٍ وصدئ، أنبوبٍ مبعدٍ من زمن ماقبل الحرب من ماركة مانزمانّ. طوله بين سبعة إلى ثمانية أمتار وارتفاعه متران. مفتوح في نهايته الرأسيّة، وهي نهايته المتّجهة صوب الياما، وملحوم مثل مرحاض في نهايته القدمية المتّجهة صوب الأرض البور. أنبوب عظيم جداً، ولا يعرف أحد كيف أتى هذا الأنبوب إلى هنا. أما نحن فنعرف على الأقلّ ومنذ وصولنا المعسكر مافائدته. الجميع يسمّونه زِبلن.

إن هذا الزِبلِن الذي هنا لا يتهادى طائراً في السماء، ولكن العقل يجعله يتهادى. إنه فندق ساعاتي، تتحمل قيادة المعسكر وآمريتُه مسؤولية أسلوب عمله. إنّه ملتقى نساء المعسكر مع معتقلي الحرب الألمان الذين يقومون بأعمال إزالة الردم هنا في أرض البور القريبة أو في المصانع التي دمرتها قنابل الحرب. قال الحدّاد أنطون، إنهم يأتون لعقد أعراس قططيّة مع نسائنا. كلّ ماعليك أن تفتح عينيك عندما ترفش الفحم.

لم يمض بعدُ صيف ستالينغراد، في ذلك الصيف الأخير على الشرفة في الوطن كان صوت أنثويٌّ عطشٌ للحبّ قادم من الرايخ الألمانيّ يقول عبر الراديو:

على كلّ امرأةٍ ألمانيّة أن تهدي الفوهرر ولداً.

سألت عمتي فيني أمّي: كيف نفعل ذلك، هل سيأتي الفوهرر الآن إلينا، كلّ مساء إلى واحدة في زيبِن بورغِن، أم علينا الذهاب إليه بالدور إلى الرايخ.

كان طبق اليوم أرانب بالحامض، تذوّقت أمّي الصلصلة مستخدمةً لذلك ورقة غار

1- ياما Jama: وادي أو منخفض بالروسيّة.

تسحبها عبر فمها. وبعد أن نظفتها بلسانها، غرزتها في ثقب زرٍّ من أزرار تنورتها. فكّرت بيني وبين نفسي أنهما، أمّي وجدّتي، تسخران من الفوهرر، لكنّ بريق عيونهما كان يقول أنهما تتمنيان ذلك أكثر مما يمكن للمرء أن يعتقد. وقد رأى والدي ذلك أيضاً، فجعّد جبينه، ونسي بضع ثوانٍ أن يلوك لقمة الأكل التي في فمه. قالت جدتي: أنا فكّرت أنّكم لا تحبّون الرجال ذوي الشوارب. هل يرسل الفوهرر برقية قبل مجيئه، ربّما كان عليه أن يحلق أيضاً!

كان العمل قد انتهى في الياما وترك ذلك الوادي يضطجع وحيداً هناك والشّمسُ مازالت تشعّ بشحوبٍ فوق الأعشاب، فمشيت فوق أحد السبل المُداسِ عشبُها إلى زِبلن وتفحّصت داخله. كان الأنبوب ظليلاً على مدخله، ونصف مظلم في منتصفه، أمّا في نهايته الأخيرة فقد كان معتماً تماماً. في اليوم الثاني وأثناء تفريغ حمولة الفحم فتحت عينيّ جيداً، وقبل الغروب شاهدت رجالاً بمجموعات ثلاثية ورباعيّة تأتي عابرة الحشائش. كانوا يرتدون سترات بوفايكا مختلفة عن التي نلبسها نحن، كانت مخططة. قبل وصولهم إلى زِبلِن طمروا أنفسهم إلى مافوق الرقبة في ذلك العشب الطويل. ثم تكتشف بعد قليل كيس مخدّة مهترئاً مرفوعاً على عصا أمام مدخل الأنبوب. كان هذا الكيس علامة على انشغال الأنبوب. ثم يختفي العلم الصغير بعد قليلٍ أيضا، ليظهر ثانية وثالثة ورابعة... وليختفي لبرهة بعد كلّ مرّة.

لم تكد الدّفعة الأولى من الرجال تختفي حتى تظهر الثّانية، ودائماً ثلاثة رجالٍ يستترون بالعشب. ورأيت أيضاً، كيف اتّفقت فرق النساء جميعها على القيام بالتغطية على أعراس القطط هذه. فعندما انسلّت ثلاث أو أربع نساء إلى العشب، قامت الأخريات بإشغال رئيس العمل بأحاديثهن. وعندما سأل الآمر عن النساء اللواتي اختفينَ، وضحت الباقيات منهن، أنّ بعضهنّ اضطررن للاختفاء في العشب بسبب الإسهال وأوجاع أخرى في المعدة. لا شكّ أن بعضهنّ مريضٌ فعلاً، لكنّ إثبات ذلك عند أكثرهن كان مستحيلاً. كان رئيس العمل يعضّ على شفتيه، وينصت لحديث النساء لوقت طويل، ولكنه صار يدير رأسه بشكلٍ متكرّر باتجاه زبلن كلّما طال زمن غياب تلك النسوة. ولذلك كان

على النسوة أن يفعلن شيئاً حاسماً، كما رأيت، وقد فعلن ذلك فعلاً حين همسن في أذني مغنيّتنا لوني مِش، لتبدأ لوني بصفير كأزيز الزجاج، وبقوة تفوق كلّ هذا الصياح الصادر عن الترفيش:

هدوء المساء يخيم على كلّ الأمكنة

وفي الوادي فقط

كان البلبل

وفجأة تعود اللواتي اختفين، ويدخلن بيننا كأنّ شيئاً لم يحدث، فهنّ يبدأن فوراً بالترفيش.

أعجبني هذا الاسم زِبلِن، فلقد استيقظ في ذاكرتي متناغماً مع وقع النسيان الفضيّ لعوَزنا على وقع هذا التزاوج القططيّ السريع. لقد فهمت، أنّ هؤلاء الألمان الغرباء يملكون كل ماينقص رجالنا في المعسكر. لقد كانوا مرسلين من قبل الفوهرر كجنود في هذا العالم، وكانت أعمارهم مناسبة تماماً، لم يكونوا صغاراً كالأطفال ولا بالغيّ النضج كرجال المعسكر. لقد كانوا هم أيضاً مُحتقرين ومُهانين، لكنهم كانوا قد خاضوا غمار الحرب من قبل. بالنسبة لنسائنا كانوا أبطالاً، والنوم معهم أمتع من نوم الليل تحت اللحاف على أسرّة البراكة مع عمال المعسكر. مع العلم أنّ أعراس قطط زبلن لم تلغِ نومات الحبّ المسائية تلك، لقد استمرت كسابق عهدها، فما كان بالإمكان الاستغناء عنها.

كانت ممارسة الحبّ المسائيّ مع رجال المعسكر تفوح برائحة مشقّة هؤلاء النسوة، يعني برائحة الفحم وبنفَس طعم الشوق إلى الوطن. وقادت دائماً إلى مبدأ الأخذ والعطاء اليوميّ. لقد كان على الرجل أن يهتم بتوفير الطعام والمرأة باللباس والسلوى. أما في زِبلِن فلم يكن هناك أية مشقة، إذا استثنينا رفع العلم الصغير على السارية وتنزيله.

ما لا يتوقعه مني الحدّاد أنطون، هو أنني لا أضنّ على النسوة غزواتهن في زبلِن. وأنني أحمل في رأسي نفس النزوة، وكمؤتمن على السرّ عرفت هذه الإثارة في ثيابٍ ليست لمثلي، هذا الاشتهاء الضّال وسعادته المسروقة في حديقة أشجار البتولا وفي حمّام نِبتون. وأن أعود الآن كثيراً للتفتيش في تلك اللقاءات، شيء لا يتوقعه منّي أحد. السنونوة، شجرة

الصنوبر، الأذن، الخيط، طائر البيرول، القبّعة، الأرنب، القطّة، النورس، ثمّ اللؤلؤة. كما لا يتوقع أحدٌ أنّي حملت كلّ تلك الأسماء الحركية في رأسي، أو أنّ في عنقي كلّ هذا السكوت.

وأيضاً في زبلِن، كان للحب فصوله السنوية. ثم وضع الشتاء لزبلِن نهايته في العام الثاني من المعسكر، وأتى الجوع بعده. وعندما كان ملاك الجوع يتجوّل معنا بشكل هستيريّ، عندما أتى زمن العظم والجلد، عندما لم يكن بالمقدور بعدها الفصل بين الرجل والمرأة، كان تفريغ الفحم مستمراً في الياما. ولم يتغيّر شيء سوى ازدياد تلك الدروب المُداس عشبُها وزهرة البيقة تسلّقت بلونها الليلكيّ بين زهرات الأخيليا البيضاء ونباتات الملوخية الحمراء. كان نبات الأرقطين مزهراً وكذلك أزهار الحسد الشوكية. نام زبلِن وتملّكه الصدأ كما اعتلى الفحم المعسكر وأعشاب البادية، مثلما اعتلانا الجوع.

حول الأوجاع الوهميّة لساعة الوقواق

في صيف العام الثاني للمعسكر وفوق سطل ماء الشرب التنكيّ، على الحائط الذي بجانب الباب تماماً علّقت ساعة الديك الصيّاح. لم يكن ممكناً معرفة كيفية وصولها إلى هذا المكان. وهكذا فقد كانت تنتمي للبرّاكة وللمسمار المعلقة به، ولا لأيٍّ شيءٍ آخرغيرهما. لقد أثقلت هذه الساعة علينا جميعاً دفعة واحدة، كما أثقلت على كلٍّ منا بمفرده. كنّا نسمع دقاتها في فترة مابعد الظهر الخاوية أينما حلّلنا وذهبنا، حتّى لونمنا في الفراش، أو استلقينا به فقط لنعود إلى أنفسنا قليلاً أو ننتظر شيئاً ما سيأتي. فنحن جوعى للنوم منهكون لا نستطيع النّهوض. لا شيء أتى بعد ذلك الانتظار غير تلك الدقّات الرّتيبة في صوملة الحنك، تلك الدقات التي تضاعف تواترها حين سمعت الدقات ساعة الوقواق.

من أجل ماذا نحتاج هنا إلى ساعة وقواق. نحن لا نحتاج لها لقياس الوقت. ليس لدينا هنا مانقيسه، فالنشيد الوطني يوقظنا كلّ صباح عبر مايكروفونات المعسكر. وفي المساء يرسلنا النشيد نفسه بالمايكروفون إلى سرير النوم. وحين يحتاجون إلينا، يسوقوننا سواءً كنّا في الفناء أو في الكانتينه أو حتّى في النّوم. كما كانت صفارات الإنذار الخاصة بالمصنع ساعةً لمعرفة الوقت، وغيمة برج التبريد البخارية والأجراس الصغيرة لبطاريات الكوك كلّها كانت ساعات.

ربما كان ضارب الطبل الحداد أنطون هو من انتزع تلك السّاعة الوقواقيّة من مكان ما وأتى بها إلى هنا. لكنّه أقسم مرّةً أن لا علاقة له بها، رغم أنّه كان يربطها كلّ يوم قائلاً: مادامت هنا، فعليها أن تدور.

كانت ساعة وقواق عادية، غير العادي فيها كان وقواقها فقط. فقد كان يطلع عند ثلاثة أرباع الساعة ليعلن انتصاف الساعة. وعلى ربع الساعة يعلن اكتمالها. على تمام الساعة ينسى هذا الوقواق نفسه أو يطلع معلناً الوقت خطأً. كأن يضاعف الوقت أو ينصّفه. وقد زعم الحداد أنطون أن الوقواق يعلن الوقت الصحيح لدول أخرى في العالم وليس للبلد الذي نحن فيه. لقد كان الحداد أنطون مجنوناً بكلّ تلك الساعة، بالوقواق وبالوزنين الثقيلين والهرميين كفاكهة الصنوبر، كهوسه بنوّاسها النشيط. كان أحبّ على قلبه أن

يصيح الوقواق طوال الليل معلناً توقيت الساعة في مناطق أخرى من العالم. أما ساكنو البراكة الآخرون فلم يرغبوا بالنوم ولا بالبقاء مستيقظين في مناطق الوقواق العالمية تلك.

كان الحداد أنطون عامل تشغيل ميكانكي في المصنع، كما كان في أوركسترا المعسكر عازف الإيقاع والطبّال لأغنية بالوما، الحمامة الإسبانية التي نرقص عليها بثياب البيليسيه. أما أدواته الموسيقيّة فقد صنعها على المخرطة في ورشة الميكانيك. لقد كان صانعاً بارعاً، وأراد أن يعيد ضبط الوقواق اللبق على التوقيت الروسيّ الليلي والنهاري. فبتضييق الفتحات الخاصّة بالصوت في آلية الوقواق كان يريد أن يضيف صوتاً قصيراً عميقاً، أعمق بثُمن مسافةٍ صوتيّة من أجل الليل، ثم يضيف واحداً آخر قوياً وطويلاً كأغنيةٍ من أجل ساعات النهار. لكنه وقبل أن يمدّ يده ليغيّرعادات الوقواق ويسيطر عليها قام أحد السامعين بخلع الوقواق من ساعته، ليصبح باب الوقواق الصغير معلقاً بشكلٍ منحرف في مفصّلته. وعندما تحاول آليّة الساعة تحريك العصفور للغناء، كان الباب الصغير يفتح نصفياً فقط، وبدل أن يخرج الوقواق للصياح، تخرج من الهيكل قطعة غوما كما تخرج دودة مطر من التراب. وهكذا تهتزّ قطعة الغوما وتصدر خشخشةً باكية مسموعة وكأنها سعلة أو نحنحة أو شخير أو ضرطة أو تنهيدة نائم. منذ ذلك الحين والدودة الغوميّة تحرس غفواتنا الليليّة.

كان الحداد أنطون متحمساً للدودة تماماً مثل تحمّسه للوقواق. لم يكن أنطون صانعاً ماهراً فقط، بل كاني يعاني أيضاً من أنه لم يجد في أوركسترا المعسكر شريكاً للرقص كما كان الحال سابقاً في جوقته الموسيقية الكبيرة في كارانزيبيش[1]. في المساءات، وبعد أن يهجّرنا النشيد الوطني عبر مكبرات الصوت إلى البراكة، كان الحداد أنطون يحوّل قطعة الغوما في الساعة على إيقاعات خشخشة الليل بواسطة سلكٍ مَلْوِيّ. وفي كلّ مرةٍ كان يفعل فيها ذلك كان يبقى لبرهة عند الساعة متفرجاً على صورةٍ وجهه في سطل الماء، منتظراً، وكأنه منومٌ مغناطيسيّاً، أوّل خشخشةٍ للساعة. وما أن يفتح الشباك الصغير حتّى تراه يحدّب ظهره قليلاً وتلمع عينه اليسرى، التي كانت أصغر قليلاً من اليمنى، بدقّة تامّة.

1– كارانزيبيش Karansebesch: مدينة تقع في مقاطعة بانات في الجنوب الغربي من رومانيا.

ومرّة، وبعد أن خشخشت الساعة قال لنفسه، أكثر مما قال ليُسمعني أنا، هي يه، لقد ورثت الدودة أوجاعاً وهميّة كبيرة من الوقواق.

أنا أحببت الساعة.

أنا لم أحب الوقواق المجنون، ولا الدودة، ولا النوّاس النشيط. أنا أحببت تينك الوزنين، الكوزين الصنوبريين. لقد كانا من الحديد الثقيل الخامل ومع ذلك كنت أرى من خلالهما غابات الصنوبر في جبال الوطن. متعالية فوق الرأس كثيفة بمعاطفها الإبريّة المعتمة الاخضرار، وماتحتها مقصوصٌ بصرامة ممتدة في البعد بقدر ماترى العين. تلك الأرجل الخشبيّة والجذوع التي تقف إن وقفتَ وتذهب إن ذهبتَ وتمشي إن مشت. فقط هي من يفعل ذلك لا لتشبهك، هي تفعله وكأنها جيش. وعندما يطرق قلبك من الخوف تحت لسانك، تحسّ تحت قدميك ذلك الفرو اللامع من الإبر، ذلك الهدوء الساطع لأكواز الصنوبر المتفرقة. حيث تنحني لتأخذ اثنين منها، واحداً تدسّه في جيب بنطالك والآخر تحتفظ به في يدك، لتشعر أنّك لست وحيداً، وليفهمك هذا الذي في يدك بأن الجيش ليس غابة وأن الخسارة في الغابة ليست أكثر من نزهة.

لقد اجتهد أبي كثيراً ليعلمني الصفير وكيف يستطيع المرء أن يعرف الاتجاه من الصدى، عندما يصفّر شخص أضاع نفسه في غابة، وكيف نجده بواسطة تكرار الصفرة. لقد فهمت فوائد إطلاق الصفير، لكنّي لم أفهم كيف ينفخ المرء الهواء صافراً بحدّة من فمه. لقد سحبته خطأً إلى الداخل، وبدل أن يخرج صوت من فوق شفتيّ، انتفخ صدري. فلم أستطع تعلّم الصفير في حياتي كلّها. كمّ مرةٍ أعاد أبي الصفير أمامي، وأنا لم أفكّر إلاّ بما رأيته! وهو أنّ شفاه الرجال تلمع من الداخل كالكوارتز الورديّ. قال: سترى أن الواحد يستطيع الاستفادة منه. ماعناه هو الصفير طبعاً. أما أنا فقد كنت أفكر لحظتها بالجلد البلّوري للشفاه.

من كان عليه أن يملك ساعة الوقواق حقيقة هو ملاك الجوع. ففي المعسكر لم يكن أحد ليهتم بوقتنا أبداً. ماكان مهمّاً هو السؤال التالي: قلْ لي أيها الوقواق، كم بقي لي بعد من هذه الحياة.

كاتي البلانتونية

جاءت كاتارينا زايدل، والتي تدعى كاتي البلانتونيّة، من إقليم البانات، من باكوفا. وعلى الأرجح أن يكون سبب ترحليها إلى المعسكر هو أنّ أحد أبناء قريتها اشترى اسمه وشطب من القائمة، ثم قام أحد الأوغاد بإنزال اسمها بديلاً. أو أن ذلك الوغد كان سادياً لدرجة ينزل فيها اسم كاتي في القائمة منذ البداية. لقد ولدت تلك المرأة بلهاء، لدرجة أنها لم تعرف طوال سنوات المعسكر الخمس، أين هي موجودة. كانت امرأة بدينة قصيرة القامة، وكأنها لم تكن طفلاً كاملاً، بل نصف طفل ماعاد يكبر في الطول فراح ينمو في العرض. كان لها جديلة بنيّة طويلة وإكليل شعر مجعّد حول جبهتها وعلى عنقها من الخلف. كانت النسوة يمشطنها كلّ يومٍ في بدايات قدومنا للمعسكر، وكلّ بضعة أيام بعد ابتلائنا بوباء القمل.

لم يكن من الممكن استخدام كاتي بلانتون في أيّ عمل. فهي لاتفهم معنى معيار أو ماذا يعني أمر أو ماذا تعني عقوبة. لقد خرّبت نظام عمل الورديّة. ولكي يمكن إشغالها بشيء ما، أوجدوا لها في الشتاء الثاني من وجودنا في المعسكر خدمة الحراسة. كان عليها أن تقوم بحراسة البراكات بالتناوب ليلاً، ومن هنا جاء لقبها البلانتونيّة.

خدمت بعض الوقت في براكتنا. وحين تأتي كانت تجلس على الطاولة وتلفّ أحد ذراعيها على الآخر ثم تضيّق عينيها وتحدّق في ضوء الخدمة الشوكي. كان كرسيّها عالياً جداً ورجلاها لاتستطيعان الوصول إلى الأرض. وعندما تملّ، تمسك بطرف الطاولة مرخيةً ثقلها على يديها مسرورةً بأرجحة الكرسي حيناً للأمام وآخر للخلف.

لم تكن تستطيع أن تتحمل البقاء في المكان نفسه ساعة واحدة، فتذهب إلى براكة أخرى.

كانت في الصيف لا تأتي إلاّ إلى براكتنا وتبقى عندنا طوال الليل. أمّا سبب ذلك فكان إعجابها بساعة الوقواق، بالرغم من أنها لم تكن تستطيع قراءة الوقت. كانت تجلس تحت ضوء الخدمة، تعقد ذراعيها أحدهما على الآخر وتنتظر خروج الدودة الغوميّة من

بابها الصغير. وعندما تشخر تلك الدودة، تفتح كاتي فمها، وكأنها تساعد الدودة على الصليل، لكنها لم تكن تتفوه بصوت.

حين تظهر دودة الغوما مرّة ثانية، تكون كاتي قد غفت ووجهها على الطاولة. وقبل أن تنام تسحب جديلتها من فوق ظهرها وتضعها على الطاولة ماسكةً إياها بيدها طوال الليل ما دامت نائمة. ربما تؤنسها جديلتها، فهي تأخذها معها كي لا تشعر بالوحدة. أو ربما كانت تخاف غابة الأسرّة الرجّالية الثمانية والستّين حولها. أو ربما ساعدتها الجديلة كما ساعدني كوز الصنوبر في الغابة. أو أنّها أرادت، والجديلة في يدها، أن تحرسها من طمع سارق قد يحرمها منها.

ومع ذلك فقد أتى من سرقها، ولم نكن نحن ذلك اللّص. فقد أخذ تور بريكوليتش كاتي البلانتونيّة إلى براكة المرضى عقوبة على نومها أثناء الحراسة. وأمر الحلاقة الميدانية بحلاقة رأسها على الصفر. في ذلك المساء جاءت كاتي البلانتونية إلى الكانتينه برأسها المحلوق وجديلتها المقصوصة حول رقبتها، ثم أخذت الجديلة وألقت بها مثل أفعى على الطاولة. غطست طرف الجديلة في الحساء ووضعته على رأسها المحلوق، قاصدةً بذلك أن تنبت الجديلة ثانيةً في مكانها القديم. ثم أعطت طرف الجديلة الثاني مايأكله وأجهشت بالبكاء. أخذت هايدرون غاست منها الجديلة وقالت لها، من الأفضل أن تنسيها. بعد انتهاء وقت الطعام رمت هايدرون الجديلة في إحدى النيران المشتعلة في الدار وكاتي البلانتونية تنظر إليها وهي تحترق واجمة دون أن تنطق بكلمة.

برأسها الحليق أحبّت كاتي البلانتونية أيضاً ساعة الوقواق، وغفت نائمة بعد أوّل صرير لدودة الغوما أيضاً ورأسها حليق، جامعة أصابع يدها وهي نائمة وكأن الجديلة فيها. أيضاً وبعدما نبت الشعر ثانيةً، غفت كاتي ونامت، وجمعت أصابع اليد على راحتها كالعادة، رغم أن الشعر لم يكن قد ارتفع على رأسها أكثر من طول الأصبع. ولأشهر عدة كانت تغفو كاتي البلانتونية مرّةً بعد مرّة، حتى حلقوا لها مرة ثانية على الصفر، لينبت بعدها الشعر أزعرَ، وتظهر عضّات القمل التي انتشرت على جلدة رأسها أكثر مما انتشر الشعر. لقد عادت للنوم من جديد حتى أدرك بعدها تور بريكوليتش أنّك تستطيع تدريب كلّ

عبدٍ فقير، لكنك لا تستطيع أن تؤهّل الهُبْل. ثم تقرّر بعد ذلك إلغاء خدمة الحراسة.

ذات مرّةً أثناء (طابور) التفقد وترديد الشعار وقبل أن يحلقوا لها شعرها جلست كاتي البلانتونية في منتصف الصفّ في الثلج على قبعتها القطنية. صرخ شيشتفانيونوف: انهضي أيتها الفاشيّة، ليسرع تور بريكوليتش بسحبها من جديلتها وإيقافها على رجليها. وعندما أفلتها جلست ثانيةً. فقام برفسها على ظهرها حتى انقلبت على الأرض متكوّرة على نفسها، قابضة على جديلتها وواضعة قبضة يدها في فمها. كان طرف الجديلة يتدلى خارجاً عن الجسد وكأنك ترى طيراً بنياً صغيراً مفتَرساً من منتصفه وبقي نصفه الآخر معلقاً. بقيت ملقاةً على الأرض حتى انتهى الاجتماع، حيث أنهضها واحد منّا وقادها معه إلى الكانتينه.

كان يملك تور بريكوليتش أن يكون وصيّاً علينا جميعاً، ماعدا كاتي البلانتونية، فمعها لم يكن يملك إلا ضعف فظاظته. وعندما لاتنفعه تلك الفظاظة، يستخدم ضعف شفقته. اقتلعت كاتي البلانتونية عقل سيدها وهي عاجزة. ولكيلا يصبح هذا السيد أضحوكةً أصبح تور بريكوليتش أليفاً. وصارت كاتي البلانتونية بدءاً من ذلك اليوم تجلس على الأرض بجانبه أمام (الطابور) حين يجتمع. كانت تجلس ساعات طويلة على قلنسوتها القطنيّة وتنظر إليه معجبةً مثل عروسٍ مركّبةٍ من حلقات متمفصلة. وحين كان (الطابور) ينتهي تكون قلنسوتها قد تجمدت والتصقت بالجليد، وعلى المرء أن يخلعها خلعاً من الأرض كي يأخذها.

عكرت كاتي البلانتونيّة نظام ترديد الشعار في (الطابور) مدّة ثلاثة أيام صيفيّة متتالية. فقد جلست بعض الوقت ساكتة بجانب بريكوليتش، بعدئذ اقتربت من قدميه ولمعت له حذاءه بقبعتها. فدعس بقدمه على يدها، سحبت يدها وبدأت بتلميع فردة حذائه الأخرى. فدعس إيضاً بقدمه الثانية على يدها. وعندما رفع قدمه عن يدها نهضت قافزةً وركضت مرفرفةً بذراعيها المفتوحين بين صفوف المجتمعين وهي تهدل مثل حمامة. أمسك الجميع نفسه وضحك تور ببلاهة تشبه نباح الديوك الرومية الكبيرة. بعد تلك الحادثة استطاعت كاتي البلانتونية ثلاث مرّات مسح حذائه ثم لعب دور الحمامة، فقرروا

إبعادها عن اجتماع ترديد الشعار. مقابل إعفائها من حضور الاجتماع كان عليها خلال ذلك الوقت أن تمسح أرضيات البراكات. حيث حملت بالسطل ماءً من البئر، عصرت خرقة المسح ثم لفتها حول المكنسة. بعد الانتهاء من كلّ براكة كان عليها تبديل ماء السطل الوسخ بماء جديد من البئر. لم يخالط تفكيرها أيّ ارتباك عكّر مسيرة التنظيف تلك. فقد أصبحت أرضيات البراكات نظيفةً كما لم نعهدها من قبل. لقد قامت بالمسح بإتقان وبلا استعجال، فربما تربّت على ذلك في بيت أهلها.

إنها لم تكن مجنونة كما كان يُظنّ. كانت تسمي ترديد الشعار في الاجتماع أبفِل[1]، أي تفاحة، بدلاً من أبّل. وعندما كانت تسمع رنين الجرس الصغير لأفران فحم الكوك، كانت تقول، لقد بدأ القداس في الكنيسة. هي لم تكن تفكّر كثيراً بهذا الذي تتفوه به من تبديلٍ للأشياء، لأن عقلها لم يكن هنا. فسلوكها لم يكن يتلاءم مع نظام المعسكر، ولكنه كان يتفق مع تغيّرات المعسكر الطارئة. كانت تبيّتُ في داخلها ماهو جوهريّ، هذا الذي كنا نحسده عليها. حتى ملاك الجوع لم يستطع أن يجد في غرائزها مسلكاً له. لقد ابتلاها مثلما ابتلانا جميعاً، ولكنّه لم يستطع الصعود إلى رأسها كما فعل في رؤوسنا. لقد فعلت كل ماهو بسيط دون خيار تاركةً نفسها رهن الصدف.

لقد اجتازت سنوات المعسكر ونجت دون أن تعمل في البيع الجوال على البيوت أو ماكنا نسميه التبييت. ولم يرها أحد قطّ على أكوام الزبالة خلف الكانتينه. لقد أكلت ماكانت تجده في فناء المعسكر وعلى أرض المصنع. أكلت الأزهار وأوراق الأعشاب وبذورها وكلّ ماكانت تلتقطه من الحشرات مثل الدود واليساريع واليرقات والجعلان والحلازين والعناكب. كما كانت تأكل براز كلاب الحراسة المتجمد على أرض المعسكر الثلجيّة. كلنا كان يتعجب من اطمئنان كلاب الحراسة لها، وكأن هذا الإنسان المهزوز ذا القلنسوة التي تغطي الأذنين واحد منهم.

1- أبفل Apfel: أي التفاحة، والمقصود هنا آبّل Appel ، أي في اجتماع ترديد الشعار، لأن كاتي البلانتونية لم تكن تفَرق بين أبفِل وآبِل.

كان عَتَهُ كاتي البلانتونية منحصراً في دائرةٍ يمكن قبولها. فهي لم تكن عالةً على أحد وفي نفس الوقت لم تكن غائبة عن المجموع. وقد حافظت عبر كلّ سنوات المعسكر على طبيعيّة سلوك حيوان أليف يعيش في ذلك المعسكر. لا شيء كان غريباً بالنسبة إليها، لقد أحببناها.

في ساعات بعد الظهر لأحد أيام أيلول، سبتمبر انتهى وقت ورديّة عملي. كانت الشمس ماتزال ترسل أشعتها الحارقة، وأنا ضائعٌ هناك على تشعبات الطرق الترابية الصغيرة المصنوعة بالأقدام خلف الياما. وهناك أيضاً وبين نباتات الملوخية الناريّة، التي لم تعد صالحة للأكل، طلع الشوفان البريّ يتمايل محروقاً بحرّ الصيف. كانت حسكاته تلمع مثل هيكل سمكةٍ، والسنابل القاسية حملت حبّات مازالت حليبية الشكل. أكلتُ. وفي طريق العودة لم تعجبني السباحة بين الأعشاب، لذلك أخذت طريقاً مجدباً من كلّ شيء. كانت كاتي البلانتونية تجلس إلى جانب زِبلِن. يداها تدبّان بالأسوَد على هضبةٍ مليئة بالنمل. وكانت تلحسهما ثم تلوك بفكيها آكلةً. سألتها: كاتي، ماذا تفعلين.

قالت كاتي: أصنع لنفسي قفازات تدغدغ حين تلبسها.

فسألتها: وهل أنت باردة.

ردّت: لا، أنا اليوم لست باردة، غداً سأكون. لقد خبزت لي أمي كعكاً بالخشخاش، الكعكات مازلن ساخنات، لا تدعس عليهن برجليك، أنت تستطيع الانتظار، فأنت لست صيّاداً. عندما ينتهي الكعك، يتمّ إحصاء الجنود في الأبفِل، بعدها يسافرون إلى البيت.

ثم تمتلئ يداها ثانية بالأسود. قبل أكلها للنملات قالت سائلةً: متى ستنتهي الحرب. قلت لها: لقد انتهت الحرب منذ عامين. تعالي، نذهب إلى المعسكر.

قالت: ألا ترى، أنّي لا أملك الوقت!.

جريمة بالخبز

لم ترتد فينيا في حياتها كلّها جاكيت بوفايكا، وإنما كانت تلبس بدلاً منه مريول عمل أبيض وفوقه كنزة كروشيه صوفيّة مشغولة بالصنارة، كنزة تبدلّها كل يوم بواحدة جديدة. كان لون كنزات الكروشيه يتغيّر مع الوقت، فواحدة صارت بنيّة بلونٍ حباتٍ الجوز والأخرى تحوّلت إلى وسخٍ ليلكي، يشبه جزرات اللفت الحمراء غير المقشّرة، وأخرى كانت صفراء طينيّة ورابعة مبرقعة بنقاط غبراء مبيضّة. كانت أكمام الكنزات فضفاضة رغم أنهنّ كنّ مشدودات على البطن. لم يكن أحد يعرف شيئاً عن برنامج تبديل تلك الكنزات، أيّ سترة حدّدت لأيّ يوم، ولا لماذا ترتديها فينيا فوق المريول؟! كما أنه لم يكن باستطاعة تلك الكنزات أن تحمي من البرد، لقد كنّ مليئات بالثقوب وفقيرات بالصّوف.

كنّ مشغولات بصوف ماقبل الحرب، صوفٌ حيك وشدّ الكثير من المرّات، ومع ذلك مازال جيداً لأعمال الكروشيه. ربما حصلت فينيا على صوف هذه السترات المهلهل من إحدى العائلات الكبيرة أو ورثت كلّ كنزات الصوف لموتى تلك العائلة. لم نكن نعلم شيئاً عن عائلة فينيا، حتى إنّنا لم نكن ندري فيما إذا كانت لها عائلة قبل الحرب أو بعدها. إذ لم يكن أحد منّا مهتماً بفينيا شخصياً. رغم خضوعنا جميعاً لها، فهي التي توزّع الخبز. كانت هي الخبز والسيدة التي تقدّم لنا بيدها مانفترسه كلّ يوم. كانت عيوننا معلّقة بها، وكأنها هي التي اخترعت الخبز لنا. كما كان جوعنا يراقب بدقةٍ كلّ شيء على فينيا: حواجبَ عينيها التي تشبه فراشي الأسنان والوجهَ بذقنه العظيم وشفتي الحصان القصيرتين اللتين لا تغطيان اللثة تماماً وأظافرَ يديها الرمادية التي تحمل سكيناً كبيرةً من أجل التقطيع الدقيق لحصص الخبز ثم ميزانَها المطبخيّ ذا المنقارين.

وقبل كل شيء عينيها الثقيلتين. لقد كانتا ميتتين مثل كرات خشبيّة على أباكوس[1] لم تستعمله في حساباتها إلا ماندر. لم يكن الواحد منّا يَسمح لنفسه في الخفاء ولا أمامها الاعتراف بأنّ تلك الفينيا بشعة المنظر ومقرفة. وكان يعترينا الخوف من أن تبصر تلك

1- أباكوس Abakus: أو العداد هو وسيلة حساب يدوية تتكون من إطار بأسلاك متوازية أو قضبان تمر خلال خرزات أو حصيات وتستخدم اليوم لتعليم الحساب للأطفال في المراحل الابتدائية.

المرأة مانفكر فيه. لا يلبث منقارا ميزان فينيا أن يتحركا للأعلى والأسفل حتى تبدأ عيناي بملاحقتهما. حيث يرتجف لساني في فمي مقلّداً المنقارين، فأعضُّ بأسناني، تاركاً فمي مفتوحاً، ليتراءى لفينيا أنّي أبتسم لها. كنّا نبتسم من شدّة عوزنا ولبديهيتنا في التعامل، نبتسم صادقين ومخطئين وكلّ ذلك في ابتسامة واحدة، بلا حولٍ ولا قوة وبسوء نيّة كيلا نضيّع علينا حظوتنا عند فينيا. وكيلا نخاطر بعدل فينيا وإنما كي توقظ ذلك العدل في يديها، وإن تمكّنا، لنرفع من وزن هذه العدالة بضعة غرامات. مامن شيء كان يستطيع مساعدتنا، كانت فينيا تبقى رغم كل تلك المحاولات عكرة المزاج. كانت رِجلُ فينيا اليمنى أقصر من اليسرى بكثير، أي أنها كانت تعرج بوضوح حين تتحرّك باتجاه رفّ الخبز، لدرجة قلنا فيها إنّ المرأة انفلجت. لقد كانت الرجل قصيرة جداً، حيث شدّت خلفها زاوية فم فينيا اليسرى، وسحبت بين فترةٍ وأخرى الزاوية اليمنى إلى الأسفل. كان هذا مايحدث دائماً، وكأنه نتيجةً للمزاج السيّئ للخبز الأسمر، وليس بسبب الرجل القصيرة جداً. وبسبب اضطراب الفم في حركته كان نصف وجهها الأيمن يَشِي بشيء معذّب. ولأنّها تعطي الجميع خبزاً، فقد اعتبرنا شللها والعذاب الذي على وجهها قدراً، مثل حركة التاريخ السكرانة.

تملك فينيا شيئاً مقدساً وشيوعيّاً، فقد كانت بالتأكيد من كوادر قيادة المعسكر، ضابط الخبز هي، وإلا لما استطاعت أن ترفع من رتبتها لتصل إلى منصب سيدة الخبز وشريكة ملاك الجوع. كانت تقف وحيدة في غرفتها المطليّة بالكلس الأبيض وفي يدها سكينها الكبيرة خلف شباك التوزيع، بين ميزان المطبخ والأباكوس.

كان عليها أن تحفظ قوائم بكاملها غيباً. لقد كانت تعرف تماماً، من هم الذين يحصلون على حصة الستمئة غرام ومن يحصل على حصة الثمانيمئة غرام ومن هم أصحاب الألف غرام.

أنا كنت قتيل بشاعة فينيا. ومع الوقت صرت أرى فيها جمالاً غير مشذّب، جمالاً يصير إجلالاً، وكاد التقزّز أن يجعل منيّ شخصاً قاسياً، ويصير هذا التقزز خطراً أمام منقاريّ الميزان. انحنيتُ، وغالباً ما اعترابي شيءٌ فظيعٌ خلال تلك الانحناءة. ذلك ماكان

يحدث لي بعد أن أكون قد استطعمتُ طيبَ خبزها وأصبحت بعد بضع دقائق نصف شبعان.

أنا أعتقد اليوم أن فينيا وزّعت كلّ أنواع الخبز الثلاثة التي عرفتها سابقاً. النوع الأوّل كان خبز زيبِن بورغِن اليوميّ الحامض من السيّد الربّ البروتستانتي المجبول بعرق جبينه منذ قديم الزمان. النوع الثاني كان الخبز البنّي الخشن من سنابل هتلر الذهبية، من الرايخ الألماني. أما النوع الثالث فقد كانت حصة خبز الخليب من فوق الميزان الروسيّ[1]. وأنا أعتقد أن ملاك الجوع عُرف بتلك الثلاثيّة الخبزيّة، كما أنه قام باستغلالها. كان فرن الخبز يوزّع أول دفعة خبزٍ أثناء ساعات الغسق من كلّ يوم. وعندما كنا نأتي إلى الكانتينه بين الساعة السابعة والثامنة صباحاً، تكون فينيا قد جهزت الحصص ووزنتها. كانت تضع حصّة كلّ واحدٍ منّا أمامه على الميزان مرّة ثانية قبل أن تسلّمها له. حيث تعيّر الميزان وتضيف جذاذةً فوق الحصّة أو تقطع منها زاويةً. بعد ذلك تؤشّر برأس السكين على منقاري الميزان، ثم تنظرُ نظرةً غريبةً وتميل بذقنها الحصانيّ، وكأنها تراني كلّ صباحٍ ومنذ أربعمئة يومٍ لأول مرةٍ.

قبل نصف عامٍ مضى، وعندما حدثت جناية الخبز، فكرتُ بيني وبين نفسي أننا في وضعٍ نستطيع معه اقتراف جريمة قتلٍ بسبب الجوع من جهة، ولأن قداسة فينيا الباردة تسلّلت إلى الخبز من جهةٍ أخرى.

كانت تريد فينيا بطريقة وزنها الدّقيق للخبز أن تقنعنا بعدالتها في التوزيع. كانت تضع حصص الخبز الموزونة على رفوفٍ وتغطّيها بملاءةٍ كتّانيّة بيضاء. وعند تناولها للحصّة ترفع فينيا الملاءَة قليلاً، تأخذها ثم تعيد الملاءة كما كانت. كانت فينيا تحتفل بقدسيّة تطبيق علم الرعاية الصحية في توزيع الخبز في مخزنها المدهون بالكلس الأبيض وبمريولها الأبيض وبملاءات الخبز البيضاء وكأنها شيء من ثقافة المعسكر أو ثقافة عالمية. لقد كان على الذباب أن يستريح على الملاءَة الكتانية بديلاً عن الخبز. حيث تصل الذبابات إلى الخبز بعد أن يصبح في أيدينا. وعندما لم تكن الذبابات تسرع هاربة من مكانها، كنا نأكل جوعها مع

1- خليب Chleb: وتعني خبز في اللغة الروسيّة.

قضمات الخبز. أنا لم أفكّر من قبل بجوع الذباب أبداً، ولا حتى بالرعاية الصحيّة الملعوبة بملاءات الكتّان البيضاء.

عدالة فينيا جعلتني عبداً حقيقياً لهذا التزاوج بين فم مائل ودقّة على الميزان. لقد كان المقرف في فينيا هو إحدى حالات الكمال، وهي أنّ فينيا لم تكن جيدة ولا سيئة، هي لم تكن شخصاً وإنما قانوناً مقمّطاً بكنزات كروشيه. كان من غير الممكن أن يخطر ببالي ولا في مرّة واحدة مقارنة فينيا بامرأة أخرى، لأنه لا توجد امرأة أخرى مهذبة هذا التهذيب المرير وبشعة بلا منازع في نفس الوقت. لقد كانت مثل قالب الخبز المحبوب والمبلّل جداً، ذلك اللزق الشنيع المغذّي والمقطّع في حصص.

كنّا نحصل على نصيبنا من الخبز كلّ صباحٍ ولكامل اليوم. ومثل أكثرية المعتقلين كنت من مرشحيّ الثمانيمئة غرام. لقد كانت هذه هي الحصّة العادية. حصّة الستمائة غرام كانت مخصصة لأصحاب الأعمال الخفيفة مثل عمال أرض المعسكر: ناقلي وسخ المراحيض وواضعيه في الحفرة وكنّاسي الثلج، عمال حملة النظافة التي تقام في الخريف والربيع وداهنيّ أحجار الشارع الرئيسي في المعسكر بالأبيض. أما حصّة الألف غرام فكانت استثناءً يعطى للأعمال الشاقة. توحي كلمة ستمئة غرام لمن يسمعها بكميّة كبيرةٍ من الخبز. لكنّ خبز فينيا كان ثقيلاً لدرجة لم تتجاوز فيها حصّة الثمانيمائة غرام الصفيحة الواحدة بسماكة إبهام اليدّ، حين تقطع تلك الصفيحة من وسط القالب.

ومن كان ذا حظٍّ وصادفته القشرة الأخيرة الجافّة في زاوية القالب، كانت حصّته بسماكة إبهامي يدٍ متلاصقتين.

أولّ قرار اتخذته ذلك اليوم كان: إذا استطعت الصمود اليوم على الفطور أمام إغراء الخبز ولم آكل كلّ حصتي من الخبز مع حساء الأعشاب[1]، لاستطعت رغم شدّة الجوع توفير بعض الخبز لوجبة المساء. لم يكن هناك مانسميه غداء، فساعات الظّهر ساعات عمل وليس لنا أن نختار في ذلك. في أيّام مقاومتي لإغراء الخبز على الفطور، كان عليّ اتّخاذ قراري الذاتي فور عودتي في المساء من ورديّة العمل: لو استطعت الصمود والاكتفاء

1- حساء الأعشاب Krautsuppe: ويتكون من أعشاب مثل اللفت وماشابهه كانت تؤكل أيام الحروب.

بتحسّس الخبز تحت المخدّة باليد فقط لمعرفة ماإذا كان الخبز الذي وفرته من الصباح موجوداً دون أن آكل منه شيئاً ثمّ أنتظر نهاية اجتماع ترديد الشّعار المسائي وآخذ ذلك الخبز معي وآكله في الكانتينه. قد يستغرق انتظاري ساعتين، هذا إذا استعجل الاجتماع وانتهى مسرعاً، وإلا فسيطول انتظاري.

لولم أصمد على فطور الصباح اليوم، لما كان عندي في المساء بقايا الخبز هذه، ولم يكن أمامي حتّى أن أختار أو أقرّر شيئاً. أخذت الملعقة نصف ملآنة، وارتشفتها بعمق. فقد تعلمت أن آكل ببطء، بحيث أستطيع الاستمتاع ببلع لعابي بعد كلّ ملعقة حساء. قال ملاك الجوع: اللعاب يجعل الحساء أكثر مدداً والذهاب إلى النوم مبكراً يجعل الجوع أقصر.

نمت مبكراً ولكن النوم قطّعته حالات استيقاظ متكرّرة، لأن اللهاة كانت ملتهبة وكانت تنبض بالوجع. سواءً أغلقت عينيّ أو تركتهما مفتوحتين، تقلبت في الفراش أو حملقتُ في ضوء النوّاسة، سواءً شخر أحد وكأنه يموت غرقاً أو خشخشت الدودة الغوميّة لساعة الوقواق، فقد كان ليلاً طويلاً، وكانت ملاءات فينيا الكتانيّة تلوح فيه بيضاء بلا نهاية، وتحتها خبز كثير لايمكن الوصول إليه.

أسرع الجوع معي إلى الفطور بعد تحيّة العلم الصباحية. جئنا إلى فينيا، إلى أوّل قرار فوق إنسانيّ: لوأبقى معانداً هذا اليوم، لا ستطعت......... قطعة خبز صغيرة من أجل المساء... إلخ.

حتّى متى؟.

لقد افترس ملاك الجوع نخاعي كلّ تلك الأيام. وفي أحد تلك الأيام رفع لي يدي. وبتلك اليد كنت أوشك أن أقتل كارلي هالمن - إنها جريمةٌ بالخبز.

كان يوم عطلةٍ كامل عند كارلي هالمن، ومع ذلك فقد أكل كامل خبزه على الفطور. كان الجميع في العمل. وكارلي هالمن وحده منذ الصباح وحتى المساء في البراكة. وفي المساء اكتشفنا أن الخبز الذي وفره ألبرت جيون قد اختفى. لقد صمد ألبرت جيون خمسة أيام متواصلة ووفّر بذلك خمس قطع خبز صغيرة، أي مايعادل نصيبه اليومي من الخبز.

وكان طوال اليوم معنا في ورديّة الشغل، ومثله مثل كلّ الذين وفروا خبزهم، كنّا جميعاً ننتظر انتهاء يوم عملنا بصبر نافد كي نأكل حساء المساء بالخبز. فأوّل مانقوم به عند عودتنا إلى البرّاكة كان البحث عن خبزنا الموفّر تحت المخدّة. وهو مافعله أيضاً ألبرت جيون، لكنّه لم يجد الخبز في مكانه. لم أجد الخبز، وجلس ألبرت مخذولاً في ثيابه الداخلية على سريره. وقف ألبرت جيون أمام كارلي هالمن ودون أن ينبس ببنت شفة ضربه بقبضة يده ثلاث مرات على فمه، ليبصق بعدها كارلي هالمن، ومن دون أن ينبس ببنت شفة أيضاً، اثنين من أسنانه على السرير. ثم جاء لاعب الأكورديون وأخذ كارلي من قفا رقبته، حيث قاده إلى سطل الماء وهناك أغرق رأسه في ماء السطل. انسكبَ الدم من فمه وأنفه، ثم حشرج وسكن بعدها وكأنّه جثّة هامدة. انتشل الطبّال الرأس من الماء وأمسك بخناقه ضاغطاً حتى ارتجف فم كارلي بوحشية مثل فم فينيا. أبعدتُ الطبّال دافعاً إياه بعد أن خلعت من رجلي حذائي الخشبيّ الذي مسكته بيدي ثم ارتفعت يدي من نفسها بطريقة أوشكتُ فيها ضرب سارق الخبز والقضاء عليه.

حتى هذه اللحظة كان المحامي باول غاست يتفرج من فوق سريره في الأعلى. وفجأة قفز فوقي راكباً ظهري من الخلف وأخذ مني الحذاء وقذفه على الحائط المقابل. في تلك الأثناء كان كارلي هالمن يستلقي على الأرض مبللاً ببوله يتقيّأ بلغم الخبز بجانب سطل الماء.

لقد ابتلعت رغبتي في القتل عقلي. ليس فقط عقلي أنا، بل عقلنا، نحن لم نكن أكثر من عصابة من كلاب الصّيد. جررنا كارلي بثيابه الداخليّة المبللة بالدم والمليئة بالبول إلى جانب البراكة، أخرجناه إلى ليل شهر شباط، فبراير. هناك أسندناه إلى حائط البراكة. ترنح ثم سقط. من دون استشارة أحد فتحنا، الطبّال وأنا، سحابات سراويلنا، وبعدها جاء إلينا ألبرت جيون ثم جاء الجميع. ولأنّ الوقت كان وقت ماقبل ذهابنا للنوم فقد استطعنا التبول على وجه كارلي هالمن واحداً تلو الآخر. حتى المحامي باول غاست شاركنا في ذلك. عوى كلبا حراسة منبهين العناصر حيث أتى واحد منهما راكضاً صوبنا. شمّ الكلاب رائحة الدم مزمجرين، أما الحارس فقد لعن وشتم. قام المحامي وعسكريّ الحراسة بحمل

كارلي إلى برّاكة المرضى. تابعناهم بنظراتنا وفركنا الدم عن أيدينا بالثلج. بعدئذ ذهب الجميع بصمتٍ إلى البرّاكة وانسلّوا في أسرّتهم. كانت بقعة دم مازالت عالقة على كوعي، أدرت الكوع باتجاه الضوء وفكّرت، ماأشحب احمرار دم كارلي، إنه مثل دهان الأشرعة، شكراً لله أنّه سال خارجاً من الشريان وليس من الوريد. خيّم على البراكة هدوء صامت وأنا سمعت دودة الغوما في ساعة الوقواق تخشخش، كانت صليلها قريباً وكأنه خارجٌ من رأسي. لم أفكر بعدها بكارلي هالمن ولا بملاءات فينيا الكتانية اللانهائية البياض، ولا حتى بالخبز الذي لا يطال، بل رحت أغطّ في نوم هادئٍ وعميق.

كان سرير كارلي هالمن مازال فارغاً حين أيقظنا الصباح التالي. ذهبنا مثل كلّ صباحٍ آخر إلى الكانتينه. وكان الثلج فارغاً وما عاد أحمر، كان ثلجاً طريّاً قد سقط لتوه.

بقي كارلي هالمن يومين في براكة المرضى. بعدها جلس معنا في الكانتينه بجروحه المتقيّحة وعينيه المتورمتين وشفتيه المزرقتين. وَضْعٌ يعلن انتهاء قضيّة الخبز، إذ عاد كلّ منّا بسلوكه إلى سابق عهده. لم نتّهم كارلي هالمن بالسرقة، وهو بدوره لم يتهمنا بمعاقبته. لقد كان يعرف، أنّه كان يستحقها. محكمة الخبز لا تتداول في قضاياها، محكمة الخبز تعاقب. إنّ الحدّ صفر لايعرف القانون، فهو لا يحتاج إليه. إنّه هو القانون، لأنّ ملاك الجوع سارق أيضاً، فهو يسرق المخّ. ليس لعدالة الخبز مقدمات ولا عواقب، إنها حاضر فقط. كليّة الشفافية أو سريّة بكليتها. بكلّ الحالات فإن عدالة الخبز لها عنفها المختلف عن عنف الشبعانين. لا يمكن حضور محكمة الخبز بالأخلاق المتعارف عليها.

كان موعد محكمة الخبز في شهر شباط، فبراير. وفي شهر نيسان، أبريل، كان كارلي هالمِن يجلس على كرسي الحلاقة عند أوسفالد إنبيتر، كانت جروحه قد شفيت وذقنه قد نبتت مثل عشب مُداسٍ بالأقدام. كان دوري في الحلاقة بعده، لذلك انتظرت خلفه في المرآة، كما وقف تور بريكوليتش إحدى المرات خلفي. ألقى الحلاق يديه الناعمتين كالفرو على كتفيّ كارلي سائلاً: منذ متى ينقصنا السنّان الأماميان. لا لي ولا للحلاق، لقد تكلّم كارلي هالمن لليدين الناعمتين كالفرو قال: منذ جريمة الخبز.

بعد الانتهاء من حلاقة ذقن كارلي، جلست على الكرسي. كانت المرة الوحيدة التي

يصفر فيها أوسفالد إنييتر إحدى سيمفونيّات المساء أثناء الحلاقة، بقعة دم تنبق من الرغوة. لم تكن حمراء باهتة مثل دهان الأشرعة وإنّما حمراء داكنة مثل فاكهة العلّيق في الثلج.

مادونا الهلال القمريّ

عندما يكبر الجوع إلى أقصاه، نتحدث عن الطفولة والطعام. النسوة يتحدثن عن الطعام أكثر من الرجال. والقرويات هنّ السبّاقات في تقديم أدقّ تفاصيل هذه الحكايا. إذ تملك كلّ وصفة طبخ لديهن ثلاثة فصول، مثل مسرحية. ومن خلال اختلافات الآراء حول البهارات يكبر التوتر، ويزداد التشويق بسرعة جنونيّة حين لا يجوز مطلقاً أن نضع في حشوة الدهن والخبز والبيض، نصف بصلة فقط وإنما بصلة كاملة، وليس فقط أربعة بل ستة أسنان من الثوم، أو عندما يكون من واجب الطبّاخة هرس البصل والثوم بالحكّ على السّحاجة وليس فقط فرمهما فرماً ناعماً، وعندما يصلح للطبخة بقسماط مدقوق أكثر من الخبز أو من فتاته، وحين يصبح الفلفل والمردكوش الأفضل على الإطلاق للطبخة، فَهما أحسن من الطرخوم الذي يصلح ربما للسمك أكثر من صلاحيته للحم البطّ. أما عندما تأتي الحشوة بين الجلد واللحم، كي تمتصّ دهن الجلد عند القلي، أو حين تقضي الضرورة أن توضع الحشوة في جوف البطن، كي لا تمتص أثناء قليها دهن الجلد، يصل العرض إلى ذروته المسرحية. أحياناً يكون الحقّ إلى جانب البطّة المحشوة على الطريقة البروتستانتية وأحياناً تحصل الحشوة الكاثوليكية على ذلك الحقّ.

أمّا عندما تطبخ النساء القرويات حساء المعكرونة بالكلمات، فإنهن يحتجن لأكثر من نصف ساعة حتى يحصين عدد البيضات، ويحرّكن البيض بالملعقة أو حتى يصلن بحديثهن إلى العجن باليدين أو يصنعن من عجين المعكرونة شرحات رقيقة كالزجاج، ومع ذلك تبقى الشرحات محافظة على شكلها دون أن تنكسر عندما يتركنها تجفّ على طبق المعكرونة.

ثم تمضي ربع ساعة أخرى حتى يتم طيّ ذلك العجين ثم تقطيعه، وحتى تضاف المعكرونة بعد ذلك وتسكب من طبق تحضيرها إلى الحساء، وحتى تطبخ الحساء ببطء بعد ذلك على نار هادئة أو أن تطبخ بسرعة وفوران، حتى يتم تقديمها للأكل ويرش عليها ملء راحة اليد أو فقط من طرف الكفّ بعض البقدونس الطريّ. لا تناقش النساء المدنيّات مسألة عدد البيضات الواجب إضافتهن إلى عجينة المعكرونة؛ وإنما كم يستطيع المرء أن

يوفر من البيض. ولأنّ عليهن دائماً التوفير في كلّ شيء، فإنّ وصفات الطبخ التي يملكنها لا تصلح أن تكون حتى مقدمةً للمسرحية.

إن الحديث في طرق الطبخ فنٌّ أكبر من فنّ حكي النكات. فالذروة يجب أن تلائم النصّ، رغم أنها ليست مرحة. في المعسكر تبدأ النكات دائماً بعبارة: لنفترض أنّ. والذروة هنا أنّ أحداً لا يملك شيئاً. ولا أحد يفصح بذلك. وصفات الطبخ هي نكات ملاك الجوع. إنهنّ مسار سيخ الشواء وحتى يجلس المرء في برّاكة النساء. عند الدخول وقبل أن يُسأل المرء عن حاجته، عليه أن يقول عمّن يبحث. والأفضل أن يسأل المرء بنفسه: هل ترودي هنا. وبينما هو يسأل، يروح داخلاً. من الأفضل أن يتوجه إلى اليسار، حيث الصفّ الثالث، من ثمّ إلى سرير ترودي بيليكان. الأسرّة هناك عبارة عن هياكل حديديّة من طابقٍ واحد كما هي الحال في برّاكات الرجال. بعض الأسرة تمت تغطيتها بملاءات من أجل جولات العشق المسائية. أنا لا أريد أبداً الاستتار خلف ملاءة، أنا أريد فقط وصفات الطبخ. النساء يعتقدن أنّي خجول جداً، لأنّهنّ رأين معي كتباً في إحدى المرّات. فهنّ يعنين أن المرء يصبح أشهى من غيره حين يقرأ.

أنا لم أقرأ الكتب التي جلبتها معي إلى المعسكر إطلاقاً. فالورق ممنوع بشدة، وقد خبأت كتبي خلف براكة السكن حتى انتهى نصف أول صيف في المعسكر، خبأتها تحت أحجار الآجر.

ثم بعتها. مقابل خمسين صفحة ورق سجائر من زرادشت حصلت على مكيالٍ من الملح، حتّى إنّي حصلت على مكيال سكر مقابل سبعين صفحة من ذات الورق.

ومقابل فاوست كلّه بجلده القماشيّ المشمّع ملّكني بيتر شيل مشطَ قملٍ مصنوع من الصفيح. أما مجموعة الشعر المختارة من الثمانمئة عام الماضية فقد استهلكتها على شكل طحين ذرة وشحم خنزير. وتحوّل كتاب أشعار فاين هيبر القليل السماكة إلى ذرةٍ بيضاء. بهذه الطريقة لايصبح ابن امرأةٍ شهيّاً، هو يصبح غامضاً فقط. بسريّة تامّة أسترق النظر بعد انتهاء الشغل إلى العمال الروس الشباب تحت دوش الحمّام. كانت سريّةً لدرجة أنني أنا نفسي لا أعرف لماذا. فربما ضربوني حتى الموت، لو عرفت.

مرّةً أخرى أفقد فيها صبري، وآكل كامل حصّتي من الخبز على فطور ذلك اليوم. والآن أجلس ثانية في براكة النساء إلى جانب ترودي بيليكان على طرف السرير. كِلا المرأتين اللتين تحملان اسم تسرّي تأتيان إلينا وتجلسان متقابلتين على تخت كورينا ماركو، التي تعمل منذ أسبوعين في الكولخوز. أنظر إلى الوبر الذهبي والثؤلولة على الأصابع النحيفة للمرأتين تسرّي وأحكي عن أيام الطفولة، كيلا تبدأ النسوة نقاشهن المسرحيّ المعتاد حول المأكولات.

كنّا نترك المدينة كلّ عام في العطلة المدرسية الصيفية ونذهب للريف. أمّي وأنا والخادمة لودو. كان بيتنا الريفيّ موجوداً على الفينش، وكان اسم الجبل المقابل كورسيه[1]. كنا نقضي هناك ثمانية أسابيع، حيث نعمل يومياً، ونذهب خلال تلك الأسابيع الثمانية كلّها مرّةً واحدةً في نزهةً نهاريّة إلى شيس بورغ[2]، وهي المدينة التالية. إلى هناك نأخذ القطار من أسفل الوادي، من محطّة تسمى هيتور بالهنغارية، وتعني بالألمانية سبعة رجال.

كان الجرس يدقّ على سطح المحرس الصغير في المحطة، لأن القطار غادر للتّو في دانيش ليصل إلينا بعد خمس دقائق. لم يكن هناك رصيف للرّكاب. يومئذٍ كان يصل ارتفاع أول درجةٍ من درجات سلّم الصعود حتى صدري، وحين يصل القطار لمحطة أنظر قبل الصعود إلى عربته من تحت – العجلات السوداء بمسارها المعدنيّ البرّاق، السلاسل والكلاّبات والمصدات. ثم يسافر القطار ماراً بنا قرب المسبح، بجانب بيت توما وعلى حقل زكريا العجوز. كان العجوز يحصل منّا شهرياً على علبتي تبغ كضريبة على استخدامنا للطريق، فقد كنّا مجبرين في طريقنا إلى المسبح على أخذ السبيل الذي يمرّ في حقله المزروع بالشعير. بعد الحقل كان يأتي جسر سكة الحديد، جسر يتدحرج تحته ماء أصفر وخلفه يقف الصخر الرملي المتآكل وفوقه فيللا فرانكا. وهكذا نكون قد وصلنا إلى شيس بورغ. بعد وصولنا كنّا نذهب فوراً إلى السوق وندخل مقهى مارتيني الأنيق. كان لباسنا البسيط وغير المتكلّف يلفت أنظار ضيوف المقهى قليلاً – الأم بالبنطال الفضفاض

1– الكورسيه Schnürleibl: أو المشدّ، بدءاً من القرن الخامس عشر في أوروبا، كان يلبس أعلى التنورة النسائية لشد جسم النساء، لاسيما إذا كنّ مكتنزات.

2– شيس بورغ Schässburg: مدينة رومانية موجودة في منطقة عيش الألمان في إقليم زيبن بورغن.

وكأنه تنورة وأنا ببنطالي القصير بجوارب بنيّة اللون ترتفع حتى الركبة، جوارب لم تكن تتسخ بسرعة. أما لودو الخادمة فوحدها التي لبست ثياب يوم الأحد الريفيّة، البلوزة الفلاحيّة البيضاء ومنديل الرأس الأسود بكشكشه المورَّد وخيطانه الحريرية. كانت وروداً جوريّة مظللة بالأحمر، كبيرة كحبات التفاح، كانت أكبر من الورد الجوري الحقيقي.

في ذلك اليوم سمح لنا أن نأكل كلّ مانريد، وبقدر مانستطيع. كان يمكننا أن نختار بين طرطوفة المرطبان وأقراص الكاتو والسافارين والفطاير المحشوة بالجوز أو الكريم أو الحلاوة بالجبن أو الكعك المغطى بالشوكولاته والكفتة وتورتة بالروم وتورتة نابليون والنوغات وتورتة صفار البيض والفانيللا. ثم يأتي دور الآيس كريم أيضاً، آيس الفريز في أقماع فضيّة أو بوظة الفانيللا في أكواب زجاجية أو بوظة شوكولاته في كؤوس بورسلانية وكلّها مع القشطة. وفي النهاية تورتة الكرز الحامض بالجيليه، هذا إذا بقي في المعدة مكان لها. أحسست بمرمر سطح الطاولة البارد على ذراعيّ وبقماش الكرسي الوثير على قصبات رجليّ.

في الأعلى على البوفيه الأسود في ريح المراوح كانت تنوس مادونا الهلال بفستان طويل أحمر واقفةً برؤوس أصابعها على قمرٍ نحيل جداً جداً. وحين حكيت هذا لنسوةِ البراكة، أرجحتنا معداتنا على أطراف الأسرّة.

مدّت ترودي بيليكان يدها من وراء ظهري تحت المخدة وأخذت ماوفرته من خبز. كلّهم هجموا على صحونهم التنكية ودسوا ملاعقهم في ستراتهم. كانت أدوات طعامي معي، حيث ذهبنا سوية إلى العشاء. ثم وقفنا في الصفّ أمام قدر الحساء.

أخذنا طعامنا وجلسنا جميعاً على الطاولات الطويلة. كلّ يرشف بملعقته حسب طريقته وفي نيّته مدُّ أكل الحساء أطول فترة ممكنة. كانوا صامتين جميعاً. ومن نهاية الطاولة عبر طقطقة ذلك الصفيح سألت ترودي بيليكان: ليو، ما اسم ذلك المقهى.

صحت أنا: مقهى مارتيني.

اثنتان، ثلاث ملاعق ثم سألت ثانيةً: وما اسم تلك المرأة الواقفة على رؤوس أصابعها.

وأنا صحت: مادونا الهلال القمريّ.

من الخبز الشخصيّ إلى خبز الوجه

ليس بيننا واحدٌ إلاّ ويقع في فخّ الخبز.

في فخّ الصبر على توفير خبز الفطور وفي مصيدة تبادل الخبز على مائدة العشاء وفي فخّ الليل مع خبز الفطور الموفّر تحت الرأس. وأسوأ مصيدة لملاك الجوع هي مصيدة الصبر: أن تكون جوعانَ وفي يدك الخبز ثم لاتأكله. أن تقف بصلابة ضدّ نفسك، أصلب من أرضٍ شديدة التجمّد. ويقول لك ملاك الجوع كلّ صباح: فكّرً بالمساء.

نحنُ نتبادل الخبز كلّ مساء قبل وجبة حساء الأعشاب، لأن حصّتك من الخبز تبدو لعينيك دائماً أصغر من حصّة الآخرين. والآخرون يرون حصصهم بالطريقة نفسها.

تنتابُ ذهنك قبل التبادل لحظة اضطراب، وبعد التبادل تفاجئك لحظةٌ من الشّك. بعد التبادل تبدو حصّتي في يد الآخرين أكبر مما كانت عليه في يدي قبل مبادلتها، وتتضاءل في يدي تلك التي حصلت عليها. كيف أشاح الآخر بوجهه سريعاً، إنّ عينيه أفضل من عينيّ، لقد ربح من المبادلة. وأقرر المبادلة ثانيةً. لكن حال الآخر هي حالي، فهو يعتقد أنّي الذي ربحت من المبادلة، ويتكرر الشيء نفسه في المبادلة الثانية، حيث تصغر الحصّة من جديد حين تصبح في يدي. وهكذا أبحث عن ثالثٍ يبادلني، والآخرون يأكلون. عندما يمنحني الجوع صبره لبرهة أخرى، فإنني أقع في المبادلة الرابعة والخامسة أيضاً. وحين أصل حدّ اليأس، أحاول إرجاع مابادلته، لتعود حصتي الأولى في النهاية إليّ.

إن تبادل الخبز أمرٌ ضروري. يتم بسرعة ولا يصيب. الخبز يخونك كالإسمنت. وكما يصبح المرء مريضاً بالإسمنت، يستطيع هذا المرء أن يصاب بمرض مبادلة الخبز. إن مبادلة الخبز هي جعجعة المساء، إنها تجارة ومضةٌ للعين ورجفةٌ للأصابع. في الصباح اختبار مناقير ميزان الخبز وفي المساء اختبار العيون. لا يبحث المرء في عملية تبادل الخبز الحصّة المناسبة فقط، بل يبحث لنفسه عن الوجه المناسب أيضاً. حيث يختبر فتحة الأنف لدى الآخرين. ومن الأفضل أن تكون تلك الفتحة رفيعة وطويلة مثل قطعة من محِشّة. كما أنّه يختبرُ فروة الجوع في غضون خدودهم، هل الشعيرات البيض الناعمة على تلك التغضّنات طويلة وكثيفة بما يكفي، فقبل الموت جوعاً ينمو أرنبٌ في الوجه. ويفكر المرء أن تبادل

الخبز مع أمثال هذا الشخص مضيعة، حتى التقرب منه لم يعد مجدياً، لأن الأرنب الأبيض سيبلغ أشدّه في القريب العاجل. لذلك يُسمّي المرء الخبز الذي تم تبادله مع أولئك أصحاب الأرنب الأبيض، خبز الوجه.

ليس لدينا وقت عند الصباح، ولا يوجد أيضاً مايمكن تبادله. إذ تُرى حصص الخبز المقطوعة لتوّها كلّها متشابهة. وحتى يصير المساء تكون كلّ قطعةٍ منها قد جفّت وانكمشت على نفسها بشكل مختلف عن الحصّة الأخرى. كأن تصبح مستقيمة بزوايا أو محدّبة ولها كرش. من منظر هذا الجفاف يعتريك شعور أن خبزك يخونك. إنّه شعور الجميع بلا استثناء، حتّى ولولم يبادلوا. وعند التبادل يتم تهييج ذلك الشعور، لينتقل المرء من خدعة بصريّة إلى أخرى. وفي النهاية تبقى مخدوعاً، لكنّك تكون قد تعبت. يتوقف تبادل الخبز الشخصيّ إلى خبز الوجه كما يبدأ، هكذا فجأةً. تنتهي الضّجة وتتوجه العيون نحو الحساء، بيدٍ تحملُ خبزك وبالأخرى الملعقة.

يبدأ كلّ واحد في القطيع منفرداً، بمطّ حسائه. والملاعق هي أيضاً قطيع، وصحون التنك كذلك، ارتشاف الحساء حين تناوله وبقايا الأقدام تحت الطاولة هي كلها قطعان. الحساء يدفئُ لأنّه يحيا في الرقبة. أنا أرتشفه بصوت عالٍ، يجب عليّ أن أسمع حسائي. أغفل متعمّداً عدّ الملاعق، فالملاعق التي لم أعدّها صارت أكثر من ستّ عشرة أو حتى تسع عشرة، إنّ عليّ نسيان هذه الأرقام.

في أحد المساءات بادل لاعب الأكورديون كونراد فونّ مع كاتي البلانتونية. أعطته حصتها من الخبز، أما هو فأعطاها مقابل ذلك قطعة مربّعة من الخشب. وعضت عليها كاتي تريد قضمها، لكنها دهشت وبلعت ريقها على فراغ. لم يضحك أحد غيره، لاعب الأكورديون. عنده قام كارلي هالمن بأخذ صفيحة الخشب من يد كاتي البلانتونية وغطسها في صحن حساء لاعب الأكورديون، وأعاد لها قطعتها من الخبز.

كلٌ يتلمس طريقه إلى فخّ الخبز. ولكن لا يجوز لأحد أن يصنع من خبز وجه كاتي البلانتونية خبزه الشخصي. وهذا قانون من قوانين محكمة الخبز. لقد تعلمنا من المعسكر أن نخلي الموتى دون أن نقشعرّ أمامهم. نسحبهم من المكان قبل تيبُّس الجثة، فنحن بحاجةٍ

إلى ثيابهم كي لانتجمّد من البرد، كما أنّنا نأكل ماوفروه من خبز تحت مخدات أسرّتهم. بعد طلوع النفس الأخير يصبح الموت لنا غنيمة. ولكن كاتي البلانتونية تحيا، ولو أنها لا تعرف أين هي موجودة. نحن نعرف ذلك عنها ونعاملها كما لو أنّنا نملكها. فعليها نستطيع أن نصلح سوءنا . طالما أنّها تعيش بيننا، فإننا قادرون على فعل الكثير، لكن ليس على فعل كلّ شيء. وربما يُعتبرهذا الوضع أكثر قيمة من كاتي البلانتونية نفسها.

عن الفحم

الفحم كثير كالتراب، متوفرٌ أكثر من الحاجة إليه. يأتي **الفحم النفطي** من بيتروفكا[1]. وهو فحم مليء بالحجارة الرماديّة، ثقيل، مبلّل ولزق. رائحته حامضة تشبه رائحة الحريق، وقطعه مكوّنة من طبقات ورقيّة مثل الغرافيت. عندما تطحن في المولينا[2] وتغسل في المويكا[3] يتخلّف عنها الكثير من الكتل الحجرية عديمة النفع.

الفحم الكبريتي يأتي من كراماتورسك[4]، وغالباً مايصل في وقت الظهر. تحت الياما توجد صومعة الفحم، وهي عبارة عن ثقب كبير تحت الأرض محميٌّ من الأعلى بشبكة معدنية. تمرّ العربات واحدةً بعد أخرى على الشبكة. وهي عربات بحمولة ستّين طنّاً من ماركة بوللمان ولها خمسة أبواب، على بطنها في الأسفل مصاريع يمكن فتحها بميلان جزئيّ. وهي تفتح باستخدام مطرقة، حيث تضرب خمس مرات، وحين تفتح فجأةً يسمع صوتها وكأنّه إشارة بدء أفلام السينما. وإذا مافتحت فعلاً فلا حاجة بعدها للصعود إلى العربة، لأن الفحم يخرج دفعة واحدة. من شدّة الغبار تظلمُ الدنيا أمام عينيك، وترى الشمس قاتمةً مثل آنيةٍ من التنك في قبّة السماء. وحين تحاول التقاط أنفاسك يدخل جوفك من الغبار أكثر مما يدخل من الهواء، فتصرّ الأسنان بعضها على بعض. ولا يستغرق تفريغ الستين طناً من الفحم أكثر من ربع ساعة. لا يبقى حول فتحة الصومعة على أرض الياما إلا بعض القطع ذات السماكات الكبيرة. والفحم الكبريتي فحمٌ خفيف، هشّ وجاف، أشعته كريستاليّة لامعة، ويتكون من قطعٍ فحميّة وغبار. فهو لايحتوي على حبيبات. وقد اشتق اسم هذا الفحم من مادة الكبريت رغم انعدام رائحته.

وينقضي زمن طويل حتى يصادف المرء هذا الكبريت المستخلص من الفحم كرواسب صفراء في حُفَرٍ على أرض المصنع. أو أثناء الليل في ساحة أحجار البلوك، عندما تبرز لأكوام الردم عيون صفراء وتتوهج تلك العيون، كما لو كان القمرٌ مقطّعاً بداخلها.

1- بيتروفكا Petrovka: مدينة في شرق أوكرانيا.

2- مولينا Molina: أي مطحنة بالروسيّة.

3- مويكا Moika: مغسلة بالروسية.

4- كراماتورسك Kramatorsk: مدينة في شرق أوكرانيا.

الفحم من الماركة K يأتينا من منجم رودنييه، وهو قريبٌ منّا. وهذا الفحم ليس نفطياً ولا جافاً، لا حجرياً ولا رملياً ولا حبيبيّاً. ولكنّه كلّ ذلك في وقت واحد، لا يملك أيّة ميزة حسنة وشحيح في كلّ حالاته. والأكيد أن هذا الفحم مليء بالأنتراسيت، ولكنّه بلا طبع. ويقال إنّه أفضل أنواع الفحم. لم يكن فحم الأنتراسيت صديقاً لي في حياتي، لم يكن حتى صديقاً غليظاً. لقد كان فحماً غادراً، يصعب تفريغه، وكأنّ المرء يضرب برفشه في كبّة خيطان أو شبكةٍ من الجذور.

إن الياما مثلها مثلُ محطّة قطارات، نصفها مسقوف ونصفها الآخر مفتوح على الهواء. ريح قاصفة وجليد يعضّ. الأيام قصيرة وضوء كهرباء حتى في أوقات الظهيرة، وغبار الفحم يتداخل بغبار الثلج. أو ريح جانبيّة ومطر في الوجه وعبر السقف تتسّاقط عليك مزاريب الماء. أو حرّ محرق وأيام طويلة في الشمس والفحم حتى يغمى عليك. أثقل من تفريغ هذا الفحم كان اسمه. فحم الماركة K يتأتئه المرء فقط، إذ لايمكن الهمس به مثل الفحم الغازي[1]: هازوفيه[2].

إن **الفحم الغازي** فحم نشط. وهو يأتينا من يازينوفاتايا. يطلق قائد المعسكر على الفحم الغازي شبه هامسٍ **هازوفيه**. اسم له صدى أرنب جريح. لذلك كنت أحبّه. كنّا نجد ثمرات جوزٍ مع كلّ حمولة عربة تنقله ونجد البندق وحبّات الذرة والبازيللا. كانت المصاريع الخمسة في أسفل العربات تفتح بسهولة، وكما يقولون يكفي ضربها بقفازات اليد لترتدّ إلى الخلف وتفتح. خمس مرات يهدر هذا الهازوفيه، مرتاحاً بلونه البني الأردوازي، هو يأتيك وحده، دون أية حجارة.

بينما تراقب المنظر تفكّر في نفسك: إن الهازوفيه قلب ضعيف. لقد تم تفريغ الهازوفيه والغطاء الشبكي المعدني خالٍ من كلّ أثر، وكأن شيئاً لم يعبره. نحن نقف على الشبك المعدني. يجب أن تحوي الياما في أسفل بطنها سلاسل جبليةً وشعاباً من الفحم. هنا يملك الهازوفيه مستودعه أيضاً.

1- فحم غازي: وهو فحم حجري فيه نسبة كبيرة من الغازات المتطايرة.

2- هازوفيه Hasoweh: هنا مثل قولنا في العربية ياويلاه!.

وفي الرأس يوجد مستودع أيضاً. هواء الصّيف يرتجف فوق الياما، كما عهدته في الوطن، والسماء حريريَّةٌ كما عهدتها في الوطن. ولكنهم في الوطن لا يعرفون أنّي مازلت على قيد الحياة. في الوطن يأكل جدي الآن سلطته من الخيار على الشرفة معتقداً أنّي متُّ. أما جدتي فإنها تنادي الدجاجات بجرسها إلى مساحة ظّلٍ كبيرة مثل غرفة بجانب الخمّ، ترش لها علفها على الأرض وتفكّر أنّي متُّ. وأمي وأبي موجودون ربما على الفينش. أمي تستلقي وسط عشب طويل على بيدرٍ في سفح الجبل وتلبس طقم البحّارة الذي خاطته بنفسها، وتفكّر أنيّ صرت في السماء. وأنا لا أستطيع أن أهزّها وأقول لها: هل تحبينني، فأنا مازلت أحيا فعلاً. وأبي يجلس في المطبخ على الطاولة ويلقّم طلقات الباردوة خردقها، كراتٌ من الرصاص المقسّى لصيد الأرانب حين يحين الخريف الذي يقترب. هازوفيه.

كيف تنسحب الثواني

كنت في الصيد.

بعد أن راح كوبليان صدتُ برفشي أحد كلاب الأرضِ في البريّة، كان ذلك على أبواب ثاني خريف لي في المعسكر. صفرَ ذلك الكلب قليلاً مثل قطار. كيف تنسحبُ الثواني هاربةً حين ينقسم الجبينُ بشقٍّ مائلٍ فوق الفم. هازوفيه!

كنت أريد أن آكل.

هنا لايوجد إلا العشب. وبالعشب لا يستطيع الإنسان أن يعلّق شيئاً، وبالرفش لا يستطيع أن يسلخ جلداً. لم أملك الأداة ولا القلب. ولا حتى الوقت، فكوبليان كان قد أتى عائداً ورأى مافعلت. لذلك تركته ملقىً كما هو وكما تنسحبُ الثواني هاربةً حين يكون الجبين منقسماً بشقٍّ مائلٍ فوق الفم. هازوفيه.

أبي، لقد أردتَ مرةً أن تعلمني، كيف يصفر المرء مجيباً صفرةَ استغاثة شخصٍ ضلّ طريقه.

حول الرمل الأصفر

يمكن للرمل الأصفر أن يتلوّن بكلّ الظلالِ الواقعة بين صفرة عصفور الكناري وشقرة الهيدروجين، حتى إنّه يمكنه أن يحتوي على تشكيلات ورديّة. إنّه ناعم ويوجع القلب عندما يخلط برماد الإسمنت.

ولمرّة أخرى يقوم كوبليان بمرافقتنا، كارلي هالمن وأنا، في آخر المساء لجلب حمولة خاصّة من الرمل الأصفر، وقال: هذه المرة سنذهب إلى بيتي. أنا لا أقوم ببناء شيء، ولكن يوم العطلة في طريقه إلينا، نحن لنا ثقافتنا أيضاً.

مافهمناه، كارلي هالمن وأنا، أن الرمل الأصفر ثقافة. كان يستخدم الرمل الأصفر للزخرفة بعد حملتي التنظيف الربيعيّة والخريفيّة، حيث يُرشّ على طرق المشاة وأرض المعسكر وفي المصنع أيضاً. لقد كان زينة ربيع نهاية الحرب، وزينة خريف ثورة أكتوبر.

بتاريخ التاسع من أيار، مايو كان قد مرّ عام كاملٌ على معاهدة السلام. ولم ينفعنا ذلك أبداً وللمرة الثانية، لأننا كنا نقضي عامنا الثاني في المعسكر. وجاء أكتوبر أيضاً. وكانت زينة الربيع من الرمل الأصفر قد كنستها ريح الأيام الناشفة منذ زمن طويل ثم جاءت أمطارٌ جرفتها. أمّا الآن فقد عاد الرمل الأصفر جديداً، إنّه رمل زينة الخريف مفروشاً كبللورات من السكّر في أرض المعسكر. رمل الجَمال من أجل أكتوبر العظيم، ولكنهم لن يسمحوا لنا رغم هذا الجمال بالعودة إلى أوطاننا.

كم من الأطنان نقلنا من هذا الرمل، لكنّه لم يكن لخدمة الجمال، فقد افترسته مواقع البناء.

كانت محفرة الرّمل تسمى كاريرا. ولاتنضب، فطولها 300 متراً على الأقل وعمقها بين العشرين والثلاثين متراً، والرمل في كلّ مكان. ميدانٌ من الرمل في منجم رمليّ. كان يمكن للمنطقة مع كامل محيطها أن تأخذ رملاً منها. وكلّما استخرج رملٌ أكثر، كبُرَ ذلك الميدان، بل افترست الحفرة نفسها بنفسها باتجاه العمق.

الأذكياء، وتعني تشيتريي بالروسيّة، يدخلون سياراتهم في منحدر الرمل،

بحيث لا يحتاج المرء أن يرفش للأعلى وإنما بتكاسلٍ على نفس الارتفاع، أو أسهل، أي للأسفل.

كانت الكاريرا ساحرةً مثل بصمة إبهام القدم. رملٌ صافٍ، خالٍ من أيّة حبة تراب. طبقاتٌ من الرمل المستقيمة مسطّرةً بعضها فوق بعض أفقياً، تبدأ بالأبيض الشمعيّ ثمّ الباهت كالجلد والشاحب والفاقع والأمغر والورديّ. كانت باردةً ورطبة. وكان الرمل قطعاً مجعّدةً عند جرفه بالرفش، ليجفّ بينما يرفعه الرفش طائراً في الهواء. والرفش كما لو أنّه يتحرك من تلقاء نفسه، فتمتلئ السيارة بسرعة. هذا الرمل ينزلق عن ظهر الشاحنة القلاّب. انتظرنا، كارلي هالمن وأنا، في محفرة الرمل، حتى عاد كوبليان ثانيةً.

حتى كوبليان ترك نفسه يرتمي على الرمل وبقي مستلقياً هناك طالما نعبّىء الشاحنة. حتى إنه أغمض عينيه، وربما نام أيضاً. بعد أن تمتليء السيارة بالرمل، نقر بطرف الرفش بهدوءٍ على حذاء كوبليان، فينتفض واقفاً ثم يثب في الرمل مثل إنسان آليّ متجهاً إلى السيارة. وفي الرمل نرى آثار بصمة جسده، وكأن كوبليان كان مرتين هنا، مرةً مستلقياً في قالبٍ فارغ ومرةً واقفاً بجانب كبين السيارة بسرواله الرطب من خلف. بصق كوبليان مرتين في الرمل قبل أن يصعد إلى السيارة، ثم أخذ عجلة القيادة بإحدى يديه وبالأخرى فرك عينيه، ثمّ أقلع مسافراً.

والآن نترك، كارلي وأنا، أجسادنا ترتمي مستلقيةً على الرمل ونصغي كيف يخرّ هذا الرمل ويغطي الجسد. نحن لم نفعل شيئاً آخر، فوقنا انحنت السماء، وبين السماء والرمل رسمت ندبة العشب في الأفق من نفسها خطّ الصّفر. الوقت صامتٌ وناعم، في الأرجاء التي حولك تشهد سنا مكروسكوبيّاً أبيض. نأيٌ قصد الذهن وكأنّ المرء هنا هاربٌ من شيء وأن لكلّ واحد في كلّ بقعة في العالم رملاً هنا لا عملاً إجباريّاً.

هربٌ في وضعيّة الاستلقاء كان هذا. تركت عينيّ تدوران، كنت كمن فرّ تحت

خطّ الأفق دون أخطار أو عواقب. لقد سند الرمل ظهري من تحت والسماء حملت وجهي من الأعلى. مرّ بعض من الوقت وأصبحت السماء تَهْمي ثم سحبتها عيناي إليهما في الأسفل. امتلأت حجرتا العينين والجيب الجبهي بالسماء، وشيئاً فشيئاً صارت زرقاء هامدة. كنت مغطىً بالسماء ولا أحد يعرف أين أنا. حتى ولا الشوق إلى الوطن. في الرمل لا ترسل السماء الوقت في الحركة، لكنها هي أيضاً لا تستطيع أن تحركه إلى الوراء، كما هو حال الرمل الأصفر، فهو لم يستطع أن يغيّر معاهدة السلام، الثالثة ولا الرابعة. أيضاً وبعد معاهدة السلام الخامسة كنّا مازلنا في المعسكر.

كان كارلي هالمن مستلقياً ووجهه في حفرته، وكانت الندبات المندملة من أيام سرقة الخبز تلمع مثل خربشاتٍ من الشمع بين شعره القصير. وعبر محارة أذنه شعّ الحرير الأحمر لشريان الدم الصغير. وفجأة انتابتني مواعيدي العشقية في حديقة شجر البتولا وحمام نبتون مع ذلك الواحد بينهم، الذي كان عمره ضعف عمري، ذلك الروماني المتزوّج. كم طال انتظاره لي في إحدى المرات التي لم آتِ فيها إليه. وكم مرّةً كان عليه أن ينتظر، حتى فهم أخيراً أني لن آتي إليه اليوم ولا في المرّات القادمة بل وأبد الدهر. وأفكّر أن كوبليان لن يعود قبل نصف ساعة من الآن، وأرفع يدي، كنت أريد أن أتحسس كارلي هالمن. ولحسن الحظّ ساعدني كارلي للخروج من تلك الوسوسة.

رفع كارلي رأسه من الرمل وقد عضّ بفكيه في الرمل وأكل صارّاً الرمل بين أسنانه ثم ابتلعه. تخشبتُ، وأنا أراه يملأ فمه ثانية بالرمل. من وجنتيه سقطت حبات الرمل وهو يلوكه. كانت بصمات ذرات الرمل منخلاً على الوجنتين والمنخر والجبين. ورسمت دموعه على الوجنتين خطّاً بنيّاً فاقع اللون.

قال كارلي: عندما كنتُ صغيراً عضضتُ على دراقة ثم تركتها تسقط مع العضّة على الأرض. بعد ذلك رفعتها عن الأرض وأكلت منها المكان المتّسخ بالرمل فقط وتركت الباقي يسقط ثانيةً. ورفعتها ثانيةً عن الأرض أقضم منها المتسخ فيها وأرميها، ثالثة ورابعةً

حتى لم يبق منها في النهاية إلا اللبّ. في النتيجة أخذني أبي إلى الطبيب، لأنني لستُ طبيعياً، لأنّني أتلذذ بأكل الرمل. والآن أكلت من الرمل مايكفي، ولم أعد أعرف كيف هو شكل الدرّاقة.

قلت: أصفر بشعيرات ناعمة وبعض الحرير الأحمر حول اللبّ.

سمعنا السيارة قادمةً فنهضنا.

بدأ كارلي هالمن بالترفيش. عندما كان يملأ رفشه، كانت الدموع تسري ساقطةً باستقامة. وعندما يقذف هذا الرمل باتجاه السيّارة تسري الدمعات إلى اليسار داخلةً فمه وإلى اليمين لتدخل أذنه.

للروس أيضاً طُرقُهم

سافرنا، كارلي هالمن وأنا، ثانيةً باللانسيا عبر البادية. كانت كلاب الأرض تسير في كل الاتجاهات. وفي كلّ مكان آثار لعجلات سيارة، أجمات أعشاب مُداسة وملطخةً بالدم اليابس حمراء بنيّة. أنّى اتجهتَ ترى مواكب أسراب الذباب على ذلك الفرو المُداس بأحشاء بارزة. كثير منهم كان مايزال طرياً، يلمع بتجاعيد بيضاء مزرقة مثل كومة سلاسلَ صدفيّة. البعض الآخر كان أحمر مزرقاً ونصف متعفّن، أو أنّ الكلاب المعفوسة قد يبست وصارت مثل وردة جافة. في الطرف الآخر لطريق العجلات كانت كلاب الأرض التي صدمت وقذفت نحو الخارج، تبدو كأن العجلات لم تلمسها، بل هي تنام هادئة هناك. قال كارلي هالمن: تبدو كالمكواة وهي ميتة. رغم أنّ شكلها لايشبه المكواة ولم يشبهها أبداً. وكيف خطر له مثل هذا التشبيه، لقد نسيت تماماً تلك الكلمة.

مرّت أيامٌ كانت فيها كلاب الأرض أقلّ خوفاً أمام دواليب السيارة. ربما كان للريح صفير مشابه للذي تحدثه السيارة، وهكذا تضطربُ غرائز تلك الحيوانات. وعندما كانت الدواليب تأتي باتجاهها كانت تهرب مترنّحةً في حركتها لا خوفاً على حياتها. لقد كنت على يقين، أن كوبليان لم يجهد نفسه مرةً لتجنب تلك الكلاب. وأنا على يقين، بأنه لم يدهس في حياته واحداً منها، وأنّ أيّاً منها لم يصدر صرصرة تحت الدواليب، إذ لم يكن بالإمكان سماع ذلك الصفير العالي، لأن صفير اللانسيا كان أعلى.

ومع ذلك فإنني أعرف كيف يصفر كلب الأرض تحت السيارة، لأنني أسمع ذلك في الرأس كلّ مرّة أسافر فيها في البادية مع كوبليان. صفرةٌ قصيرة، تمزّق القلب، مكوّنةٌ من ثلاثة مقاطع متتالية كالتالي: ها زو فيه. تماماً كما تفعل عندما يضربها المرء بالرفش، فالقتل بالرفش كالدهس بالسيارة سريع الحدوث. وأنا أعرف أيضاً، كيف تُرعَب الأرض في ذلك المكان وترتعش مستديرةً، تماماً مثل حَجرة ثقيلة تسقط في الماء. أنا أعرف أيضاً، كيف تلتهب شفة هذا الحيوان بعدئذ وتحترق مباشرة، لأنّه يعضّ عليها، إذا أصيب بقوة الضربة الأولى لشخص ما. منذ أن تركته مقتولاً، أحاول أن أوهم نفسي، أنّ كلاب الأرض لاتؤكل، حتى إن المرء لايملك أثراً من شفقة على الأحياء حوله ولايملك ذرّة من التقززِ أمام

الموتى. لو كان لديّ من تلك الشفقة وذلك التقزّز شيء، لما استطاعت شفقتي وتقززي أن يعبأا بتلك الكلاب، وإنما كان الأحرى بهما أن يعبأا بي أنا، ولكان تقززي ناتجاً فقط من ترددي بصدد تلك الشفقة وليس بسبب كلب أرض ميت.

لكن لوملكنا، كارلي وأنا، وقتاً في المرة القادمة، سنستطيع النزول من الشاحنة، بينما يكون كوبليان قد ملأ أكياسه الثلاثة أو الأربعة بالعشب الطري لعنزاته، فقط لو استطعنا امتلاك وقت بهذا القدر. أنا أعتقد أن كارلي هالمن لن يتعاون لأنني سأكون شريكه. سيكون عليّ التضحيةَ ببعض الوقت لأكلّمه بالحسنى، حتى يوشك الوقت أن يتأخّر. لو صار لدينا وقت في المرة القادمة. لست مضطراً أن تخجل من كلب الأرض، بل ولا أمام البادية. أنا أعتقد أن كارلي سيخجل عندئذٍ من نفسه وأمام نفسه، سيخجل وبكلّ الحالات أكثر من خجلي أنا أمام نفسي. وأكثر من خجلي أمام كوبليان. كان عليّ أن أسأله، كيف يجعل من كوبليان مقياساً. أنا متأكد، أنّ كوبليان سيأكل من لحم كلاب الأرض هذه، لو ابتعد كثيراً عن وطنه كما هي حالنا الآن. هذا ماأشعر أن عليّ الآن قوله.

لم تكن بعض أيامنا أكثر من أجمات عشبٍ مُداسة وملطّخة بالرمادي في البادية، حدث هذا بين عشيّة وضحاها. أما الغيوم فقد ذابت كلّها ولم يبق إلا طيور الكراكيّ الضامرة في السماء والذباب الأزرق السمين الوحشيّ على الأرض. فنحن ماعدنا نجد كلباً واحداً ميتاً في العشب.

أين اختفوا!، يمكن أن يُسأل كارلي. انظر، الروس، لماذا يسير هذا الجمع على قدميه في بريّة هذه البادية؟ ولماذا ينحنون، ثم يجلسون بعض الوقت؟ هل تعتقد أنّهم يستريحون؟ هل يتعب الجميع دفعةً واحدةً؟ هم يملكون أيضاً مثل هذا العشّ في الرأس كما نملك، ولهم نفس البطن الفارغ مثلنا. للروس طرقهم أيضاً، ويملكون من الوقت أكثر مما نملك نحن، والبادية وطنهم. ليس لدى كوبليان أيّ اعتراض على ذلك. لماذا يأخذ معه دائماً في كابينة السيارة إلى جانب دعسة المكابح رفشاً قصيراً، فهو ينتف العشب بيديه. وعندما لانكون معه، لا يغادر السيارة فقط لجمع العشب للعنزات، يمكنني أن أقول هذا لكارلي وليس بي حاجة للكذب، لأنني لا أعرف الحقيقة أبداً. حتى لو عرفت، لما عرفت إلا الحقيقة الأولى

فقط، والثانية هي نقيض هذه الأولى. سأقول له، انظر إلينا، أنت وأنا، نحن لسنا نفسنا مع كوبليان ومن غير كوبليان، أنا من غيرك غير أنا الذي معك. أنت وحدك الذي تتوهم، أنك لاتتغير مطلقاً. عندما سرقت الخبز كنت بالطبع شخصاً آخر، وأنا كنت مرةً شخصاً آخر والآخرون جميعاً أيضاً – لكني لن أبوح بهذا أبداً، لأنه سيكون اتّهاماً.

للفرو رائحة نَتِنة حين يحترق. أنا أسلخ الجلد عن اللحم، أشَعلْ أنت النار بسرعة، كنت سأقول، لو شاركني كارلي هالمن آخر الأمر.

لقد كنّا، كارلي هالمن وأنا، نسافر دائماً مع كوبليان بالسيارة عبر البادية. فبعد أسبوع واحدٍ فقط عدنا واعتلينا شاحنة اللانسيا. كان الهواء يومئذٍ ممتقعاً، والعشب برتقالياً، والشمس دارت بالبادية في أواخر ذلك الخريف.

كانت كلاب الأرض المَدْهوسة قد رشّت بالسّكر لتنضجَ من أجل ذلك اللّيل. تجاوزنا أحد العجائز، لقد توقف وسط عاصفة الغبار ولوّح لنا برفشٍ في يده. عصا الرفش كانت قصيرة. على كتفه علّق كيساً، لم يكن ممتلئاً إلى أكثر من ربعه، لكنّه كان يبدو ثقيلاً. قال كارلي: هو لا يحمل عشباً. إذا حصلنا على الوقت اللازم في المرّة القادمة، وإذا كان بإمكاننا أن نغادر السيارة! لن يعارض كوبليان، ولكنّك أنت الذي يريد أن يكون رقيق المشاعر، أنت لن تشارك في ذلك أبداً. لم يكن قول الناس، الجوع أعمى، جزافاً. أكثر أوقاتنا قضيناها معاً أنا وكارلي هالمن، ورغم ذلك لم نكن نعرف الكثير عن بعضنا. أما كوبليان، فلم يكن يعرف عنّا شيئاً، ونحن كذلك، لا نعرف عنه شيئاً. لقد كنا جميعاً مختلفين، عمّا نحن حقّاً.

عن الصنوبرات

قبل أعياد الميلاد بفترة قصيرة جلست إلى جانب كوبليان في كابينة السيارة. كانت الدنيا قد أظلمت، ومع ذلك فقد قمنا بسفرةٍ غير نظاميّة إلى أخيه، كانت مهمّتنا تحميل الفحم.

في الطريق بدأت مدينة صغيرة بالظهور من خلال محطة القطار الخربة وشوارعها المرصوفة بالأحجار. انعطفنا في شارع فرعيّ معوجّ ووعر. كانت السماء منارةً في أحد قطّاعاتها. خلف سياج من الحديد الصبّ انتصبت أشجار صنوبر - رفيعة سوداء كالليل ومحدّبة، كانت تبدو مرتفعةً بوضوح فوق كلّ ماحولها. بعدها بثلاثة بيوتٍ توقف كوبليان. وحين بدأت بتفريغ الحمولة أشار بيدٍ فاترةٍ ما أراد قوله: على مهل، لدينا وقت. ودخل إلى منزلٍ أغلب الظنّ أبيض، لكنّه اصفرّ بتأثير ضوء السيارة.

وضعتُ المعطف على سقف كابين السيارة وصرت أرفش بأبطأ مايمكن. كان سيدي وقد حدّد لي الوقت مسبقاً، وكان عليّ أن أُلبّي، بعدئذٍ صار فخوراً بي. منذ سنواتٍ والترفيش هو البقيّة الباقيّة من فخري. فرغت السيّارة بسرعة وكوبليان مازال عند أخيه في منزله.

تنضج الخطّة أحياناً ببطء، لكن البطء يثيرك أحياناً، إذا اضطررت لاتخاذ قرار فجائي. وقبل أن تأخذ هذا القرار على عهدتك، تبعد عنك تلك الفجائيّة. شمّرت كمّي المعطف، وقلت لنفسي: إنّ السارق يُحبس، عندئذٍ فقط أسرعت قدماي أكثر باتجاه الصنوبرات.

لم يكن باب الحديقة الشبكيّ مقفلاً، لقد كانت حديقة مهملة بالتأكيد أو مقبرة. كسّرت كلّ الأغصان السفلى للصنوبرات، ثمّ خلعت المعطف ولففتُ الأغصان به. تركت الباب مفتوحاً وأسرعت عائداً إلى بيت أخ كوبليان. الآن صارت بقجة الأغصان رابضة هنا تترصّد، بيضاء في ظلمةٍ حالكة، فقد كانت أضواء السيارة قد انطفأت وكوبليان قام بربطها بملاقط الشحن. صرّة أغصاني فاحت برائحة الصمغ، كما كانت رائحة الخوف حادة أيضاً، عندما قذفتها من فوق رأسي إلى السيارة. جلس كوبليان في كابينة الشاحنة تفوح منه رائحة الفودكا. اليوم أقول هذا، رغم أنّي فكرت بذلك أيام زمان، إنّ رائحته

فودكا. كوبليان ليس سكيراً، هو يشرب الفودكا فقط عندما يتناول طعاماً دسما، قلت في نفسي: لقد كان يمكنه أن يفكر بي قليلاً.

عندما تعود متأخراً بهذا الشكل، فلا يمكنك التّكهن بما قد يحدث لك على باب المعسكر الرئيس. عوت ثلاثة كلاب. والعسكري المناوب لكز صرّة أغصاني التي بين ذراعي بسبطانة بارودته، حيث وقعت الصرة على الأرض وانفتح المعطف المينيّ المزين برباطات الحرير تحت الأغصان. شمشمت الكلاب الأغصان ثم تركتها مركّزة اهتمامها على المعطف وحده. وقام أقوى كلبٍ بينها، ربما كان الكلب القائد، بسحب المعطف بفمه مثل جثّة وجال به نصف الساحة حتى وصل إلى ساحة اجتماع ترديد الشعار. ركضت وراءه واستطعت إنقاذ المعطف في اللحظة الأخيرة، استطعت إنقاذه فقط لأنه كان قد تركه بإرادته.

بعد يومين مرّ موزّع الخبز جارّاً عربته بجانبي. وعلى الملاءة البيضاء استلقت مكنسةٌ جديدة مكوّنة من عصا رفش ربطت عليها أغصاني الصنوبرية. بعد ثلاثة أيام حلّ عيد الميلاد – كلمة تنصب بذاتها شجرات الصنوبر الخضراء في البيوت. أنا لا أملك في حقيبتي إلا قفازاتي الصوفية الخضراء الممزقة التي أعطتنيها عمتي فيني.

منذ أسبوعين يعمل المحامي باول غاست ميكانيكياً في أحد المعامل. طلبت منه أن يجلب لي سلكاً معدنياً، فجلب لي ربطةً من قطع الأشرطة المقصوصة، كان كلّ واحدٍ فيها بطول ذراع اليد. كانت مربوطةً بعضها مع بعض بأحد طرفيها مثل هدب العين. بنيتُ شجرةً من الأسلاك ثم لبست قفازاتي وربطتُ على الأغصان خيطاناً صوفيةً كثيفةً مثل أبر. انتصبت شجرة عيد الميلاد على الطاولة الصغيرة تحت ساعة الوقواق. حيث قام المحامي باول غاست بتعليق كرتين من الخبز الأسمر عليها. من أين له هذا الاحتياط من الخبز لتزيين الشجرة، لم أطرح هذا السؤال على نفسي يومها، لأنني كنتُ متأكداً، أنّه سيأكل كرتي الخبز في اليوم الثاني، ولأنّه أثناء عجنه للكرتين كان يتحدث عن الوطن.

كان إكليل عيد البشارة في المدرسة الثانوية عندنا في أوبِرفيشاو[1] يعلّق فوق منصّة

1– أوبِرفيشاو Oberwischau: مدينة في شمال رومانيا.

المعلم ويشعَل كلّ صباح قبل بدء الساعة الدراسيّة الأولى. أضاء احتراق الشمعات ساعة الجيولوجيا، التي كان أستاذها كامل الصلعة واسمه ليونيدا. كانت الشمعات تشتعل ونحن نغني، أوه ياشجرة التنوب، أوه ياشجرة التنوب، ما أغزر خضرة أوراقك. لم نكمل غناء الكلمة الأخيرة إلا وسمعنا ليونيدا يصرخ: أَوْ، فتوقفنا عن الغناء فوراً. لقد سال الشمع المحترق وسقط ملوناً صلعته بالوردي. صرخ ليونيدا، أطفئوا الشمعات، ثمّ قفز يتلمس مسند كرسيّه ساحباً من جيب سترته سكيناً قابلةً للطيّ مصنوعة من الصفيح، على شكل سمكة فضيّة.

صاح ليونيدا : تعال إلى هنا، وفتح السكين، وانحنى أمامي عارضاً صلعته، فأخذت السكين، ورحت أحكّ بها الشمع عن صلعته. أنا لم أجرحه، لكني وبعد عودتي وجلوسي على مقعدي، اتجه صوبي ليونيدا متجهم الوجه غاضباً وصفعني على وجهي. وحين رفعت يديّ لمسح دموعي المتساقطة على وجنتي صرخ ليونيدا، ضع يديك خلف ظهرك.

عشرة روبلات

استطاعت بيا تسكل أن تحصل لي من تور بريكوليتش على بروبوسك، أي بطاقة خروج إلى السوق. لا يجوز أن تتحدث لجوعان عن أملٍ يلوح وعن إمكانيتك على التّحرّك بحريّة. أنا لم أخبر أحداً بذلك. أخذت معي مخدّتي ومشدات السّاق الجلدية[1] التي كنت قد حصلت عليها قبل مجيئي إلى المعسكر من السيّد كارب. كانت مرّة ككلّ المرّات: مناورة لتبادل الحُريرات. في الساعة الحادية عشرة كنت على الطريق، أو بالأحرى كنّا على الطريق، جوعي وأنا.

كانت الدنيا مازالت مبللّة من مطر الليل. تجار وقفوا في الوحل يعرضون براغي ومسننات للبيع، ونساء جفّ عودهنّ يبعن أدوات طبخٍ تنكيّة وكومات صغيرةً من دهان جدران المنازل، وما حولها حفر ازرقّ ماؤها من تسرّبات الدهان. إلى جانبها انفرشت أكوامٌ من السكر والملح وخوخ يابس وطحين الذرة الصفراء والبيضاء والقمح والبازيللا. تورتة ذرة مع سكّر الشمندر موضوعة على ورقات الفجل الخضراء، ونساء بلا أسنان يبعن العيران في علبٍ من الصفيح وشابٌ برجلٍ واحدة يتعكّز على عصا ومعه سطل مليء بماء ثمر العليق الأحمر. باعة جوالون نشطون يتحركون في كلّ مكان يعرضون سكاكين معوجّة وشوَك وصنارات صيد السمك، وفي علب كونسروة أمريكية انطلقت سمكات صغيرات فضيّة مثل دبابيس مشبكٍ حيّة.

بمشدات السّاق الجلديّة على ذراعي اندفعتُ داخلاً في تلك الزحمة. وأمام عجوز يرتدي زيّاً عسكريّاً وفي رأسه ثقوبٌ قَرَع وعلى صدره عشراتٌ من نياشين الحرب استلقى كتابان، واحد حول بركان بوبوكاتل في المكسيك وواحد ببرغوثين سمينين على الجلد.

قمت بتقليب صفحات كتاب البراغيث، لأنه كان مليئاً بالصور. برغوثان على أرجوحة، إلى جانبهما يد مدرب سيرك ممسك بكرباجٍ صغير، برغوث على مسند كرسيّ هزاز، برغوث مربوط أمام عربة عرس تتألّف من نصفي قشرة جوزة، صدر صبيّ

1– مشدات جلدية Ledergamaschen: وهي عبارة عن جوارب بلا قدم تلبس على قصبة الساق فوق الحذاء وحتى الركبة وتربط بربّاطات.

ببرغوثين بين حلمتي الثديين وبالتناظر حتى أسفل السرّة سلسلتان متساويتا الطول من عضّات البراغيث.

أخذ صاحب الزيّ العسكري مشدّات الجلد الطويلة من فوق ذراعي متفحصاً إياها أمام صدره ثم على كتفيه. أشرت له بأنّها تستخدم للأرجل. فضحك ضحكةً غبيّة ملء جوفه، كالتي يطلقها أحياناً تور بريكوليتش أثناء ترديد الشعار، أي كما تنبح الدّيكة الروميّة، حيث بقيت شفته العليا معلقة على قرمةٍ باقيةٍ من أحد أسنانه. جاء إلينا البائع الجار وقام بحكّ رباطات المشدّات الجلدية بين أصابعه. ثم جاء بيّاع سكاكين، دسّ بضاعته في جيب سترته وأخذ المشدّات ووضعها على طرفي حوضه واحدة يساراً والأخرى يميناً، ثم بدّل أماكنها ووضعها على إليتيه وصار يثب بالمشدات مثل المعتوه. أما الرجل ذو الزيّ العسكري أبو قرمة السّن فقد قام بمرافقة وثبات ذلك المعتوه بضرطاتٍ فرقعها بفمه. بعدئذٍ جاء واحد برقبة معصوبة بقماط وبيده عكاز، كان مكان استناد يديه على العكاز عبارة عن محشّة مكسورة ملفوفة بخرقة. دسّ العكاز في أحد المشدّين وقذف به في الهواء. ركضت ورفعته، أما فردة المشدّ الثانية فقد طارت على مسافة قصيرة من الأولى ووقعت هناك، وعندما انحنيت لألتقطها، وجدت بجانبها قطعة نقود ورقيّة مجعّدة في الوحل. لقد أضاعها أحد ما، أرجو أن لا يكون قد افتقدها حتى هذه اللحظة، قلت بيني وبين نفسي.

ربما يبحث عنها الآن، أو ربّما كان واحداً من الشلّة التي مزحت معي وحقّرتني قبل لحظات، أو واحد رآني في لحظة التقاطي للنقود حين انحنيت، وهو يراقب الآن ماذا سأفعل. كانت الشّلة ماتزال تضحك عليّ وعلى مشداتي الجلديّة، أما النقود فقد صارت الآن في قبضتي.

كان عليّ أن أختفي بسرعة، وهكذا اندسست في الزحمة. ضغطتُ المشدات تحت ذراعي ومسّحت على ورقة النقود لتسويتها من تجاعيدها، لقد كانت ورقة من فئة العشرة روبلات. عشرة روبلات كانت ثروة في ذلك الزمن. لا تعدّ النقود، كُلْ فقط، قلت

في نفسي، أما الذي لا أستطيع أن آكله فإنّه يذهب إلى كيس المخدّة. لم يعد لدي وقت للمشدّات الجلديّة، تلك البضاعة الموجعة الآتية من كوكبٍ آخر جعلتني مَلفتَ الأنظار. تركتهما يسقطان من تحت إبطي على الأرض وأسرعت بروبلاتي العشرة مثل السمكات الفضيّة في اتجاه آخر.

كانت رقبتي تنبض، وأنا أسبح في عرق الخوف. اشتريت بروبلين كوبين من ماء ثمر العليق الأحمر وشربتهما دفعة واحدة. ثم اشتريت تورتتي ذرة مع مهروسة شوندر سكّري، وأكلت معها أوراق الفجل الخضراء أيضاً. كانت أوراق الفجل مرّةً، وهي مفيدة كدواء للمعدة بالتأكيد. ثم اشتريت بعد ذلك فطيرتي زلابيّة روسيتين محشوتين بالجبنة. وضعت اثنتين في المخدة وأكلت اثنتين، ثمّ شربت إبريقاً من العيران المكثّف. ثمّ اشتريت قطعتين من كاتّو عباد الشمس وأكلت الاثنتين. وبعدئذٍ رأيت الصبيّ ذا الرجل الواحدة واشتريت منه كوباً من ماء ثمر العليق الأحمر وشربته أيضاً. ثمّ قمت بعدّ نقودي، كان كلّ مابقي معي روبلاً وستة كوبيكات، وهي لا تكفي لشراء السكّر، ولا حتى الملح. أثناء عدّي للنقود حملقت فيّ المرأة صاحبة الخوخ الميبّس بعينٍ بنيّة وأخرى شديدة البياض وبلا حدقة مثل حبّة فاصولياء.

أريتها النقود التي في يدي. أبعدت النقود عنها و قالت كلاّ ثم لوحت بذراعيها رافضةً كما يبعد المرء الذباب بقرف عن جسده. بقيتُ ثابتاً في أرضي باسطاً نقودي أمام ناظريها. صار جسمي يرتعش، صلّبت على صدري وبدأت أتمتم كما لو أنّي أصلّي: أبانا الذي في السماء، ساعدني أمام هذه السلحفاة الملعونة الظالمة. أرسلها في طريق الضّلال ياربي وأنقذني من هذا الشرّ. وانا أتمتم فكرت بقداسة فينيا الباردة، ثم تفوهتُ في نهاية التمتمة بكلمة آمين قاسيةً وواضحة، كي يأخذ دعائي شكله اللائق. تأثرت المرأة بسلوكي وثبتت عينها التي تشبه حبّة الفاصولياء عليّ، وأخذت منّي النقود وملأت لي قبعةً قوزاقيّة خضراء اللون بحبات الخوخ اليابسة. أفرغت النصف في مخدّتي والباقي في قبعتي القطنية، كي آكلها فوراً. وعندما انتهيت من أكل ما في قبعتي، أكلت فطائر الزلابية الباقية في المخدة. ماعدا بقية الخوخ اليابس لم يبق شيء في المخدة.

هبت الريح ساخنةً عبر شجر الأكاسيا، جفّ الوحل وتقشّر في حفره مثل أكوابٍ رمادية. على الطريق الترابي قرب الشارع المؤدي إلى المعسكر كانت عنزة تتحرك دائرة حول نفسها. كانت رقبتها محكوكة من كثرة الشد على الحبل المربوط حول عنقها. من كثرة مالفّ حول الوتد صارت لا تستطيع الوصول إلى العشب. كانت نظرتها مثل نظرة بيا تساكل متطاولة خضراء ومنزلقة، ومثل نظرة فينيا مليئة بالعذاب. كانت العنزة تريد أن تلحق بي، حيث خطرت على بالي العنزات المزرقّات الجافّات اليُبْس، اللواتي شطرهن القصّاب طولياً وحصلنا عليهن أيام سوقنا إلى المعسكر في عربة نقل الحيوانات وكيف قمنا بحرقهنّ. كنت قد وصلت إلى منتصف طريق عودتي تقريبا، وقد أصبح الوقت متأخراً، والمشكلة التي تنتظرني على باب المعسكر كانت وجود الخوخ اليابس في حوزتي، ولكي أنقذهن من الحرس، أخذت الخوخات من المخدة وأكلتهن.

كنت ترى عبر شجرات الحور خلف القرية الروسيّة برج التبريد التابع لمعمل المعسكر. كانت الشمس قد أصبحت رباعية الشكل فوق غيمته البيضاء واندست داخلةً في فمي. أصبح حلقي شبه مسدودٍ بحائط، لهجتُ بحثاً عن الهواء. وخزتني معدتي وأمعائي انتفضت ودارت في بطني مثل خنجرٍ ملويّ. جحظت عيناي وبدأ برج التبريد يدور فيهما. استندت على جذع شجرة توت، وقد بدأت الأرض تدور تحتها. شاحنة بدأت تخّر قادمةً على الشارع. وعلى طريق المشاة بدأت ثلاثة كلاب شاردة تسبح متداخلة بعضها في بعض أفرغت مافي جوفي على جذع الشجرة، وقد آلمني أن يذهب كل ذلك الطعام الغالي سدىً وبكيت.

خرج كلّ الذي أكلته وسقط يتلألأ هنا على جذع شجرة التوت، كلّه كلّه كلّه.

أسندتُ رأسي على جذع الشجرة ناظراً في ذلك البريق المفروم، وكأني أستطيع التهامه ثانيةً. ذهبت تحت أولّ برجِ حراسة في ريح كانت فارغة وبكيس مخدة فارغ ومعدة فارغة. نفسي كما كنت قبلاً، ولكن دون مشدات الجلد. مشدات الجلد! كان الحارس يبصق قشور بذر عباد الشمس من أعلى برجه لتسقط مجدّفةً بأشرعتها في الهواء وكأنها تطير. كان الفراغ الداخليّ أمرّ من العلقم، لقد كنت في وضعٍ سيء. ولكن وبعد بضعة

خطواتٍ على أرض المعسكر تساءلتُ بيني وبين نفسي إذا كنت سأجد قليلاً من حساء الأعشاب في الكانتينه. كانت الكانتينه قد أغلقت أبوابها. وعلى إيقاع حذائيّ الخشبيين قلت لنفسي:

توجد فعلاً شيخةٌ وعلى رأسها غيمتها البيضاء. رفشي موجود ويوجد لي مكان أكيد في البراكة كالفجوة الأكيدة بين جوع وموت. عليّ إيجاد هذه الفجوة، لأن الأكل أقوى منّي.

تفكّر قدسية فينيا الباردة بشكلٍ صحيح رغم فالجها. إنّها عادلة وتعطيني حصّتي من الخبز. لماذا الذهاب إلى السوق إذن، فالمعسكر يحجزني من أجل مصلحتي. في السوق، المكان الذي لا أنتمي إليه، لست أكثر من مضحكة للناس. في المعسكر أكون في بيتي، لقد تعرّف عليّ الحارس اليوم قبل الظهر وأشار لي بالدخول عبر الباب الرئيس، وكلبه بقي مستلقياً على بلاط الشارع الدافئ، فهو يعرفني أيضاً. وساحة اجتماع ترديد الشعار تعرفني، وأجد الطريق إلى براكتي حتى بعينين مغمضتين. أنا لا أحتاج إلى إذن خروج، فالمعسكر لي وأنا للمعسكر. أنا لا أحتاج إلا إلى هيكل سرير وخبز فينيا وصحني التنكي. أنا لا أحتاج حتى إلى ليو أوبيرغ.

حول ملاك الجوع

إنّ الجوع شيء.

الملاك صعد إلى المخّ.

ملاك الجوع لا يفكّر. هو يفكّر بشكل صحيح.

هو لا يغيب أبداً.

هو يعرف حدودي ويعلم اتجاهه. يعلم منبتي ويعرف تأثيره.

لقد عرف هذا قبل أن يلتقي بي، ويعرف مستقبلي.

هو معلّق كالزئبق في كلّ السحّاحات. إنه حلاوةٌ في الحلق. هناك حيث ضغط الهواء يَعْصر المعدة وقفص الصدر. هناك حيث يكون الخوف كبيراً.

كلّ شيء أصبح خفيفاً.

يسير ملاك الجوع وبعين مفتوحة متحيّزاً. إنّه يترنح في دوائر ضيّقةٍ ويتوازن على أرجوحة النفس. هو يعرف الحنين إلى الوطن في المخّ ويتعرف على الأزقّة في الهواء.

إلى جهة غير مألوفة يسير ملاك الهواء بجوعه المفتوح.

هو يهمس لنفسه ويهمس لي في أذني: حيث يتمّ التحميل، يمكن التفريغ أيضاً. إنّه من نفس اللحم الذي يخونه، والذي يريد أن يُخان.

هو يعرف الخبز الشخصي ويعرف خبز الوجه ويرسل الأرنب الأبيض لتنفيذ مهمّته.

هو يقول: إنّه سيعود، لكنه يبقى حيث هو.

عندما يأتي، فإنه يأتي قوياً.

الوضوح كبير:

ضربة رفش واحدة = غرام خبز واحد

إنّ الجوع شيءٌ موضوعيّ.

الأسرار اللاتينيّة

بعد التهام طعام الكانتينه نزيح طاولات الخشب الطويلة ومقاعد الجلوس إلى الحائط، حيث يسمح لنا بين حين وآخر في أيّام السبت بالرقص حتى الساعة الثانية عشرة إلا الربع ليلاً. بعدئذٍ نقوم بإعادة كلّ شيء إلى مكانه. في منتصف الليل تماماً يبثّ النشيد الوطنيّ الروسي عبر مكبرات الصوت في أرض المعسكر، بعد ذلك يجب على كلّ واحدٍ منّا أن يكون في براكته. يملك الحراس مزاجاً جيداً أيام السبت، لأنهم يتناولون في ذلك اليوم الكثير من براندي الشوندر السكّري، ليصبح انفلات طلقة طائشة أمراً سهلاً جداً. وإذا ما أصابت هذه الطلقة واحداً منّا وألقته نائماً في فناء البراكة حتى صباح يوم الأحد، فإنّهم يبررون ذلك بمحاولة هرب. فلا يقبل عذر من خانته أمعاؤه التي انتفخت ولم تعد قادرة على هضم حساء الأعشاب، وقد اضطر ليلاً للركض بسرواله الداخلي عبر أرض الديار إلى المرحاض. ومع ذلك فقد سرقنا بين حين وآخر رقصة تانغو في أيام سبت الكانتينه. عندما يرقص المرء، فإنه يحيا على أطراف أصابعه مثل مادونا الهلالية في قهوة مارتيني، في العالم الذي أتينا منه. حيث قاعات الرقص المزدانة بأكاليل من ورق الزينة والفوانيس الورقية، بلباس السهرة والبروشات والكرافيتات ومحارم جيب الصدر وأزرار كمّ القميص. أميّ بخصلات شعرها اللولبيّة على الوجنة وقصّة شعرها المجدّلة والمعقودة خلف الرأس أو أعلاه مثل سلةٍ من السّلق. أمي هذه ترقص بصنادل بنيّة فاتحة ذات كعبٍ عالٍ ورباطات على الرسغ مثل قشرة إجاصة. كانت تلبس فستاناً أخضر من حرير الأطلس، وتماماً على القلب تضع بروشاً يحمل أربع أحجار زمرّد، إنّه برسيم الحظّ. أما والدي فإنه يلبس البدلةَ الرماديّة مثل الرمل، وفي جيب الصدر منديله الأبيض وقرنفلة بيضاء في ثقب الزّر.

أما أنا فإنني أرقص كعامل في معسكر عملٍ إجباريّ وأرتدي قملاً في البوفايكا وقماطاً على الأقدام النتنة في خفيّ الغوما، ويدوّخني تذكّر قاعة الرقص في الوطن وفراغ المعدة. أنا أرقص مع واحدةٍ من الفتاتين اللتين تحملان اسم تسيرّي، أرقص مع تسيرّي كاونتس، تسيرّي التي تحمل شعيراتٍ حريريّة على يديها. أما الأخرى ذات الثؤلولة الكبيرة بحجم حبّة الزيتون تحت البنصر فاسمها تسيرّي فاندشنايدر. لقد أكدت لي تسيرّي كاونتس أثناء

الرقص، أنها من كاستِن هولتس، وليس من فورم لوخ، مدينة تسيرّي الأخرى. وأن أمّها نشأت في أجنيتيلِن، وأن أباها قد نشأ في فولكِن دورف. وأن والديها، انتقلا إلى كاستِن هولتس قبل أن يلداها، لأن أباها اشترى هناك كرم عنبٍ كبيراً. أقول لها: توجد قرية اسمها ليبلينغ[1]، أي الحبيب، وأخرى اسمها غروس شام[2]، أي الخجل العظيم، وهي موجودة في إقليم بانات وليس في زيبِن بورغِن. اسم الإقليم بانات لا يعني لي شيئاً، تقول تسيرّي، فأنا لا أعرف شيئاً هناك. وأنا مثلك، أقول لها وأدور حول تسيرّي بالبوفايكا التي كانت تعتصر من العرق، وبوفايكا تسيرّي العَرْقى تدور حولي أيضاً. الكانتينه كلّها تدور. لم يكن هناك مايمكن فهمه، عندما يدور كل شيء بعيد. ليس عليك أن تفهم حتّى بيوت الخشب خلف المعسكر، أقول أنا، والتي يسمونها بيوتاً فنلندية، رغم أنها مسكونة من أوكرانيين روس. بعد الاستراحة تأتي رقصة التانغو، وأرقص مع تسيرّي الأخرى. كانت مغنيّتنا لوني مِش تقف على بعد نصف خطوة أمام الموسيقيين. وعندما تعزف البالوما فإنها تتقدم نصف خطوة إضافيةٍ إلى الأمام، لأنها تريد أن تكون الأغنية كلّها لها. حيث تتيبس يداها ورجلاها وتدع عينيها تدوران، والرأس يترنح، لباس رأسها يرتجف، صوتها يصبح خشناً مثل ارتشاف الماء من جرنٍ عميق.

بسرعة تغرق السفينة

مبكّرة أو متأخرة

ستدقّ ساعة كلٍّ منّا

وستأتي لحظة على البحارة نقول فيها: أوهيه

لقد انتهى كل شيء

وسيأخذنا البحر مرّةً

ثمّ لا يعيد هذا البحر

أيّ واحد منّا.

1- ليلينغ Liebling: وتعني الحبيب، إلى جانب كونها مدينة رومانية.

2- غروس شام Grossscham: ومعناها خجل كبير إلى جانب كونها مدينة رومانيّة.

الكلّ يصمت أثناء رقص بالوما بفساتين البيليسّيه. حين يصبح المرء عاجزاً عن الكلام ويفكرُ بما عليه فعله، حتى لولم يرد ذلك. كلّ يدفع للأمام شوقه لوطنه وكأنّه صندوق ثقيل. تجرّ تسيرّي قدميها شاحذة الأرض، بينما أضغط لها يدها على خصرها، حتى تعود لإيقاع اللحن. منذ برهة وهي تديرُ رأسها بعيداً عني، حتى لا أرى وجهها. ظهرها يرتعش، أنا أحسّ بها كيف تبكي. نشيج بكائها عالٍ بما فيه الكفاية، أنا لا أقول شيئاً. وماذا أستطيع أن أقول، غير أنّ عليها ألا تبكي.

ولأنّ المرء لا يستطيع أن يرقص دون أصابع قدميه، تجلس ترودي بيليكان على المقعد، وأنا أجلس إلى جانبها. كانت أصابع قدميها قد تجمدت في أول شتاء قضيناه في المعسكر، وفي الصيف الذي أتى بعده دعستها عربة الكلس، حيث تمّ بتر الأصابع في الخريف، لأنّ الدود تسربّ إلى ماتحت العصابة. ومنذ ذلك الحين وترودي بيليكان تمشي على كعبيها، ساحبةً كتفيها للأمام ومنتصبة ببعض ميلان إلى الخلف. وهذا مايجعل حدبتها دائريّةً ويجمّد ذراعيها مثل عصا الرفش. ولأنّ إمكانية تشغيلها في ورشة البناء أو في المعمل أصبحت معدومة، وعملها كمساعدة في الكراج صار غير ممكن فقد أرسلت في الشتاء الثاني للمساعدة في برّاكة المرضى.

حين نحكي حول برّاكة المرضى نقول إنها ليست أكثر من صالة موت. وتقول ترودي بيليكان: ليس لدينا مايمكن أن نساعد به غير مرهم الإشتيول.

أمّا حلاّقة الميدان فهي روسيّة، وهي تشير حين تتحدث إلى أنّ الألمان يموتون على موجات. وموجة الشتاء هي الأكبر. موجة الصيف بأوبئتها هي الثانية في الكبر. في الخريف قطاف التبغ حيث تأتي موجة الخريف. والناس تتسمّم بصودا التبغ، وهو أرخص من براندي الفحم. أما الموت بذبح الوريد بقطعة زجاج فهو موت مجانيّ، كما في بتر اليد أو السّاق. ومجانيّ تماماً، لكنه أصعب، تقول ترودي بيليكان، حين تركض بسرعة ناطحاً حائط الآجرّ برأسك مكرراً فعلتك حتى تسقط.

كنت أعرف وجوه الجميع من اجتماع ترديد الشعار ومن الكانتينه. لذلك أعرف جيداً أن كثيرين قد غابوا. ولأنّي لا أراهم دائماً حين يسقطون، فإنّي لا أحسبهم في عداد

الأموات. وقد حميت نفسي من السؤال عن مكان وجودهم. فعندما تشهد بأمّ عينك الكثير مما يحدث مع الآخرين، الذين كانوا أسرع منك لحاقاً بالموت، يصبح الخوف عظيماً. ومع الوقت يصبح الأعظم على الإطلاق، أي يصبح مشابهاً للاّمبالاة لدرجة يمكن للمرء فيها أن يخلط بينهما. وإلا كيف يصبح المرء أخفّ حركة، إذا كان أوّل من اكتشف موت الميت. عليك أن تعريه فوراً، ومادام مرناً بين يديك، أي قبل أن يأتي آخر ويأخذ عنه ثيابه. يجب على المرء أن يأخذ ماوفره هذا الميت من فتات الخبز تحت مخدتّه قبل أن يسبقه أحد إليها. إن إخلاء الأشياء هي طريقتنا في الحزن. عندما يصل النعش إلى البراكة يجب ألاّ يحمل هذا النعش إلى قيادة المعسكر أيّ شيء آخر عدا الجثة. إذا كان الميت من معارفك الشخصيين فإنك لاترى في موته إلا الربح. إن إخلاء الأشياء ليس أمراً مسيئاً، فلو انعكست الآية وكان الميت مكانك لفعل معك ماتفعله معه الآن، وأنت لن تضنّ عليه بالشّتم. إنّ المعسكر عالمٌ عمليّ بطبيعته، لأنّ المرء لايستطيع تحمّل الخجل والخوف.

والمرء يتعامل مع المسألة بلامبالاة متينة، ربما بسرور ودونما شجاعة، سرور لا علاقة له بالشماتة. أنا أعتقد أنّه كلما قلّ الحياء أمام الميت، تعلّق المرء بالحياة أكثر، وصار الإنسان أكثر استعداداً لممارسة كلّ أنواع الخديعة. إذ يوهم المرء نفسه أن الذين غابوا، قد ذهبوا إلى معسكرٍ آخر ليس إلا. إنّ الذي نعرفه لا يصلح، فنعتقد بنقيضه. مثل محكمة الخبز لايعرف الإخلاء إلا الحاضر، لكنه لا يعالج المسائل باستخدام العنف، إنه يعالجها بواقعيّة وإلفة.

أمام بيت أهلي تنتصب زيزفونة
أمام بيت أهلي مقعدٌ للجلوس
فإذا ماوجدتهما في يومٍ من الأيام
فسأبقى هناك بقيّة حياتي

هي أغنيةٌ تغنّيها الآن مغنيتنا لوني مِش وحبّات عرقٍ تزيّن جبهتها. أما تسيتر لومّر فقد وضع أداته الموسيقية على ركبتيه وخاتمه الحديدي في إبهامه. بعد كلّ بيتٍ في الأغنية ينقر على آلته صدىً رخواً ويغني مع المغنيّة. والحداد أنطون يدفع الطبل عدةً مراتٍ إلى الأمام حتى يستطيع من بين عيدان طبلته أن ينظر بحول عينيه إلى وجه لوني مِش. كانت الأزواج

الراقصة تتحرك بوثباتٍ قصيرةٍ متتالية عبر الغناء مثل طيورٍ تحطّ على الأرض أثناء هبوب ريح عاتية. تقول ترودي بيليكان، على أية حال نحن لم نعد نستطيع الذهاب، ليس أمامنا إلاّ متابعة الرقص، نحن قطنٌ سمين فيه ماء يهتزّ وعظامٌ آيلةٌ للسقوط، نحن أضعف من عيدان الطبلة. ولذلك أسبابٌ تسميها أسراراً لاتينيّة من براكة المرضى:

بولي أرتريتِس. ميوكارديتس. ديرماتيتِس. هيباتيتِس. إنتسيفاليتس. بيلاغرا. ديستروفيا البوز الشريطي، ويسمى أيضاً الوجه القردي للميت. ديستروفيا بيدين باردتين، وتسمى مخالب الديوك. ديمينتيا. تيتانوس. تيفوس. أكزيما.

إيشياس. توبِركولوزي. بعد ذلك يأتي الزحار مع دم فاتح اللون في البراز، دمّلة، سرطان، جفاف العضلات، جفاف الجلد مع الجرب، تراجع في اللثة وسقوط الأسنان وتسوّس الأسنان. لم تذكر ترودي بيليكان حالات التجمّد من البرد، ولا حالات تجمّد الوجه مع احمرار الجلد ليصبح كالآجر بوزمات بقعيّة بيضاء وزاويّة، والتي تصبح مع أولّ موجة دفءٍ في الربيع بنيّةً قاتمة، مثلما يلونون هذه الأيام وجوه الراقصين. ولأنني أنا لا أقول شيئاً ولا أسأل حول أيّ شيء، إطلاقاً لا شيء، تقرصني ترودي بيليكان بقوةٍ في ذراعي وتقول:

ليو، أنا أعني فعلاً ما أقول، لا تمت في الشتاء.

والطبال يغنّي مع لوني بصوت ثنائيّ:

دعِ الحلم أيها البحار

ولا تفكر في الوطن

وتقول ترودي مضيفةً للأغنية، إنّ الأموات يُكدَّسون بعضهم فوق بعض في الدار الخلفية ويطمرون بالثلج، ثم يتركون بضع ليالٍ حتى تجمد الجثث وتتيبس بشكلٍ كافٍ. ذلك أنّ حفاري القبور ليسوا أكثر من أوغاد كسالى، أنهم يقطّعون الجثث إلى قطعٍ حتى يكفيها ثقب صغير ولا يضطرون لحفر قبور ملائمة لحجم أجسادهم.

استمعت جيداً لترودي بيليكان، وصرت أدرك من خلال جميع تلك الأسرار اللاتينيّة قليلاً مما يعتلج في صدري. إن الموسيقى تنشّط الموت، فهو يمكن أن يترنح سكرانَ.

أهرب من الموسيقى إلى براكتي. في برجَيّ الحراسة المنتصبين على جانبي طريق المعسكر يقف الحراس نحيلين وجامدين وكأنهم صعدوا من القمر. ومن مصابيح المحرس يبرز حليب، من صالة الحراسة على الباب الرئيسيّ للمعسكر يتطاير ضحكٌ إلى فناء المعسكر، هناك يتناولون براندي الشوندر السكري من جديد وحتى السكر. على الشارع الرئيسيّ للمعسكر يقبع كلب حراسة. في عينيه جمرٌ أخضر، بين خفيّه قطعة من العظم. أنا أعتقد أنها عظم دجاجة، حسدته على ذلك، وهو شعر بهذا وهرّ. عليّ فعل شيء ما كي لا يهاجمني فأقول: فانيا.

أنا على يقين أنّ فانيا ليس اسمه، ومع ذلك فقد بدأ يتفحصني، وكأنّه هو بدوره يلفظ اسمي، فقط لو كان يريد فعلاً أن يلفظه. عليّ الذهاب، قبل أن يفعلها. أسير بخطوات كبيرة ثم ألتفت عدة مرات إلى الوراء، فلربّما كان يلحق بي. أصل إلى باب البراكة، وأراه مازال غير مهتم بقطعة العظم. هو مازال يلاحقني بنظراته، أو ربّما لاحق صوتي أو لاحق الاسم فانيا. حتى الكلاب تهرب منها ذاكرتها وتعود. أما الجوع فلا يذهب أبداً، لكنه يعود دائماً. والوحدة مثله. ربما يسمّون الوحدة في اللغة الروسيّة فانيا.

أنا، تلمست الطريق إلى سريري. كالعادة يضيء مصباح الخدمة فوق طاولة الخشب الصغيرة. ومثل كلّ المرّات، عندما لا أستطيع النوم، أُحملق في الأنبوب المفتوح بتجاعيد ركبته السوداء ومخروطيه المعدنيين اللذين يشبهان أكواز شجر الصنوبر على الساعة الوقواقيّة. ولكن وبعد هذا كلّه تعود لذاكرتي صورتي حين كنت طفلاً.

أنا الآن في البيت على باب الشرفة، على رأسي شعر أسود مجعّد ولا أصل بطولي حتى أكرة الباب. أحمل لعبتي القماشيّة على ذراعي، ولعبتي كلبٌ رمادي اللون. كان اسمه موبّي. على الباب الخشبيّ المفتوح أرى أهلي قادمين من المدينة. كانت أمي تلفّ سلسلة حقيبتها الصغيرة الحمراء في لمعانها حول يدها، كي لا تحدث صلصلة أثناء صعودها درج البيت. أبي يحمل قبعته القشيّة البيضاء في يده. يذهب إلى الغرفة، تبقى أمّي واقفة، تمسح لي على شعري من الأمام للخلف مبتدئة بالجبين، ثم تأخذ منيّ كلبي القماشي وتضعه على طاولة الشرفة، على حقيبة الجلد الصناعي اللامع تصلصل السلسلة، أقول لأمّي:

أعطني موبّي كي لا أبقى وحيداً.

تضحك أمّي: ولكنّي بجانبك

فأقول: أنت يمكن أن تموتي، موبّي لا يفعل ذلك.

في شخير المستضعفين الخفيف، الذين لم يعد بإمكانهم الذهاب إلى الرقص، أسمع صوت طفولتي. إنّه ناعم لدرجة يقشعر لها بدني. كوشِل تير، حيوان قماشيّ يحتضنه الطفل لينام يالها من كلمة لكلبٍ قماشيّ محشوٍّ بنشارة الخشب. ماذا يوجد الآن في المعسكر غير الكوشِن، وإلاَّ ماذا يسميّ المرء السكوت من الخوف. وكوشِن ليست مرادفة للكلمة الروسية كوشيت أو الأكل. فأنا لا أريد الآن أن أفكّر أيضاً بالطعام. أنا أريد أن أغرق في النوم وأحلم.

أحلم أني أركب على خنزيرٍ أبيض طائر في السماء إلى الوطن. من الأعلى أتعرف على الأرض جيداً، إنها معالم بلادنا فعلاً، إنها ترى مسورةً أيضاً، حقائب بلا أصحابها ملقاة على الأرض بشكلٍ عشوائي وبين تلك الحقائب ترعى أغنام بلا رعيان. حول أعناقها أكواز صنوبر، ترنّ مثل الأجراس الصغيرة. أقول: إنها حظيرة أغنام كبيرة وحقائب ومحطة قطارات كبيرة وأغنام. لم يعد أحد يسكن في هذه البلاد، فإلى أين أذهب؟!

ينظر ملاك الجوع إليّ من السماء ويقول: اركب عائداً.

أقول: لكني سأموت إن عدت.

يقول: إذا متّ أجعل كلّ شيء برتقالياً ولن يوجعك شيء.

وأعود راكباً إلى حيث أتيت، وقد أصدقني القول. فبينما أنا أحتضر تتلون السماء فوق كلّ أبراج الحراسة بالبرتقالي، ولم يوجعني شيء أبداً.

أستيقظ من نومي، أمسح زاويتي فمي بالمخدة. المكان الذي يحبّه بقّ الليل كثيراً.

أحجار البلوك

أحجار البلوك هي أحجار مكعّبة من الحصى والرمل والإسمنت وروبة الكلس. يتم خلط هذه المواد في جبّالة (البيتون) ثم تضغط بواسطة مكبس ذي ذراع يدوي. يقع معمل أحجار البلوك خلف معمل فحم الكوك، على الطرف الآخر من الياما إلى جانب أكوام الردم. المكان واسع بما يكفي لنشر آلاف الأحجار الطريّة كي تجفّ. كانت الأحجار منشورة في صفوف متراصّة بعضها إلى جانب بعض على الأرض، مثل أحجار القبور في مقبرة الأبطال. وتصبح تلك الصفوف متموّجةً في أماكن وجود حفرٍ أو تحدّبات في السّاحة. علاوة على ذلك فقد وضع كلٌّ حجارته على طريقته، أي بشكل يختلف قليلاً عن الآخرين. كان العامل يحمل الحجر على لوح صغير بين يديه. العدد الهائل للأحجار الطّرية المنقولة على ذلك اللوح نفشَ تلك الألواح مع الوقت، وملأها بالشقوق والثقوب.

كان حمل الحجارة فعلَ توازنٍ طويل، فمسافة حمل اللوح تصل إلى أربعين متراً، وهي المسافة الفاصلة بين المكبس وساحة التجفيف. كان امتلاك كلّ عاملٍ لطريقته الخاصّة في توازن الثقل، قد جعل صفوف الحجارة مائلة. أو أنّ الصفوف فقدت توازيها، لأن الطريق بين المكبس والسّاحة تغيّر مع كلّ حجرٍ جديد، فقصر إلى الأمام أو طال للخلف أو سار فقط إلى الوسط لأن العامل اضطر لتبديل حجرةٍ تَلفَتْ هناك، أو لأنّ أمكنة لم تستغل بشكل جيد في أرتال الأمس الجافّة.

يزن الحجر الطريّ عشرة كيلوغرامات وهو حُبيبيّ الشكل مثل رمل مندى. كان على العامل حمل تلك الألواح راقصةً أمام البطن، منسّقاً في ذلك بين اللسان والأكتاف والأكواع والحوض والبطن والركبة وأصابع الأرجل.

لم تكن العشرة كيلوغرامات قد أصبحت حجراً بعد، وكان على العامل ألا يُشعر الحجرات أنه يحملهن. كان عليه أن يحتال عليهن، كأن يهزهنّ بأطوال موجات متساوية دون أن يتأرجحن، ومن غير أن يسقطن على ساحة التجفيف دفعةً واحدة من فوق اللوح الحامل لهنّ. يسير العامل وهو يحملهنّ بسرعة وباتّساق، بحيث يسقطن على الأرض ببعضٍ

من الخوف الناعم المنزلّق غير المرتجّ. يجب على العامل أن يسير مقرفصاً، بشكلٍ يُبقي فيه أرجله محمّدة مرنة، حيث يصل اللوح حتّى أسفل الذقن وتنبسط الأكواع مثل الجوانح، لينزلق الحجر من فوق اللوح بدقّة محسوبة. بهذا الشكل وهكذا فقط يستطيع العامل وضع الحجارة مصطفّة دون إضاعة أماكن بين صفوفها، وكذلك من غير أن ينجرح الحجر الجديد الطّريّ أو أن يخدش زاوية الحجر الجار قبله. حركة خاطئة وحيدة في هذا الرقص ويخرّ الحجر مثل كومة زبالة منهاراً في ذاته.

نتيجةً لهذه الطرق في حمل الحجر، ولا سيما طريقة تنزيل الحجر على الأرض ورَصْفه، يتوتّر وجه العامل أيضاً. إذ يجب عليه أن يبسط لسانه باستقامة ويجمّد عينيه. وإذا ماأخطأ في ذلك فإنه لن يستطيع اللعن بعد ذلك من شدة غضبه. بعد الانتهاء من كلّ رتلٍ من أرتال أحجار البلوك ومن اجتهادنا نحن العمال في أن نبقى جامدين صارت أعيننا وشفاهنا رباعية الشكل مثل الأحجار. وقد لعب الإسمنت دوراً في كلّ ذلك. بحث عن البعيد وطار في الهواء. التصقت علينا وعلى جبّالة (البيتون) وعلى المكابس كميات منه تفوق تلك التي جبلت في الأحجار. لكبس الحجر يقوم العامل بإنزال اللوح الحامل في قالب الكبس. بعدئذٍ يُملأ القالب بالخلطة باستخدام الرفش ثم يقوم بدكّها بواسطة ساعد المكبس اليدوي حتى يرتفع الحجر مع اللوح الحامل ويُضْغَط للأعلى. بعد ذلك يقبض العامل بكلتي يديه على جانبي اللوح الحامل آخذاً الحجر على حاملها بحركات توازن راقصة إلى ساحة التجفيف.

كان كبس أحجار البلوك مستمراً في الليل والنهار. في الصباحات يكون قالب الكبس مازال بارداً ونديّاً. أما أرجلك فتكون خفيفة والشمس لم تصل بعد إلى الساحات.

كانت الشمس ناراً على ذرى تلال الردم. إذ تصبح الحرارة أوقات الظهر فوق طاقة البشر على التحمّل. حيث تنسى الأرجل خطوتها الموزونة، ويطنّ في بطة السّاق كل عصب، أما الركب فإنها ترتعش، والأصابع تتخشب. ولا يستطع العامل بعد ذلك مدّ لسانه باستقامة وهو يضع الحجر في رتلها على الأرض. فيزداد عدد التالف من أحجار البلوك ويزداد بالتالي عدد الجلدات على الظهر. في المساء يرسل البلجكتور هرمه الضوئي

على كلّ هذه الاحتفاليّة. حيث تنتصب الجبالة والمكبس مثل آلات من الفرو في ضوء شاحب، فراش الليل يعصف حولها. لم يكن الفراش يبحث عن الضوء فقط، فلقد جذبته رائحة الخلطة الرطبة، كما أغرته بتلات زهر الليل. ومع أن ساحة التجفيف كانت نصف مظلمة فقد حطّ الفراش على تلك الآلات المكعبة الشكل وبدأ ينقّط بخراطيمه وأرجله الخيطيّة. لقد حطت الفراشات على الحجر أيضاً حين كان العامل يحمله، ليشغلن العامل بهنّ وينسى موازنة حمله. كنت ترى الشعيرات على رؤوسهن وحلقات الزينة حول بطونهن وكنت تسمع كيف كنّ يرفرفن بأجنحتهن وكأن ذلك الحجر حيّ يرزق. كنّ يأتين أحياناً على شكل مجموعات ثنائيّة، لا بل ثلاثيّة أيضاً، ملتصاقات بالحجر وكأنهنّ ولدن من بطنه. وكأن تلك الخلطة الرطبة على اللوح ليست من الحصى والرمل والإسمنت وحليب الكلس، بل كتلة يرقات مضغوطة في كبسةٍ رباعية الشكل خرجت من فراش الليل ذاك. كن يدعن العامل يحملهن مع الحجر بين المكبس وساحة التجفيف، من ضوء الكشّاف إلى طيّات الظلّ التي كانت مائلةً وخطيرة، لأنها كانت تقلّص ملامح الأحجار وتزيح مقاييس الصفوف. لم يعد الحجر المحمول على اللوح يعرف، كيف هو شكله. وأصبح المرء غير أكيدٍ مما يراه، إذ لا يجوز أن يبدّل بين حواف الحجر وتلك التي للظّل. من أكوام الردم هناك جاء اضطراب رفرفات خادعة. كنّ يبرقن في أماكن لا تحصى وجعلن العيون الصفراء مثل حيوانات تعيش الليل وتنتج ضوءَها الخاص لتضيء استيقاظها الدائم أو تحرقه.

كانت رائحة جمرات تلال الردم كبريتيّة حادة. أمّا بوادر الصباح فباردةً والسماء من زجاج حليبيّ. خفّت أرجل عمّال قوالب البلوك ولو معنوياً، فقد اقترب موعد انتهاء الورديّة، ويريدون أن ينسَوا كم تعبوا. ضوء الكشاف الكهربائي صار تعباً أيضاً شاحباً ومحاصراً بضوء النهار. وعلّق فوق مقبرتنا، مقبرة الأبطال غير الحقيقية، هواء أزرق بانتظام فوق الأرتال جميعاً، فوق كل حجرةٍ من أحجار البلوك. ونثرت عدالة الصمت نفسها، إذ لم يوجد غيرها في المكان.

كان كلّ شيء يسير لمصلحة حجر البلوك، فموتانا لم يُقبروا في أرتال ولا تحت حجارة.

لم يكن حتى التفكير بهم مسموحاً، وإلاّ لما استطعنا، نحن عمال البلوك، في الليالي القادمة الرقص في ساحة المكابس ولا موازنة الأحجار المكبوسة على اللوح. إنّ التفكير بهم سيقود لزيادة عدد الأحجار التالفة وبالتالي لزيادة عدد ضربات السياط على الظهر.

الزجاجة الصغيرة القويّة الإيمان وتلك المتشكّكة

كان زمن العظم والجلد وأبديّةِ حساء الأعشاب. كابّوستا صباحاً عند الاستيقاظ، كابّوستا في المساء بعد ترديد الشعار المسائي. **كابّوستا** تعني عشبة في اللغة الروسية، أما حساء الأعشاب الروسيّ فيعني أنّه غالباً من غير أعشاب على الإطلاق. إذا فرغت كابّوستا من معناها الروسيّ ومن الأعشاب، تصبح كلمة من شيئين لا جامع بينهما عدا الكلمة نفسها. **كابّ** هي الرأس الروماني و**بّوستا** هي السهل الهنغاري المنخفض، هذا إذا فكّر المرء فيها على طريقة اللغة الألمانية. والمعسكر روسيّ مثل حساء الأعشاب. بمثل هذا الحساء الأحمق يريدون أن يكونوا أذكياء. ولكن كلمة **كابّوستا** المنقسمة لا تصلح للتعبير عن الجوع. فتعابير الجوع خريطة، بدلاً من أسماء البلدان يلقّن المرء رأسه بأسماء المأكولات. حساء الأعراس، كبّة مقليّة، أضلاع، كراعين الخنزير، شواء أرانب، كفتة بطاطس بالقوانص، فخذ غزال، أرنب بالحوامض ... إلخ.

كلّ كلمة جوع هي كلمة أكل، فالمرء يستحضر صورة الطعام أمام عينيه والطعم في حلقه. تعابير الجوع أو تعابير الأكل تعلفُ الخيال. تعابير تأكل بعضها وتتلذّذُ بذلك، دون أن تشبع، لكنها مازالت فوق المائدة على الأقلّ. الذين لديهم جوع مزمن يملكون كلّهم كلماتهم المفضلة لذلك، هي كلمات نادرة، كلمات كثيرة الدوران على الألسن وكلمات دائمة الاستخدام. فواحد تطيب له هذه الكلمة، والآخر تطيب له أخرى. مثل كابّوستا لا تصلح كلمة ميلده كراوت ككلمة جوع، لأنّها تؤكل فعلاً، بل يجب أن تؤكل.

أنا أعتقد أنّ العمى والنظر في الجوع شيء واحد، فرؤية الجوع الأعمى للطعام مثاليّة. توجد كلمات جوع خرساء وعالية الصوت، كما يوجد من الجوع نفسه السريّ والعلنيّ. كلمات الجوع، أي كلمات الأكل تسيطر على الأحاديث، ومع ذلك يبقى المرء وحيداً. كلٌّ يأكل كلماته بنفسه. الآخرون، الذين يشاركون في الأكل، يفعلون ذلك هم أيضاً بأنفسهم. أما حجم المشاركة في جوع الآخرين فهي صفر، لأنك لا تستطيع أن تجوع معهم. كان حساء الأعشاب غذاء أساسيّاً هو السبب في فقدان اللحم عن الجسم والعقل في الرأس. لقد كان ملاك الجوع يتجوّل بطريقة هيستيريّة. لقد فقد كلّ حدوده، مما كثيراً

في يومٍ واحد، كما لا يستطيع عشب أن يفعله في صيفٍ كامل ولا ثلجٌ في شتاء كامل، ربما كنموٍّ شجرةٍ مدببة وعالية طوال عمرها. ويبدو لي أن ملاك الجوع لم يكبر فقط وإنّما تكاثر أيضاً. لقد جهّز لكلٍّ واحدٍ عذابه الشخصيّ الخاص به، على الرغم من أنّنا متساوون جميعاً. إذ لا يمكن التفريق بين الرجال والنساء في ثلاثية الجلد والعظم واضطراب الهضم الموحّدة، لا فاعليّة للجنس في هذه الحالة. صحيح أن المرء يتابع قول **هذا** و **هذه**، لكن بنفس الطريقة التي يقول المرء فيها: هذا المشط وهذه البراكة. ومثل ذلك يكون أيضاً أنصاف الجوعى لا ذكور ولا إناث، حياديين موضوعيا مثل الموضوعات - ربما محايدين.

ليس مهمّاً أين كنت، على سريري، بين البراكات، في وردية النهار أو في وردية الليل على الياما، أو مع كوبليان في البادية، أو بجانب برج التبريد أو بعد وردية العمل في البانيا أو في البيع الجوال على البيوت، كلّ شيء كنت أفعله كان جائعاً. كل شيء كان بمقدار جوعي في الطول والعرض والارتفاع واللون.

بين السقف السماوي في الأعالي وغبار الأرض كانت كلّ منطقة تفوح برائحة أكلٍ مختلف. فللشارع الرئيس في المعسكر رائحة الكاراميلا، ولمدخله الرئيس رائحة الخبز الطريّ، أما عبور الشارع من المعسكر إلى المعمل فله رائحة المشمش الساخن، لسياج المعمل الخشبي رائحة مربّى الجوزبالسّكر، لمدخل المعمل رائحة البيض المتعفّن ولليايما رائحة الفلفل المجفف، للردم في أكوامه رائحة حساء البندورة، لبرج التبريد رائحة الباذنجان المقليّ ولمتاهة أنابيب البخار رائحة فطيرة الفانيللا. كان لكتل الزفت في الأعشاب رائحة هريس السفرجل، أمّا بطاريات فحم الكوك فلها رائحة البطيخ الأصفر. لقد كان سحراً وعذاباً، حتى إنّ الريح قامت بعلف الجوع، ولذا نسج طعاماً بيّناً، لم يكن تجريدياً على الإطلاق.

منذ أصبحنا نحن رجيلات العظم ونُسيئات العظم عديمي الجنس بعضنا أمام بعض، قام ملاك الجوع بتلقيح كلٍّ منا، لقد خان حتى اللحم الذي كان قد سرقه منّا، وجرّ معه إلى أسرّتنا دائماً قملاً وبقّاً أكثر. لقد كان زمنُ العظم والجلد هو زمن احتفاليات تفليَة القمل الأسبوعية في فناء المعسكر بعد انتهاء وقت الشغل. كان يجب إخراج الجميع، بما في ذلك

أغراض لإزالة القمل - الحقائب، الثياب وهياكل الأسرة ونحن.

هو صيفنا الثالث في المعسكر، كانت أشجار الأكاسيا قد أزهرت وفاحت رائحة ريح المساء بقهوة الحليب الساخنة. وضعتُ كلّ شيء في الخارج. بعدئذٍ جاء تور بريكوليتش مع تافاريش شيشتفانيونوف ذي الأسنان الخضر[1]. كانت بيده عصا خاصة بالرعيان، طولها يضاهي طول الناي بمرتين، مرنة للضرب وتمّ تدبيبها في نهايتها السفلية من أجل النبش والنكش. برأس تلك العصا نكش ثيابنا من الحقائب ورماها في الهواء ساقطة على الأرض، لم يقاومه ممتعضاً من فعلته إلاّ بؤسنا.

نصبت نفسي، جيداً قدر ماستطعت، في وسط استعراض إزالة القمل، لأن حملات التفتيش كانت في بداية العرض وفي نهايته لا تحتمل. إلا أنّ شيشتفانيونوف أراد هذه المرّة أن ينقل صرامته في التفتيش إلى وسط العرض. لقد حفرت عصاه في حقيبتي، أعني صندوق الجرامافون، ناكشاً أسفل الثياب ومبعثراً حاجيّاتي في علبة ضروريّاتها. ثمّ ترك العصا تسقط من يده وفتح علبة الضروريات مكتشفاً ما خبأته من حساء الأعشاب السريّ. منذ ثلاثة أسابيع أحتفظ بحساء الأعشاب في زجاجتين صغيرتين جميلتين، كنت احتفظت بهما من وقت سابق ولم أحتمل رميهما في الزبالة فقط لأنهما كانتا فارغتين. ولأنهما كانتا فارغتين فقد ملأتهما بحساء الأعشاب. إحدى الزجاجات كانت مصنوعة من بللور متموّج، ببطنٍ مدوّرةٍ وسدادة محلزنة. أمّا الثانية فقد كان لها بطنٌ مسطّح برقبةٍ عريضة، حتى إنني قمت بإعداد سدادة خشبيّة لهذه الزجاجة. ولكي لايفسد حساء الأعشاب فيهما، قمت بإغلاق الزجاجتين بإحكام لمنع دخول الهواء، تماماً كما كانوا يفعلون في بيتنا بالخضار المجففة. ثم أحكمت السدادات ببضع نقاطٍ من حمض الإستياريك الدهني، إذ كانت ترودي بيليكان قد أعارتني شمعةً من برّاكة المرضى. شتو إيتّو[2]، ماهذا سأل شيشتفانيونوف.

حساء أعشاب.

1- توفاريش أو تُفارِش Towarischtsch: رفيق باللغة الروسية.

2- «تمّ نقل الكلماتِ الروسية كما استوعبها بطل الرواية، حين كان الروس يلفظونها أمامه وكما نقلتها المؤلفة عنه وثبتتها كتابيّاً بالحرف الألماني في روايتها. رغم أن ذلك لا يتطابق أحياناً مع اللفظ الروسي الصحيح لها».

لماذا.

خضّ الزجاجات حتى أرغى الحساء. قلت أنا، باميات.

ذكرى، كلمةٌ تعلمتها من كوبليان، إنها كلمة جميلة لدى الروس. ولذلك قلتها. ولكنّ شيشتفانيونوف، الذي ربما سأل نفسه، لمن أحتاج أنا مثل هذه الذكرى. من المعتوه الذي يحتاج هنا لزجاجات صغيرة مليئة بالحساء، كي يتذكر حساء أعشاب يأكلها مرتين يومياً في المعسكر!

سألني: هل احتفظتَ بها للبيت؟

أومأت برأسي بالإيجاب. لقد كان هذا أسوأ مايمكن أن يحصل، أن أقوم بوضع حساء الأعشاب في زجاجات صغيرة لآخذها معي إلى الوطن. لم يكن الضرب ينفع معي لمثل هذه الحالة، لكنه كان مازال في وسط استعراضه ولم يحضر إلى هذا المكان كي يعاقب أحداً بالضرب. صادرالآمر زجاجات الحساء وطلبني إلى مكتبه.

في الصباح التالي قادني تور بريكوليتش من الكانتينيه إلى صالة الضباط. لقد سار بي عبر الشارع الرئيس للمعسكر مثل مُطارَد وكنت أجري وراءه كمن حُكم عليه بجرم. سألته، ماذا عليّ أن أقول. ومن دون أن يلتفت، أشار بحركة مستهزئة وقال: أنا لا أتدخل بمثل هذه الأمور. زمجر شيشتفانيونوف، وبذلك استطاع تور توفير الترجمة على نفسه، فقد كنت أحفظ مثل هذا الصراخ عن ظهر قلب: أنني فاشيّ وعميل وجاسوس ومخرّب، أنّني بلا ثقافة وأريد أن أغادر المعسكر سارقاً معي حساء أعشاب، لأخون بذلك سلطة السوفييت والشعب السوفييتي.

كان حساء الأعشاب في المعسكر خفيفاً، لكنه كان في زجاجاتي ذات العنق الضيّق خالياً من كل شيء. هذا البعض من فتات العشب في داخلها كان وشاية بالنسبة إلى شيشتفانيونوف. لقد كان وضعي حرجاً. غير أنّ تور رفع أصبعه الصغير بعد ذلك وطرح فكرة: دواء. كانت كلمة دواء لدى الروس كلمة نصف جيدة. وهذا ما أدركه تور في الوقت المناسب، إذ أدار بإصبعه الصغيرة على جبهته وكأنه يريد فتح ثقبٍ فيها وقال متخابثاً: **أوبسكورانتييزم.**

فكرة مقنعة. لقد كان قد مضى عليّ ثلاث سنين في المعسكر ولم تتم إعادة تأديبي وتأهيلي، فأنا ما أزال أعتقد بالمشروبات السحرية ضد الأمراض. أوضح تور، لقد كان حساء الزجاجة ذات السدادة الحلزونيّة ضد الإسهال والثانية ذات السدادة الخشبية ضد الإمساك.

تأمل شيشتفانيونوف الفكرة مليّاً، لم يعتقد فقط بالذي قاله له تور بل فكّر أيضاً بأن إعادة تأهيلي التربويّ في المعسكر أمر ليس جيداً، لكنّه ليس سيئاً في الحياة. أعاد تفحص الزجاجتين الصغيرتين، خضّهما حتى ارتفع رغاؤهما إلى الرقبة. بعدئذٍ دفع الزجاجة ذات السدادة الحلزونيّة إلى اليمين قليلاً، وتلك ذات السدادة الخشبية إلى أقصى اليسار، لدرجة صارت فيها الزجاجتان قريبتين جداً حتى إنهما لامست إحداهما الأخرى. لقد سال لعاب شيشتفانيونوف على الزجاجتين وارتخت نظرته. انتاب تور على مايبدو في تلك اللحظة إحساس جيد وقال:

إذهب الآن، اغرب من هنا.

ربما لم يرمِ شيشتفانيونوف الزجاجات ولأسباب لا يمكن، أو بالأحرى يمكن تفسيرها.

هذا يعني أسباب. أنا لا أدري حتى الآن، لماذا ملأتُ الزجاجات بحساء الأعشاب. هل كان لذلك علاقة بجملة جدتي: أنا أعرف أنك ستعود. هل كنت فعلاً بلا هموم حتى أعتقد أنني عائدٌ فعلاً وسأعرض أمام عائلتي في الوطن حسائي العشبيّ في زجاجتين صغيرتين كجزء حملته معي من حياة المعسكر. أو أنّه استقرَّ في دماغي، ورغم أنف ملاك الجوع، تصورٌ يقول إن على المرء أن يحضر معه هدية حين يعود من السفر. فجدتي جلبت لي حين عادت من رحلتها الوحيدة بالسفينة إلى القسطنطينيّة شبشباً تركياً أزرق بلون السماء وصغيراً بحجم الإبهام. هنا أحكي عن جدتي الأخرى، تلك التي تسكن في بيتٍ آخر ولم تقل شيئاً عن عودتي، حتى إنّها لم تكن موجودةً لحظة رحيلي. لماذا على الزجاجتين أن تصيرا شاهدتيَّ في الوطن، وهل سبق وكان عندي زجاجتان، واحدة واثقة من أمري والأخرى متشكّكة. وهل عُبِّئتِ العودة إلى الوطن تحت السدادة المحلزنة،

والبقاء الأبديّ في المعسكر تحت السدادة الخشبيّة المحكمة ضدّ تسرّب الهواء.

أو لعلّ ذلك مثل النقيضين الإسهال والإمساك. هل كان تور بريكوليتش يعرف الكثير عني. هل ساعدني أنّي خضّت في أحاديث طويلة مع بيا تساكِل.

هل مازال البقاء في المعسكر والعودة إلى الوطن نقيضين. ربّما أردت أن أكون على قدر المسؤوليّة في الحالين، إذا ماحدث وتحوّلتا إلى أحدهما. ربما أردتُ فوراً ودون تأخير أن أجعل حياتي هنا، أو الحياة بشكلٍ عام، غير متعلقة برغبتي اليوميّة الملحّة بالعودة إلى الوطن دون أن أستطيع تحقيق ما أريد. كلما قويت إرادتي للعودة إلى الوطن، تصاعدت حدّة محاولتي بالتخفيف من هذه الإرادة، لدرجة الانهيار، إذا ماحدث ولم يسمح لي أبداً. إن رغبة العودة إلى الوطن لا تفارق الإنسان، ولكي أملك شيئاً آخر غير هذه الرغبة، قلت لنفسي: إذا ما حدث وأبقونا هنا حتّى الممات فإنّ هذه ستكون حقّاً حياتي، قسمتي. فالروس يعيشون أيضاً هنا. أنا لن أمانع في أن أستقرّ هنا، بشرط أن أبقى هكذا مثل الزجاجة المحكمة ضد دخول الهواء، مملوءاً حتى النصف. أستطيع أن أعيد تربية نفسي، أنا لا أعرف كيف أنفّذ مثل هذه المهمّة، لكنّ البادية كفيلة بتعليمي مايلزمني. لقد أخذني ملاك الجوع إليه لدرجة أصبحت معها جلدة رأسي ترفرف، يومئذٍ كنت بسبب القمل قد حلقت رأسي على الصفر.

تحت صفاء إحدى سماوات الصيف الماضي فتح كوبليان قميصه مرّةً، وحين رفرَفَ قلبه عشقاً، قال شيئاً عن روح عشب البادية وشعوره الأورالي. مثل ذلك يهبّ في صدري أيضاً، قلت في نفسي.

التسمّم من ضوء النهار

كانت شمس هذا الصباح مثل بالون أحمر، طلعت بشكلٍ بدت فيها السماء فوق معمل الكوك كأنها مسطّحة جدّاً.

عندما بدأت وردية العمل كانت الدنيا ليلاً. كنا تحت الهرم الضوئي للكشاف في حوض البولي إيتيلين كلوريد. وهو عبارة عن حوض عمقه متران، طويل وعريض بقدر براكتين. كان بسماكة مترٍ مصبوباً بطبقة قديمة جدّاً من القار الذي تحجّر مع الزمن. ولكي ننظّفه كان علينا استخدام مخلٍ وقرصة مدببة، بحيث ينفصل القار عن الحوض لنحمّله بعد ذلك في عربات الجرّ، ثم ندفع العربات مغادرين الحوض على جسرٍ يتكون من ألواح خشبيّة يتأرجح ذات اليمين وذات الشمال لنصل بعده إلى أرصفة السكّة الحديدية ومن هناك نأخذ لوحاً آخر صاعدين إلى العربة حيث نفرغ القار هناك.

حين كنّا نَكْشطُ ذلك الزجاج الأسود كانت تتطاير منه كتل متموّجة، محدّبة ومسنّنة حول رؤوسنا. لم نلحظ وجود أيّ غبار. أولاً وحين أعود بالعربة الفارغة على الجسر المتأرجح من سواد الليل إلى قمع الضوء الأبيض ألحظ لمعان غبار الزجاج في الهواء على شكل مَرْيلة حريرية من دون أكمام. ومادام الكشاف الضوئي ينوس في الريح، كانت تلك المريلة تختفي ليظهر بعد لحظة وفي نفس المكان قفص متأرجح لعصافير بلون الكروم.

انتهى العمل في الورديّة في السادسة صباحاً، حيث كان الضوء قد ملأ النهار منذ ساعة. ظهر وجه الشمس متقلّصاً وموحشاً، مدمجة مثل حبّة قرع كانت كرتها.

نارٌ في عينيّ، تلافيف المخّ جميعها تضرب نابضةً، والأشياء برمّتها شاحبة على الطريق إلى البراكة. شرايين الرقبة تكاد تنفجر، تفاحتا العينين تغليان في الجبين والقلب. ضربٌ كالطّبل في الصدر، الأذنان طقطقتا. الرقبة انتفخت مثل عجين ساخن وتيبّست. الرأس والرقبة صارا واحداً. لقد ثقبني الضوء، كان عليّ الإسراع إلى ظلام البرّاكة، الذي وجب عليه أن يكون ساعتها حالكاً، لكن ضوء النافذة كان قاتلاً. سحبتُ المخدةً فوق رأسي. وعند المساء خفّت الحالة لكنّ وردية الليل حلّت أيضاً. وعندما أظلمت الدنيا كان عليّ أن أقف ثانيةً في ضوء الكاشف في بانيو البولي إيتيل كلوريد. في ثاني ورديةٍ ليليّة أتى

الناتشالنيك ومعه سطل فيه عجينة شكلها كببي بلون وردي قاتم. قمنا بدهن وجوهنا ورقابنا بتلك المادة قبل أن نصعد إلى الحوض. جفّت المادة فوراً ثمّ بدأت بالتّقشّر. في الصباح وحين طلعت الشمس ثار القار في رأسي بطريقةٍ أسوأ من سابقتها، تلمستُ طريقي إلى المعسكر مثل قطّةٍ سقيمة، هذه المرة إلى برّاكة المَرضى مباشرة. قامت ترودي بيليكان بالتمسيح على جبيني بيديها، ورسمت الحلاّقة الميدانية بيديها في الهواء رأساً أكبر بكثير قائلةً **زونتسي و سفيت و بوليد**، وقصدت بذلك أشياء عن الشمس والضوء والمرض. أما ترودي بيليكان فقد بكت وأوضحت لي شيئاً من قبيل تفاعلات الغشاء المخاطي الكيمياضوئيّة.

وما هو هذا؟!

قالت: إنّه تسمّمٌ بضوء النهار.

ثم أعطتني على ورقة فجل كتلةً من مرهم مصّنع منزلياً ومكوّن من الورد الشتوي الأصفر وشحم الخنزير لوضعه على الجلد كي لا ينفجر الجلد المجروح. قالت الحلاقة الميدانيّة إنّ لديّ حساسيّة ضد أحواض البولي إيتيلين كلوريد وستكتبني مريضاً لثلاثة أيّام وربما تتكلم في الموضوع مع تور بريكوليتش أيضاً.

بقيتُ ثلاثة أيام بلياليها في الفراش. بين نائم ومستيقظ جرفتني معها موجات الحمّى إلى الوطن، إلى نقاء الصيف على الفينش. خلف شجرات الصنوبر تطلع الشمس مبكّرةً جداً مثل بالون أحمر. أنظر عبر شقّ الباب، والدايَ مازالا نائمَين. فأذهب إلى المطبخ، هناك على طاولة المطبخ تستند مرآة حلاقة على إبريق الحليب. عمتي فيني، وهي امرأة نحيفة مثل كسّارة بندق. في فستان من الحرير الطبيعيّ كانت رائحة غادية بين فرن الغاز والمرآة وفي يدها مشط لِكَيِّ الشعر. لقد كانت تكوي شعرها. وبعد أن انتهت جاءت إلي ومشطت شعري بأصابعها بعد أن بللته بالبصاق وربطته في المكان الذي يبقى فيه دائماً واقفاً. أخذتني من يدي لنذهب سوية لقطاف باقة زهرٍ لمائدة الصباح.

عشب طويل رطب من شدة نداوته يصل حتى إبطي، خشخشة وحفيف في كلّ مكان، المرج مليء بالمارغريت اللؤلؤيّ الأبيض والأزهار الجرسيّة الزرقاء. قطفتُ أزهار لسان

الحمَل فقط، والذي يسمى عشبة الإطلاق، لأنك تستطيع أن تصنع من ساقه أنشوطةً تطلق بها عرانيسه بعيداً في الهواء. آخذ العشبة وأطلقها على فستان عمتي الحريري السكريّ اللون. لكنّ العرنوس يسقط داخلاً بين الحرير وقميصها الداخلي الأبيض، ويلتصق على جسد عمتي فيني مثل أنبوب رمادي من جرادٍ يغرس مخالبه في اللحم. تركت عمتي باقة الزهر تسقط من يديها ثم بسطت ذراعيها إلى الأمام وتجمدت في أرضها. حينها دسستُ نفسي تحت فستانها وجرفت ذلك الجراد اللاصق بكلتا يدي، ودائماً بسرعة أكبر. كانت باردة وثقيلة مثل براغي مبللة بالماء. إنها تقرص وقد خفت منها. ماكان يغطيني لم يكن عمتي فيني بشعرها المكويّ وإنما كتلة عملاقة من الجراد الواقف على رجلين نحيلتين.

لأوّل مرّة في حياتي وتحت فستان حريريّ كان عليّ أن أتعلم التجريف. والآن أنا مستلقٍ في إحدى البراكات وأدهن جسمي ثلاثة أيام متواصلة بمرهم الورد الشتوي الأصفر. ذهب الآخرون جميعهم إلى حوض البولي إتيلين كلوريد. ولأنّ جلدي حسّاسٌ فوق العادة ضد ذلك الحوض، فقد فرزني تور بريكوليتش إلى قبو فضلات احتراق الفحم.

وهناك بقيت.

كانت كلّ ورديّة شغل لوحةً فنيّة

نحن اثنان، ألبرت جيون وأنا، خادما القبو حيث مراجل البخار في المعمل. ألبرت جيون رجل سريع الغضب في البراكة، حذرٌ في ظلام القبو ولكنّه مقرّر، مثل البشر السوداويين. ربما لم يكن هكذا دائماً، ثم أصبح في القبو، مثل القبو. إنه يعمل منذ زمنٍ طويل هنا. نحن لا نتحدّث كثيراً، نتبادل فقط ماهو ضروريّ.

يقول ألبرت جيون، أنا أفرّغ ثلاث عربات، ثم تفرّغ أنت ثلاث.

فأقول أنا: بعدئذٍ أنظّف الجبل.

فيقول: نعم، بعدئذ تذهب أنت لدفع العربة.

بين التفريغ وملءِ العربة ثم دفعها على السكة تتحرك وردية الشغل جيئة وذهاباً وحتى ينقضي نصفها، أي حتى يقول ألبرت جيون:

سننام نصف ساعة تحت اللوح، تحت ذلك السباعيّ، حيث الهدوء.

ثمّ يبدأ النصف الثاني من الورديّة.

يقول ألبرت جيون: أنا أُفرّغ ثلاث عربات لتفرّغ بعد ذلك أنت ثلاثاً.

وأقول أنا: بعد ئذٍ أنظّف الجبل.

يقول هو: نعم، بعدئذ تذهب أنت للدفع.

فأقول: بعد ملءِ العربة التاسعة أذهب لدفعها.

يقول: كلاّ، أنت تفرّغ العربة الآن، أنا أذهب للدفع، فالعنبر ممتلئ أيضاً.

نقول، إما هو أو أنا، بعد انتهاء وردية العمل، تعال ونظّف، نريد أن نسلّم القبو نظيفاً.

بعد فرزي إلى القبو بأسبوع وقف تور بريكوليتش ثانية في صالون الحلاقة خلفي في المرآة. كان الحلاق قد حلق نصف رأسي حين رفع نظرته الزيتيّة وأصابعه النظيفة سائلاً:

كيف هي الحال عندكم في القبو؟

قلت: لطيف، كلّ وردية هي لوحةٌ فنيّة مكتملة.

ابتسم الحلاق من فوق كتفيّ، ولكنه لم يكن يدري، أن ذلك صحيح فعلاً. لقد كان

بإمكان كلّ إنسان أن يسمع ذلك البعض من الكره في صوته ويرى ذلك البريق المحمّر في جناحيّ أنفه، ويلمس في صدغيه تلك الشرايين المرمريّة.

قال: كم كان وجهك متّسخاً يوم أمس! وكيف خرجت الأمعاء من كلّ الثقوب في طاقيتّك!

قلت: لايهمّ، إن غبار الفحم فرويّ وغليظ بسماكة إصبع. ولكن القبو نظيف بعد انتهاء كلّ وردية، لأنّ كلّ وردية هي لوحةٌ فنيّة مكتملة.

حين تغنّي الإوزّة

بعد يومي الأول في القبو قالت لي ترودي في الكانتينه: حظّك ليس سيئاً هذه الأيام، أليس تحت الأرض أجمل.

بعد ذلك حكت ترودي عن عامها الأوّل في المعسكر وكم مرّة أغلقت عينيها حالمةً أثناء جرّ عربة الكلس في ورشة البناء. أمّا الآن فهي تنقل الموتى بعد إخراجهم عراة من غرفة الموت إلى الفناء الخلفي وتضعهم هناك على الأرض مثل خشب أخرجَ اللحظةَ من لحائه. قالت، إنها وعندما تحمل الموتى وتخرجهم عبر الباب، غالباً ماتغلق عينيها، وترى نفس الأحلام التي كانت تراها سابقاً تحت وطأة لجام الفرس على عربة الكلس.

شألتها بماذا تحلمين؟

قالت: أن يعشقني شابّ أمريكي جميل وغنيّ من منتجي لحم الخنزير المعلّب – أو على الأقل: ليس بالضرورة أن يكون جميلاً وشابّاً – ثم قالت: أن يعشقني، أمر غير ضروريّ أيضاً، لكنّه يجب أن يكون غنياً، كي يستطيع أن يحررني بماله، ثمّ يتزوجني ليستطيع إخراجي من هنا. لو حصل ذلك لكان من الحظوظ السعيدة، قالت ترودي. ولو كان لديه أختٌ لكَ أيضاً.

ليس بالضرورة أن تكون جميلة وفتيّة، وأضفت: والعشق في هذا الموضع أيضاً غير ضروريّ. ثم ضحكت ترودي بيليكان بطريقة غريبة، حيث ارتجفت زاوية فمها اليمينيّة مغادرةً وجهها، وكأن الأربطة انفتقت هناك، في المكان الذي اتصل فيه الضحك بالجلد.

بعد ذلك قصصتُ على ترودي بيليكان قليلاً من حلمي الذي عاد لي والذي دار حول العودة إلى الوطن راكباً على ظهر خنزير أبيض. حكيت ذلك في جملة واحدة ومن دون الخنزير الأبيض:

قلت لها: تصوّري، أنا غالباً ما أحلم أني أطيرُ عبر السماء إلى الوطن ممتطياً كلباً رمادي اللون.

سألت: هل هو واحدٌ من كلاب الحراسة.

قلت: لا، إنّه كلبٌ من القرية.

قالت ترودي: لماذا كان عليك الركوب إذن، الطيران أسرع؟ أنا أحلم في اليقظة فقط. عندما أضع الجثث في الفناء الخلفي، تراودني رغبة الطيران مبتعدة من هنا مثل إوزةٍ حتى أصل أمريكا.

ربما كانت ترودي أيضاً تعرف الإوزة على اللافتة البيضويّة لمسبح نيبتون. أنا لم أسألها، لكنها قالت من نفسها: عندما تغنّي إحدى الأوزات، يخرج صوتها وكأنّها مصابة بالبحّة، وأنت لا تسمع إلا لهاتها المتورّمة.

عن فضلات الاحتراق

في الصيف وفي وسط البادية كان سدّ من الردم الأبيض ذكّرني بقمم جبال الكاربات الثلجية. قال كوبليان، هذا السدّ سيصبح في المستقبل شارعاً. كان الردم الأبيض صلباً وبُنْيته حُبَيْبيّة مثل فوّار الكلس ورمل القواقع. على رقعٍ متفرقة يروح هذا الأبيض في تلوّنه إلى الورديّ، وغالباً ماينتشر هذا الوردي قوياً ليصبح بنّيّاً على الأطراف. أنا لا أدري، لماذا يكون الوردي الذي تعتّق إلى بنيّ بهذا الجمال المستحوِذ والمتملّق. لم يبق شيء منه معدنياً بل صار تَعِباً وحزيناً مثل البشر. هل يملك الحنين للوطن لوناً.

كان الردم الآخر ذو اللون الأبيض يتكوم على شكل تلال بارتفاع الرجل ثم تشكّل مع بعضها سلسلة هضاب إلى جانب الياما. ماكانت تلك الأكوام متماسكة في مجموعها، فقد نما العشب على أطرافها. وعندما كنّا نرفش الفحم ثم تمطر السماء بشدّة، كنا نبحث داخل تلك الأكوام عن ملجأ. حيث فتحنا ثقوباً في كوم الردم الأبيض للاختباء. كثير من تلك الجحور كان يخرّ ببطءٍ ويسقط فيغطينا الردم. كان الثلج في الشتاء يتبخّر على تلك الأكوام بينما نحن نتدفأ في الثقوب ونغطي أجسادنا بثلاث طبقاتٍ من الأغطية: واحد من الثلج والثاني من الردم ثمّ يأتي الثالث على الجسد مباشرة وهو بدلة البوفايكا الزرقاء. كانت رائحة المخبأ تذكر برائحة الوطن الكبريتية، فقد تصاعد البخار عبر كلّ شيء. كنا ندخل في تلك الجحور حتى الرقبة، حيث يبرز الأنف فوق الأرض مثل نبات بصليّ مستعجل النموّ، وعلى الفم طبقة الثلج الذائبة. وعندما نحبو خارجين من كومة الردم كانت ثيابنا مثقّبة من الجمرات الصغيرات وخيطانها مدلاة من أماكن نموّها.

من خلال شغلي في التحميل والتفريغ تعرفت على الفضلات المطحونة الحمراء القاتمة القادمة من الفرن العالي. وهي نوعٌ لا علاقة له بالفضلات البيضاء، فهي تأتي من الغبار البني الأحمر الذي يتشيطن في الهواء بعد كل ضربة رفش ثم يترسب على الأرض ببطءٍ لينثني جسده في مجموعة من الطيّات. وبما أن تلك الفضلات جافّة مثل صيفٍ قائظ وتصبح معقّمة مع الوقت، فإن فضلات الفرن العالي الحمراء القاتمة لاتثير في النفس الشوق إلى الوطن. توجد أيضاً فضلات بنيّة خضراء، وهي متماسكة البنية تنفرش على مروج العشب

البريّة في الأراضي البور خلف المعمل. لقد انفرشت هناك تحت العشب مثل كتل ملح ملحوسة. لا علاقة تجمعني بها، فقد تركتني أمرّ بها دون أن تثير فيّ أية أفكار.

إنّ شغلي الشاغل وفضلات يومي وفضلات وردية الليل والنهار كانت البقايا القادمة من أفران الفحم التي تغذي مراجل البخار بالطاقة، إنها الفضلات الساخنة والباردة. تنتصب تلك الأفران في العالم العلوي، خمسة خلف بعضها بعضا، عالية مثل بناءٍ مؤلفٍ من عدة طوابق. تقدم هذه الأفران الحرارة اللازمة لخمسة مراجل تنتج البخار للمنشأة كلّها، أمّا نحن فلنا فضلاتها في القبو، فضلاتها الساخنة والباردة، ولنا أيضاً مجمل العمل في مرحلتيه الساخنة والباردة من كلّ ورديّة.

لا تأتي فضلات الاحتراق الباردة إلا من الساخنة، فهي الغبار البارد للفضلات الساخنة. ويجب إزالة هذه الفضلات الباردة مرة واحدة كلّ ورديّة، أما الساخنة فيتمّ كنسها بشكلٍ مستمر. وحسب إيقاع عمل الأفران يجب أن تفرّغ بواسطة جرفها إلى عددٍ لا يحصى من العربات الصغيرة، ثم دفعها إلى أعلى الجبل، لترمى هناك في الأعلى حيث تنتهي السكّة.

يمكن أن تأخذ الفضلات الساخنة كلّ يومٍ شكلاً جديداً. فهي تتلوّن حسب مكونات خلطة الفحم. أي إننا نستطيع الحديث هنا عن مزاج الخلطة ومكرها.

فعندما تكون خلطة الفحم جيدة، تأتي الفضلات على الشبكة الناقلة صفائح متّقدة بسماكة أربعة أو خمسة سنتيمترات. تكون هذه الصفائح قد فقدت حرارتها، فهي هشّة وتتكسر جافةً على شكل قطعٍ تسقط بسهولة عبر مصاريع التفريغ مثل خبز محمّص. يتعجب ملاك الجوع، كيف تمتلئ عربات التفريغ الصغيرة بسرعة ولو ضعف المرء أثناء ملئها بالرفش. أمّا إذا كانت الخلطة سيئة، فإن الفضلات تخرج لزجةً مثل اللافا، بيضاء الاتّقاد ولاصقة. إنها لاتسقط من نفسها عبر الشبكة، بل تزدحم بين مصاريع الفرن. وبواسطة مخل التنظيف يكشط المرء تلك المادة التي تكشط مثل عجينة. لا يستطيع أحد إفراغ الفرن تماماً، ولا ملء عربات التفريغ الصغيرة تماماً، هو عمل مضنٍ وسارق للوقت أيضاً.

أمّا في الخلطة الكارثة، فيصيب الفرنَ إسهالٌ حقيقيّ. لا تنتظر فضلات الإسهال حتى يفتح اللسان القلاب، إنها تسيل من جوانب المصراع نصف المفتوح مثل حبّات الذرة «المَخريّة». لونها أحمر وبريقها أبيض، ومن الأفضل أن لا ينظر المرء إليها، لأنها خطرة وتستطيع أن تسيل خارقةً الثياب. ولأنك لا تستطيع إيقافها فإنها تطفح فوق العربة وتقبرها تحتها. وهكذا يجب أن يغلق المصراع، رغم أنّ القرود السود لا تعرف كيف يمكن لحظتها إغلاقه. على المرء أيضاً أن يحمي رجليه وخفّيه وقماطات القدمين من فيض الجمر، وأن يطفئه بأنبوب الماء ويكشط العربة بالرفش ثم يدفعها صاعدةً على الجبل ثمّ ينظِّف مكان الحادث – وكلّ ذلك دفعةً واحدة. إنه الشؤم بعينه، إذا ماحدث في نهاية الورديّة. لأنك تخسر وقتاً طويلاً جداً، والأفران الأربعة الأخرى لا تنتظر، إذ كان يجب أن تفرغ منذ وقتٍ طويل. يتسارع إيقاع العمل، تسبح العيون بالدمع، تطير اليدان وترتجف الرجلان. أنا أكره، حتى اليوم، فضلات الإسهال.

لكني أحب «فضلات المرّة الواحدة كلّ وردية»، الفضلات الباردة. إنها عاقلة وصبورة ويمكن الوقاية منها. لم يكن، ألبرت جيون وأنا، يحتاج أحدنا للآخر إلا في حالة الفضلات الساخنة. أما الفضلات الباردة فقد أراد كلّ منّا الانفراد بها. إنها مدجّنة وأليفة، لدرجة أنها تحتاج كتفاً حنوناً تستند إليه – إنها غبار رمليّ بنفسجيّ اللون يمكن للمرء أن يجلس إليه وحيداً دون أن ينزعج. كان ذاك الغبار موجوداً في الصفّ الأخير لأفران القبو، وكان له فتحته الخاصّة وعربته الخاصة ذات البطن التنكي وبلا شبكة.

كان ملاك الجوع يعرف مدى حبي لوحدتي مع الفضلات الباردة، كونها لم تكن باردة تماماً، بل فاترة وتميل رائحتها قليلاً لرائحة الليلك والدراق الجبليّ ذي الوبر ولمشمش أواخر الصيف. غالباً ماكانت تذكر رائحتها بانتهاء العمل في الوردية، فبعد ربع ساعة من تكنيسها ينتهي وقت الوردية ولا يمكن بعذ ذلك أن نبُتلى بأيّ شؤم. رائحتها هي رائحة طريق العودة من القبو إلى البيت ورائحة حساء الكانتينه والاستراحة من الشغل، لنقل إنها رائحة العالم المدنيّ، تلك الرائحة التي حولتني إلى رجلٍ بَطِر. لقد جعلتني أتصور أنيّ الآن لست خارجاً من القبو عائداً إلى البراكة بلباسي القطني، بل وكأني أتمشى متنعّماً بقبعة

بورزالينو[1] وبمعطف وبر الجمال وبالشال الأحمر النبيذي في بوخارست أو فيينا ذاهباً إلى أحد المقاهي حيث أجلس هناك إلى طاولة صغيرة من المرمر. هكذا، بحريّةٍ، عاشت تلك الفضلات الباردة، ولقد منحت الآخرين الشعور بخيانة الذات، شعور لا يستطيع الإنسان معه أن يعود إلى الحياة إلا سرقةً. سكرانَ من سمّها تسعد بها فضلاتك الباردة، سعادة بحجم حتمية الموت.

لم ينتظر تور بريكوليتش شكواي عبثاً. ولذلك كان يسأل كلّ بضعة أيام في صالون الحلاقة:

والآن، كيف الأوضاع عندكم في القبو؟

كيف هي الحال في القبو؟

ماهو وضع القبو؟

هل تسير الأمور في القبو على مايرام؟

أو فقط، والآن في القبو.

ولأنني كنت أريد أن أنتزع منه هذا السيف المسلّط، كنت أردد دائماً الجواب نفسه: كلّ وردية هي لوحةٌ فنيّةٌ مكتملة.

لوكان لديه أدنى تصور عن خلطة غازات الفحم والجوع لكان عليه أن يسأل: أين تتسكع في القبو؟ ولكان عليّ أن أجيب، عند الرماد الطائر. لأن الرماد الطائر هو أحد أشكال الفضلات الباردة. إنه موجود في كلّ مكان ويغطي كل القبو بالفرو. أيضاً بالرماد الطائر يمكن أن يسعد المرء. ليس فيه أية سموم، وتراه هائماً على وجهه مشعوذاً. له لون فأر بنيّ، حريريّ الملمس وليس له رائحة. إنّه يتكون من رقاقات وقشور صغيرة جداً. إنها تتطاير فيما بعد نتفاً مفتتةً وعالقةً مثل بلورات الصقيع على كلّ شيءٍ. إنها تغطي بالفرو كلّ سطح. ويشكّل الرماد الطائر مع خيوط شبكة ضوء المصباح قفص سيرك ويملؤه بالقمل والبقّ والبراغيث والنمل. أما النملات فلهن جوانح عرسيّة، يستخدمنها فقط أثناء طيران

1- بورزالينو Borsalino: قبعة رجالية سميت باسم مخترعها الإيطالي، مصنوعة من اللباد أو من شعر الأرانب، تعود إلى أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي.

أعراس الزواج. وقد تعلمت ذلك في المدرسة عنها. حتى إنّي تعلمت أيضاً أن النمل يعيش في معسكرات يحكمها ملك وملكة وفيها جنود. والجنود لهم رؤوس كبيرة. ويوجد جنود حنك وجنود أنف وجنود خاصون بالغدد. والجميع يتم إطعامه عن طريق النملات العاملات. أما الملكة فإنها أكبر بثلاثين مرّةٍ من العاملات. أنا أعتقد أن ذلك هو الفارق أيضاً بين ملاك الجوع وبيني، أو بين بيا تساكِل وبيني، أو بين تور بريكوليتش وبيني.

على ذكر الماء، فإن الماء لا يسيل، الذي يسيل هو الرماد نفسه، حين يشرب ذلك الماءَ. حيث ينتفخ الرماد إلى حجرٍ مانحٍ للنوازل، بل يكبر متحولاً إلى أطفال بيتونيين، يفترسون تفاحات الأعين. إذا مارتبطَ الرماد الطائر بالماء فإنه يصبح ساحراً.

بل ضوء وماء يقعد الرماد الطائر في المكان ميتاً. على حيطان القبو مثل فروٍ طبيعي، على القبعة القطنية مثل فروٍ صناعي، في فتحات الأنف مثل سدادات من الغوما. لم يكن باستطاعتك رؤية وجه ألبرت جيون الأسود كالقبو، كنت ترى بياض عينيه سابحاً في الهواء، وكنت ترى أسنانه. لم أكن أعرف على الإطلاق إذا كان ألبرت جيون مغلقاً فقط أم أنّه حزين فقط. وعندما أسأله، يقول: سأفكّر بهذا الأمر. نحن حمارا قبّان، وهذا تماماً ما أقصده.

بعد نهاية الوردية نستحم في البانيا، وهو حمّام على شكل ساونا بالقرب من باب المعمل. وهناك نفرك رؤوسنا ورقابنا وأيدينا ثلاث مرّات بالصابون، ولكنّ الرماد الطائر يبقى مع ذلك رمادياً والفضلات الباردة بنفسجيّةً. لم يزعجني ذلك أبداً، حتى إنني كنت فخوراً قليلاً، لأن اللونين كانا لونيّ خيانة الذات أيضاً.

رثت بيا تساكِل لحالي، فكّرت للحظة كيف يمكنها أن تصوغ رثاءها بشكلٍ لطيف، ولكنها كانت تعرف أنها ستؤذيني عندما قالت: كأنك ممثل في فيلم صامت، أنت مثل فالنتينو.

كانت لحظتها قد غسلت شعرها، وكانت جديلتها الحريريّة ناعمة، ومازالت مبلّلة بالماء. كانت وجنتاها جيدتي التغذية وقد احمرّتا مثل حبتين من الفريز.

حين كنت طفلاً كنت أركض في الحديقة بينما تشرب أمي قهوتها مع عمتي فيني.

وللمرة الأولى في حياتي أرى حبّةً كبيرة وناضجةً من فاكهة الفريز، وأصيح: تعالوا إلى هنا، إنّ ضفدعةٌ تحترق وتضيء.

أخذت معي من المعسكر حين عدتُ إلى أهلي قطعةً محترقةً من الفضلات الساخنة على عظم قصبة رجلي اليمنى من الخارج. لقد بردت في داخلي وتحولت إلى فضلات باردة. لكنها مازالت تبرق عبر الجلد مثل وشم.

شال الحرير النبيذيّ

قال ألبيرت جيون، صاحبي في القبو، ونحن عائدان من الوردية الليلية إلى البيت: الآن يستطيع الإنسان، حين لا طعام لديه في هذا الحرّ المستطير على الأقل أن يدفئَ جوعه في الشمس. أنا ليس لدي ما آكله وقد ذهبت إلى فناء المعسكر لتدفئة جوعي. كان العشب مازال رمادياً ملبداً ومحروقاً من الجليد، ومازالت شمس آذار محاطةً بأهدابها الفاقعة. كانت السماء فوق القرية الروسيّة من ماء متموج وقد تركت الشمس نفسها تساق كالغنمة. أما أنا فقد ساقني ملاك الجوع إلى كومة الفضلات خلف الكانتينه. لعليّ أجد هناك بعض قشور البطاطا، إذا لم يكن قد وجدها أحد قبلي، فأغلبهم كان مازال في العمل. وحين رأيت فينيا تكلّم بيا تساكل إلى جانب الكانتينه، سحبتُ يديّ من جيوبي، وبدلت حركتي إلى خطوات واحدٍ يتنزه. فأنا لا أستطيع الذهاب الآن إلى كومة الزبل. كانت فينيا تلبس هذه المرة السترة الصوفية الليليكيّة، وهنا خطر شالي الحريري النبيذي في ذهني. بعد الفشل الذي أصابني بالمشدّات الجلديّة قررت ألاّ أذهب ثانية إلى السوق. من يجيد الحديث مثل بيا تساكل! يجيد المتاجرة أيضاً ويستطيع مقايضة شالي ببعض السكر والملح. عرجت فينيا بصعوبةٍ إلى كانتينه خبزها. وحالما وصلتُ إلى بيا سألتني: متى ستذهب إلى السوق. ثم قالت: ربما غداً.

كانت بيا تستطيع الخروج من المعسكر متى شاءت، إذ تحصل على المأذونية من تور، هذا إذا كانت فعلاً بحاجةٍ لمثلها. تركتها جالسةً على المقعد في شارع المعسكر الرئيس تنتظرني بينما أحضر الشّال.

وجدته في أسفل الحقيبة إلى جانب منديل الجيب الأبيض من الباتيستا. منذ شهور لم ألمس ذلك المنديل، لقد كان ناعماً و أصابني بالقشعريرة، وأنا استحيت من مربعات الكارو التي سالت منه عليّ، فقد أهملته كثيراً وهو مازال حنوناً بمكعباته القاتمة المنحرفة واللامعة. لم يتغير في المعسكر، لقد حافظ بنموذجه المكعباتي على نظامه الهادئ كما كان سابقاً. لم يبق لي كما كان، يعني أنني أنا الذي لم أبق له.

عندما أعطيته لبيا، انزلقت عيناها ثانيةً بدورانٍ متأخر فيه شيءٌ من الحول. كانت عيناها

مبهمتين، وقد كان هذا هو الشيء الوحيد الجميل فيها. وضعت الشال على رقبتها، ولم تستطع المقاومة، لقد صالبت يديها ومسحته بيديها الاثنتين. كان كتفاها ضيقين، ممسكين بذراعين نحيلتين وينتهيان في الأسفل بحوضها المنفرش ومؤخرتها العظيمة، إنّها مؤسسةٌ على عظام ضخمة لتشكّل بجذعها الرشيق وبطنها المتماسك قامتين في واحدة.

أخذت بيا الشّال النبيذي معها لتبادله. ولكن، وفي اجتماع (الطابور) صباح اليوم التالي كان تور بريكوليتش يضع شالي على رقبته. واستمر هذا لكامل الأسبوع. لقد جعل من شال النبيذ الحريري علَماً نحييه في طوابيرنا. كما أصبح ترديد الشعار منذ ذلك الحين ليس أكثر من مسرحية إيمائيّة لشالي. ولقد كان لائقاً عليه. عظامي كانت ثقيلةً كالرصاص، شهيقي وزفيري صارا إلى فعلٍ واحد، والعينان دارتا في السماء باحثتين على أطراف الغيم عن مشبك يثبتهما، لكنهما لم تجداه، لأن شالي على رقبة تور بريكوليتش لم يسمح بذلك.

شددت عزمي وسألت تور بريكوليتش بعد انتهاء ترديد الشعار، من أين له بهذا المنديل؟ قال دون تردّد: من البلد، لقد كان دائماً معي.

هولم يذكر بيا إطلاقاً، ثم مضى أسبوعان بعد ذلك اليوم. ومع ذلك لم أحصل من بيا ولا على حبّة سكّرٍ أو ملح حتى الآن. هل لدى هذين الشبعانين أدنى إحساس بعظمة خيانتهم لجوعي؟ ألم يتركاني بائساً، لدرجة يصبح فيها شالي الخاصّ غير مناسبٍ لي. ألم يعرفا أنّه مازال ملكي، مالم أحصل على شيء مقابله. مضى شهر كامل، والشمس لم تعد مملّة. ونَمت الملوخيّة ثانيةً خضراء فضيّة وطال ونما الشبت البري. فخرجت من القبو وقطفت مالئاً كيس مخدتي.

أثناء انحنائي سقط مني الضوء مبتعداً، ولم أرَ إلا شمساً سوداء أمام عيني. طبخت ملوخيّتي، كان طعمها طينيّاً، فأنا لا أملك ملحاً حتى الآن. وتور بريكوليتش مازال يلبس شالي وما زلت أذهب إلى ورديّة المساء في القبو، وأروح بعد انتهائها عابراً أوقات مابعد الظهر الفارغة إلى أكوام الزبالة خلف الكانتينه، تلك الفضلات التي كانت أطيب من سبانخي المزوّر بلا ملح أو بكلمات أخرى حساء ملوخيّة غير مملّح.

في طريقي إلى حاوية الفضلات التقيت ثانيةً ببيا تساكل، فبدأتْ أيضاً هذه المرة هكذا ببساطة تحدثني عن البيسكيدن التي تنتهي في غابات الكاربات. وعندما تحدثت عن مغادرتها لقريتها الصغيرة لوغي وذهابها إلى براغ وحين بدّل تور أخيراً من مبشّرٍ للكنيسة إلى التجارة، قاطعتها سائلاً:

بيا، هل أهديت تور شالي.

قالت: لقد أخذه مني بكل برودة دمه، إنه هكذا. سألتها: كيف؟

قالت: هكذا، سيعيطيك مقابله شيئاً ما بالتأكيد، ربما يوم إجازة.

لم تبرق الشمس في عينيها، وإنما الخوف، ولكن ليس منّي بل من تور.

قلت لها: بيا، ماذا ينفعني يوم الإجازة، أنا محتاج للملح والسّكر.

عن المواد الكيماويّة

الوضع مع الموادّ الكيماوية يشبه وضع فضلات الاحتراق وحالاتها. من يعرف كلّ أنواع الأبخرة التي تتصاعد من تلال الردم وعفونة الخشب وصدأ الحديد وبقايا أحجار الآجر. الأمر لايتعلق فقط بالروائح. فعندما جئنا إلى المعسكر أصاب أعيننا الرعب عندما رأت الدار الكبيرة اللاحقة بمعمل فحم الكوك. لم يكن بالإمكان التصوّر أنّ الحرب وحدها هي التي فعلت كلّ ذلك. إنّ الفساد والصدأ والعفونة والتّلف أقدم من الحرب. قديمة قدم اللامبالاة عند الإنسان وقدم سُميّة المواد الكيميائيّة. لقد رأينا كيف تتعاون المواد الكيماوية لتجبر معملاً على التّحوّل إلى كتلةٍ من دمار. ولكي يحصل مثل هذا الدّمار كان قد حصل قبله إتلاف وحصلت انفجارات في حديد الأنابيب وفي الآلات. فالمعمل كان في سالف أوانه عصرياً جداً، ومن أحدث تقنيات العشرينات والثلاثينات الألمانيّة ومازالت قطع الآلات التالفة تحمل أسماء شركات مثل: **فورستر و مانزمانّ**.

كان على المرء أن يبحث في ذلك الخراب عن أسماء وفي الرأس عن كلماتٍ مستساغة ضد السمّ، لأنه أحسّ، أن تلك المواد ستتابع هجومها وتوجه كيدها ضدنا نحن المعتقلين، وضدّ عملنا الإجباري. أيضاً الروس والرومان وجدوا على قوائمهم في الوطن كلمةً مهذبة للعمل الإجباري: **إعادة البناء**. لقد تمّ نزع سميّة هذه الكلمة. فبما أنّهم قالوا **بناء**، فقد كان عليهم أن يكملوا قائلين **بناءٌ إجباري**.

لأنني لم أستطع أن أتجنب المواد الكيماوية تلك، لأنني كنت تحت رحمتها – افترست أحذيتنا، ثيابنا، أيدينا وأغشيتنا المخاطيّة – قرّرت أن أفسّر روائح المعمل حسب مصلحتي، لذلك أوهمت نفسي بشوارعِ عطرٍ، ثم عودت نفسي على اختراع تسمية ما لكلّ طريق في الفناء: نافتالين، دهنة حذاء، شمع الموبيليا، ورد شتوي، صابون غليسيريني، كافور، صمغ صنوبري، شبّة وزهر الليمون. لقد استطعت أن أصبح مدمناً بتهذيب، لأنّي ماكنت أريد السماح للمواد، أن تسيطر عليّ سميّاً. وأن أكون مهذباً في إدماني لايعني، أنني تآخيت مع تلك المواد. المريح في الأمر كان أنّ المواد الكيماوية تحوي إلى جانب كلمات الجوع والأكل أيضاً كلمات للهرب. ولهذه الكلمات أهميّة جوهريّة في نفسي. كانت لي

هامة ومعذبة، لأنني صدقتها، رغم أني كنت أعرف لماذا أنا أحتاجها.

على الطريق إلى الياما وعلى برج التبريد المليء بالزوايا سال الماء ساقطاً من خارجه باتجاه الأسفل. ولذلك قمت بتعميده وأسميته **باغودي**. تحت البرج استقبل حوض مستدير الماء الساقط. أيضاً في الصيف فاح البرج برائحة المعاطف الشتويّة، برائحة النفتالين. كانت رائحة بيضاء مستديرة مثل كرات العثّ في خزانة بيتنا في الوطن. للنفتالين رائحة سوداء زاويّة كما هو الباغودي. وعندما كنت أمرّ بالباغودي كنت أراه يتحوّل إلى دائرة ويصبح أبيض من جديد. تذكرت نفسي عندما كنت طفلاً، حين كنّا نسافر بالقطار أثناء العطلة الصيفية إلى الفينش. من نافذة القطار كنت أرى عند المرور بالقرب من كلاين كوبّيش شعلة الغاز المحترق. كانت بلون الثعلب الأحمر وأنا مُتَحيِّر كم هي صغيرة تلك الشعلة، ومع ذلك كانت تحوّل حقول الذرة في الوادي بأكمله إلى يُبْس بنيّ بلون الرماد وكأن حقول الذرة تعيش نهايات الخريف.

كانت الحقول عجوزاً في أوج الصيف. وقد تعلّمنا من الجريدة كلمة الشعلة. كلمةٌ سيئة، وكانت تعني، الشعلة تضيء ثانية ولا أحد يستطيع إطفاءها. تقول أميّ، إنهم يريدون الآن جلب دم الجاموس من المسلخ، خمسة آلاف ليتر. إنهم يأملون، أنه سيجمد بسرعة ويسدّ مكان خروجه. أقول أنا للشعلة رائحة معاطفنا الشتويّة في الخزانة، فتقول أمي: نعم، نعم نفتالين.

دهن الأرض، يسميه الروس **نفطاً**. يمكن قراءة هذه الكلمة على عربات المراحيض المتنقّلة. إنه زيت الأرض، ويشرد ذهني إلى النفتالين. ولا في أي مكان في العالم تَخزُ الشمس كما يحدث هنا في زاوية المويكا، خربة غسيل الفحم ذات الطوابق الثمانية. حيث ترضع الشمس دهن الأرض من الإسفلت، إن له رائحة الدهن الشهيّ، مرّ ومالح مثل علبة ضخمةٍ لتلميع الأحذية. كان أبي يضطجع في حرّ الظهر على الديوان ليقضي ساعة نومه، وبينما هو نائم تمسح له أمّي حذاءه. في كلّ مرّة، لا يهمّ متى، أمرّ بها على خربة المويكا ذات الطوابق الثمانية أشعر أنّ الدنيا صارت ظهراً في بيتنا.

لكل بطارية كوك من الثماني والخمسين رقم، حيث تنتصب تلك البطاريات بشكلٍ

عمودي مثل نعوش مفتوحة في صفّ طويل. من الخارج حجارة آجريّة وهي مبطّنة من الداخل بالطوب الحراريّ المسحوق. وأفكّر **بالعتّ الخجول والمعلوف جيّداً**. على الأرض تلمع حُفرٌ من الزيت. والطوب الحُبيبي بَرْعمَ بالبلورات مثل قشرة الجرح الصفراء. له رائحة أجمات الورد الشتوي الأصفر في دار السيد كارب. أما هنا فلا ينبت إلا عشب ممتقع من سُميّته. يضطجع الظهر في الريح الساخنة، أما بقايا العشب القليلة فإنها مصابة بسوء التغذية مثلنا. إنها تجرجر وزنها جرجرةً وتحمل سيقاناً متموجة.

حلّ وقت ورديتنا الليلية، ألبرت جيون وأنا. في المساء أذهب إلى القبو، مارّاً بكلّ تلك الأنابيب، بعضها مغلف بالصوف الزجاجيّ، والباقي عريان وصدئ. ارتفاع بعضها يصل الركبة، والبعض الآخر يتجاوز قحفة الرأس. يجب عليّ أن أمشي مرّةً على الأقلّ بشكلٍ موازٍ لأحد الأنابيب وفي كلا الاتّجاهين. مرّة على الأقلّ عليّ أن أعرف من خلال واحدٍ منها من أين تأتي وإلى أين تذهب؟ ومع ذلك فإنني لن أعرف، ماذا تنقل بداخلها، هذا إذا كانت فعلاً تنقل شيئاً. عليّ أن أسير مرّةً واحدةً على الأقل إلى جانب أحد تلك الأنابيب، واحدٍ من تلك التي يتصاعد منها البخار الأبيض، فهي بالتأكيد تنقله، بخار النفتالين. يجب أن يكون هناك من يستطيع، ولو مرّة على الأقل، أن يشرح لي كامل معمل فحم الكوك. فمن جهةٍ أحبّ أن أعرف ماذا يحدث هنا. ومن جهة أخرى لا أعرف، إذا كانت العمليات التقنيّة، التي لها أيضاً مسمياتها، ستزعج كلمات الهروب التي اخترعتها. أنا لا أدري إذا كنت سأستطيع حفظ أسماء كل تلك الهياكل في الطرق وعلى المهارب. يفحّ الأنبوب نافثاً البخار الأبيض من صماماته، إنه يهتزّ تحت الأرض. هناك يرنّ جرس ربع الساعة للبطاريّة الأحاديّة وبعد قليل سيدقّ جرس الثنائيّة. وخلف الشفّاطات يتنزّه القمر في الباديّة. في مثل هذه الليالي كنت أستطيع في الوطن أن أرى جَمال بنايات المدينة الصغيرة من بيتنا، أرى جسر الكذب وأرصفة عقلة الأصبع وبجانبها مؤسّسة الرهانات شاتس كيستلاين. وأرى أيضاً الموسيللي، أستاذ الكيمياء.

الصمامات آبار نفتالين في غابة الأنابيب، ينقط منها الماء. في الليل ترى كم هي بيضاء حنفيات الأنابيب! هي مختلفة عن الثلج، فهي بيضاء سائلة. الأبراج سوداء، لكنّها تختلف

مع ذلك عن الليل، فسوادها شوكيّ. أما القمر فله حياته هنا وواحدة أخرى في الوطن فوق جمال المدينة الصغيرة.

وله هناك مثل هنا فناء لداره، يحترق فيه الضوء طوال الليل ليضيء له متاعه الأزلي – كنبة قماشيّة وآلة خياطة. للكنبة القماشيّة رائحة زهر الليمون، ولآلة الخياطة رائحة شمع الموبيليا.

كلّ إعجابي أهديه لبرج القطع المكافئ، **الشيخة**، برج التبريد البديع، ارتفاعه مئة مترٍ بالتأكيد. لمشدّه المشرّب بالأسود رائحة صمغ الصنوبر. أما غيمة التبريد البيضاء والتي لا يتغيّر حجمها أبداً، فقد كانت من بخار الماء. ليس لبخار الماء رائحة، رغم أنّه ينشّط أغشية الأنف المخاطيّة ويزيد من قوّة كلّ الروائح الأخرى الموجودة وينشّط اكتشاف كلمات الهروب. ملاك الجوع وحده مازال يستطيع التضليل مثل الشيخة. إلى جانب برج القطع المكافئ انتصب جبلٌ من السماد الصناعي، سماد صناعي من زمن ماقبل الحرب. قال كوبليان: إنه سماد اصناعي، إنه أيضاً من مشتقات الفحم.

يشي دويّ كلمة **مشتقّ** بالعزاء. يلمع سماد ماقبل الحرب الصناعي من بعيد مثل الصابون الغليسيريني في السّيللوفان. وأعود لطفولتي، فعندما كنت في الحادية عشرة من عمري في بوخارست صيف 1938، ولأوّل مرّة في كاليا فيكتوراي، المتجر الحديث، في قسم البونبون الطويل بطول الشارع. نفَسٌ حلوٌ في الأنف، والسيللوفان يخشّ بين الأصابع. إنّه يملؤني بالبرودة ويفيض بي من داخلي ساخناً. كانت أوّل مرةٍ ينتصب فيها عضوي الذكريّ. كان يطلق على المتجر أيضاً الاسم سورا – أي الأخت، وكان سماد ماقبل الحرب مطبّقاً في شرائح متماسكة، لونه أصفر شفاف، أخضر مثل الخردل ورمادي. كلّ مايفوح منه من رائحة مرٌّ مثل الشبّة. كان عليّ أن أثق بحجر الشبّة، فقد كان مهدئاً للدم. نَمتْ بعض النباتات هنا وتغذّت على الشبّة فقط، وحين كانت تزهر، تظهر منها بتلات ليليكيّة مثل دم مطفأ. وفيما بعد أثمرت الزهرات حبّاتٍ مدهونةً بالرّمادي مثل الدم الجاف لكلاب الأرض في عشب الباديّة.

ينتمي الأنتراسين أيضاً إلى المواد الكيماويّة. كان يتوضّع على كلّ الطرق مفترساً أخفاف

الغوما. الأنتراسين رملٌ زيتيّ، أو زيت تبلور إلى رمل. وعندما يدوس الإنسان عليه، يصبح زيتاً من جديد، أزرق حبريّاً وأخضر فضّياً مثل فطرٍ مدهوس. للأنتراسين رائحة الكافور.

ورغم كلّ شوارع العطر وكلمات الهروب كان له بعض الأحيان رائحة بانيو البولي إتيل كلوريد بزفته الفحمي. منذ تسممي بضوء النهار صرت أخاف منه، وينتابني الفرح لوجود القبو.

يجب على القبو أن يحوي موادّ لا يراها الإنسان ولا يشمّها ولا يستطعمها. إنها الأكثر غدراً بين الجميع. ولأنني لا ألحظها لا أستطيع إعطاءها أسماء هروب. إنها تختبئ عنّي ثم تسوق أمامها الحليب المطلوب. بعد انتهاء الورديّة نحصل مرّة في الشهر، ألبرت جيون وأنا، على حليبٍ صحيّ لنتحصّن ضد مواد لا ترى، كي يصبح تسمّمنا أبطأ من تسمّم يوري الروسي، الذي كان يعمل مع ألبرت جيون في القبو قبل تسمّمي بضوء النهار. ولكي نصمد أكثر نحصل مرّةً في الشهر في تخشيبة حارس المعمل على نصف ليتر من الحليب الصحيّ في وعاءٍ تنكيّ. إنها نعمةٌ قادمةٌ من عالم آخر. إن لها طعم شيءٍ يستطيع أن يبقى على قيد الحياة، لو أن هذا المرء غير موجود عند ملاك الجوع. أنا أصدّق أن هذا الحليب يساعد رئتيّ، وأصدّق أن كلّ جرعة منه تؤجّل التسمّم مثل ثلج نقيّ لايقارن، الثلج الذي فوق كلّ المقارنات. كلها، كلّها، كلّها.

وآمل كلّ يوم أن يبقى تأثير الحليب طوال الشهر وأن يحرسني. آمل دون أن أكون واثقاً من نفسي، ومع ذلك أقول: أنا آمل أن يكون الحليب الطريّ أختاً لمنديل جيبي الأبيض، أختاً لا أعرفها. وأن يكون الرغبة الطليقة لجدتي، أنا أعرف أنك ستعود.

من بدّل الأرض بأخرى

زارني الحلم نفسه ثلاث ليالٍ متتالية. مرّةً ثانيةً أراني راكباً خنزيراً أبيض عبر الغيوم إلى الوطن. ومن فوق السماء أخذت البلاد هذه المرّة شكلاً آخر. لابحر على محيطها ولا جبال في الوسط أبداً، لا كاربات. أرض منبسطةٌ ليس فيها بلدةٌ واحدة، ويملأ الشوفان الأمكنة، وقد أصبح خريفياً أصفر.

سألتُ: من بدّل هذه الأرض؟

نظر إليّ ملاك الجوع من السماء وقال: أمريكا.

سألتُ: وأين هي زيبِن بورغِن؟

قال: في أمريكا.

سألتُ: وأين ذهب الناس؟

بعد ذلك لم يقل ملاك الجوع شيئاً.

وفي الليلة التالية لم يجب بشيء على سؤالي أين ذهب الناس. ولا في الثالثة. وهذا ماسرق مني راحة البال طوال اليوم التالي. أرسلني ألبرت جيون بعد انتهاء الوردية إلى تسيتِّر لومّر في برّاكة الرجال الأخرى. وقد كان هذا الأخير معروفاً كمفسّر أحلام. خضّ تسيتِّر لومّر ثلاث عشرة حبّةً من حبّات الفاصولياء السميكة في طاقيتي القطنيّة ثم قلبها على غطاء الحقيبة ودرس الثلاثة عشر بُعداً مُقارِناً فيما بينها. بعدئذ درس ثقوب الدود في الحبّات والغضون والخرمشات على كلّ واحدةٍ فيها، ثم قال زاعماً أنّ بين الحبّة الثالثة والتاسعة شارعاً وأن السابعة هي أميّ. والثانية والرابعة والسادسة والثامنة هي عجلات، لكنها عجلات صغيرة، والعربة هي عربة أطفال، عربة أطفال بيضاء.

اعترضت على كلامه حول عربة الأطفال وقلت له: لم يعد من الممكن أن يكون لدينا عربة أطفال في البيت، لأن أبي حوّلها فوراً إلى عربةٍ للشراء مذ صرت أستطيع المشي. فسأل تسيتّر لومّر: عمّا إذا كانت تلك العربة المحوّلة بيضاء، ثمّ أشار إلى الرقم تسعة، وتابع زعمه أنّ في العربة رأساً بقبعة زرقاء، وربما يكون صبيّاً أيضاً. وضعت طاقيتي على رأسي ثانيةً وسألت: إذا كان يرى شيئاً آخر غير ماقاله، فأجاب: لاشيء غير ذلك.

كان معي قطعة خبزٍ كنت قد وفرتها في جاكيتي، لكنّه لم يطلب منيّ شيئاً، لأنها مرّتي الأولى كما قال. ولكنّي أعتقد أنّه لم يأخذ منيّ شيئاً، لأنّه رأى أن كلماته أحبطتني.

عدتُ إلى براكتي، لم أحصل من مفسّر الأحلام على أية معلومات حول زيبِن بورغِن وأمريكا، ولا عن الوجهة التي ذهب إليها الناس. ولا شيء حتى عنيّ. قلت بيني وبين نفسي: خسارة حبات الفاصولياء تلك، ربما تآكلن من كثرة ماحلم الناس هنا في المعسكر. كان يمكن صنع حساء طيّبٍ بهنّ.

دائما أوهم نفسي بأنّي لا أملك إلا القليل من العواطف. وعندما يقع شيء في قلبي، فإن هذا الشيء لا يستوعبني إلا قليلاً. أنا تقريباً لا أبكي أبداً. أنا لست أقوى من أولئك أصحاب العيون المبلّلة، بل أضعف منهم. إنهم يثقون بأنفسهم. عندما يكون المرء من جلد وعظم فقط، تكون العواطف شجاعة. أنا أفضّل أن أكون جباناً، فالفرق بسيط، وأنا أستخدم قوتي، كيلا أبكي. عندما يكون بمقدوري مرّةً أن ينتابني شعور عاطفيّ، أدير موطن العلّة بما يلائم حكاية تصرُّ بقسوةٍ على دفن الحنين إلى الوطن. كأن تتمسّك مثلاً برائحة جوز الكستناء المشويّ، وهذا يعني ثانيةً الحنين إلى الوطن. إنّهن جوزات كستناء الإمبراطورية النمساوية الهنغارية برائحة الجلد الطري، هنّ فاكهة حكى لي جديّ عنها.

كبحار في ميناء بولا كان يقشّر الكستناء ويأكلها قبل أن يبدأ رحلة التجديف حول العالم بسفينته الشراعية **الّدانوب**. وبالتالي يكون انعدام حنيني للوطن هو حنين جدي المحكيّ للوطن، والذي به أدجّنُ شوقي الحالي. هذا يعني: عندما ينتابني شعور ما، يكون هذا الشعور رائحة، رائحة كلمة كستناء أو بحّارة. مع الوقت تصبح رائحة كلّ كلمة طرشاء مثل حبات فاصولياء تسيتّر لومّر. يمكن للإنسان أن يتنكّر إذا لم يعد قادراً على البكاء. والذي يمنعني من أن أصير غولاً، هذا إذا لم أكن قد صرت منذ زمنٍ طويل، ليس كثيراً، هو في حالته القصوى جملة: أنا أعرف أنّك ستعود.

منذ فترة طويلة وأنا أدرّبُ حنيني إلى الوطن وأعلّمهُ كيف يحافظ على عينيه جافّتين. والآن أريد أيضاً أن يصبح هذا الحنين سيّداً. بعدها لن يرى حالتي هنا ولن يسألني عن أولئك الذين في الوطن. وبعدئذٍ لن يسكن ذاكرتي أيّ شخصٍ يسكن في الوطن، ستسكنها

الأشياء فقط. فأزيحها غادية رائحة إلى النقطة الجرح موطن العلّة، مثلما يجرّ المرء قدميه في رقصة البالوما. فالأشياء تكون كبيرة وصغيرة، وربما يكون بعضها ثقيلاً جدّاً، لكنها كلّها بمعيار.

وإذا ماحصل ذلك، يصير حنيني إلى الوطن غير قادرٍ على استقبال الشوق. فإذا هو جوع فقط، جوع إلى البلدة التي كنت فيها مرةً شبعانَ.

إنسان البطاطا

أكلت بطاطا مدّة شهرين بالإضافة إلى علف كانتينه المعسكر. شهران من البطاطا المسلوقة، بتوزيع صارم، مرةً قبل الطعام بوصفها مقبّلات، ومرة بوصفها وجبة رئيسة ومرةً بعد الطعام بوصفها تحلية (دوسير).

كانت بطاطا المقبلات مقشّرة وممّلحة ومرشوشة بالشبت البريّ. كنت أحتفظ بالقشور، لأنني كنت أحصل في اليوم التالي على الوجبة الرئيسة على قطع بطاطا مربعة الشكل مسلوقة مع معكرونة. ومعكرونتي هذه ليست إلا قشور بطاطتي من اليوم السابق مضافاً إليها القشور الجديدة من اليوم. أما الدوسير، فقد كان في اليوم الثالث وهو بطاطا غير مقشّرة، مقطّعة في شرائح ومحمّصة على النار، ومرشوشة بلبّ حبوب الشوفان البريّ المحمّصة وبعض السّكر. استعرت من ترودي بيليكان نصف مكيالٍ من السكر ونصف مكيال ملح. ومثلنا جميعاً فكّرت ترودي بيليكان أنّه وبعد السلام الثالث سيسمح لنا قريباً بالعودة إلى الوطن. أخذت بيا تساكل معطف ترودي بيليكان ذا القصّة الجرسيّة ومانشيتات الفرو الجميلة وقايضت لها به في السوق مقابل خمسة مكاييل سكّر وخمسة مكاييل ملح. لقد نجحت المقايضة بالمعطف النسائي أكثر من المقايضة بشالي الحريري، والذي مازال تور بريكوليتش يرتديه دائماً أثناء اجتماع ترديد الشعار، لكنّه لا يرتديه في كلّ وقت. فهو لا يرتديه إطلاقاً في حرّ الصيف. وإذا مابدأ الخريف فإنّه يرتديه مرّة كل بضعة أيام. وأنا أيضاً كنت أسأل بيا تساكل كلّ بضعة أيام، متى سأحصل منها أو من تور على ثمن الشال.

بعد اجتماع المساء ودون الشال الحريري على كتفيه طلبني تور بريكوليتش إلى مكتبه وطلب معي زميلي في القبو ألبرت جيون والمحامي باول غاست. كانت رائحة براندي الشوندر السكّري الكريهة تفوح منه. لم تبدُ عيناه فقط، بل كانت حركة فمه بالكامل مزيّتةً. شطب أمامه على القائمة بعض الأعمدة وملأ أعمدةً أخرى بأسمائنا موضحاً، أن ألبرت جيون لن يذهب غداً للعمل في القبو، وأنا أيضاً لن أذهب إلى القبو وأنّ المحامي لن يذهب إلى المعمل. في أعمدة ملاحظاته على القائمة قام لحظتها بإضافة شيء آخر، ما أدى

إلى اضطراب الجميع. عاد تور بريكوليتش إلى البداية وأوضح ثانيةً: على ألبرت جيون أن يذهب غداً كعادته كلّ يوم إلى القبو، ولكن ليس معي وإنما مع المحامي. وعندما سألت، ما السبب؟ أطبق تور حواجبه على عينيه نصف إطباقة وقال: لأن عليك غداً في السادسة تماماً أن تذهب إلى الكولخوز، تذهب من دون أمتعة وتعود مساءً. وعندما سألت، كيف، قال: كيف يعني؟ مشياً على الأقدام! على يدك اليمنى تمرّ بثلاث تلاّتٍ من الردم، تستمر ماشياً على جهتها حتى يأتيك الكولخوز عن يسارك.

لقد كنت متأكداً أن ذلك لن يكون ليوم واحد فقط، ففي الكولخوز كان يموت العاملون بسرعة أكبر، كانوا يعيشون في حفرٍ في الأرض، خمس أو ستّ درجات إلى الأسفل والسطح من أغصان جافّة وعشب. من فوق أولئك الساكنين يتسرب المطر نازلاً على رؤوسهم ومن تحت يصعد إليهم الماء الباطني. كانت مخصصات العامل لا تزيد عن ليتر من الماء في اليوم من أجل الشرب والغسيل. لم يجع أحد منهم، لكنّهم كانوا يعطشون كثيراً في ذلك الحرّ. وبسبب الوسخ والحشرات التهبت الجروح وتقيّحت وأصابها الكزاز. عمال المعسكر كلّهم كانوا يخافون العمل في الكولخوز. لقد كنت متأكّداً، أنّه بدلاً من أن يدفع لي ثمن شالي سيتركني تور بريكوليتش أنفق في الكولخوز، وهكذا يرث الشال من بعدي.

انطلقتُ في السادسة صباحاً ومعي مخدتي في جاكيتي، لربما وجدت شيئاً يمكن سرقته في الكولخوز.

صفرت الريح فوق حقول الشوندر والأعشاب، وتمايل العشب برتقالياً، وبرقت حبات الندى موجات موجات. بين تلك الأعشاب انتصب نبات الملوخيّة ناريّ المحيّا. جاءت الريح من الأمام، واجتاحتني البادية بكاملها وأرادت أن أنهار، فقد كنتُ نحيلاً، وكانت الريح نهمة. خلف حقلٍ من العشب وقطعة أرض ضيّقة من شجر الأكاسيا بانت أوّل تلّةٍ من الردم مطلّةً على حقلٍ من العشب وخلفه حقلُ ذرة. ثمّ جاءت تلّة الردم الثانية. واقفةً على أرجلها الخلفيّة نظرت كلاب الأرض من فوق العشب بظهورها ذات الفرو البنيّ وأذنابها التي لاتتجاوز طول الإصبع وبطونها العارية. كانت تومئ برؤوسها واقفةً

على رجليها الأمامية المضمومة بعضها إلى بعض مثما يضم الإنسان يديه للصلاة. أمّا آذانها، فقد نمت على جانبي الرأس كالبشر. أومأت برؤوسها لثانيةٍ أخيرة ثمّ اهتزّ العشب الفارغ فوق ثقوبها الأرضيّة، ولكن لا كما تفعل الريح.

مالفت نظري الآن أنّ كلاب الأرض تحسّ بوحدتي الماشية من غير حراسة في هذه البريّة. كلاب الأرض دقيقة في غرائزها، إنها تصلّي للهروب، قلت في نفسي. والهروب الآن ممكن، لكن إلى أين؟ لربما أرادت كلاب الأرض تحذيري، أو ربما كنت الآن هارباً. نظرتُ حولي، فربما كان يلاحقني أحدٌ. كان ظلان يسيران خلفي في البعيد، كأنهما رجل وطفل، مايحملانه معهما كان رفوشاً قصيرة العنق وليست بنادق. أمّا السماء فقد انشدّت مثل شبكةٍ زرقاء فوق البادية، خارجةً في البعيد من الأرض دون أية فراغات في نسيجها.

حصل الهروب من المعسكر ثلاث مرات حتى الآن. والثلاثة كانوا من كاربات أوكرانيا، من منطقة تور بريكوليتش نفسها. كانوا يتكلمون الروسيّة بشكلٍ جيّد، ومع ذلك فقد قبضوا عليهم جميعاً. شوّهوهم من شدّة الضرب أمامنا في اجتماع ترديد الشّعار. بعد ذلك لم نرهم إطلاقاً، لقد أرسلوا إلى معسكر تأديب استثنائي أو إلى القبر.

الآن أرى على اليسار تخشيبةً وشرطيّ حراسة مسلّحاً بمسدّس في حزامه. كان فتىً صغيراً ونحيلاً، أصغر مني بمقدار نصف رأس، وكان ينتظرني، لقد أومأ لي. لم يتسنَّ لي الوقوف حين وصلت إليه، كان مستعجلاً من أمره حيث أخذني معه ومشينا بموازاة حقول العشب. كان يأكل بذر عبّاد الشمس آخذاً بذرتين خلف بذرتين كل مرّة في فمه، يتشنّج حنكه لبرهة ثم يبصق من إحدى زاويتي فمه القشور وعبر زاوية فمه الأخرى يتلقف الدفعة الجديدة من البذر، لتطير القشور من جديد من غير استراحات. كنّا ماشيين بسرعة توازي اختطافه لبذر عباد الشمس. وقلت في نفسي: ربما يكون الفتى أخرس. لم يتكلم ولم يتعرّق وحركات فمه البهلوانيّة لم تغادر إيقاعها. كان ذاهباً وكأنّه مركّبٌ على عجلات والريح تجّره. كان يصمتُ ويأكل مثل آلة تقشير.

أخذني الحارس بعد ذلك من يدي حيث بقينا واقفين. عشرون امرأة تقريباً كنّ موزعات

في الحقل. لم يكن في أيديهن أية أدوات عمل، كنّ يستخدمن أيديهن في الحفر وإخراج حبّات البطاطا من الأرض. وهناك فرزني الحارس لأعمل في أحد الخطوط. جحظت الشمس جامدة مثل جمرةٍ في وسط السماء. وبدأت أجرف بيدي، وكانت الأرض قاسيّة. فرقع الجلد وفي الجروح اشتعلت الأوساخ العالقة. وعندما أرفع رأسي، تطير أمام عيني أسراب من النقاط البرّاقة. في الرأس تعثّر الدم، وفي الحقل كان ذلك الفتى المسلّح بالمسدّس مديراً إلى جانب كونه حارساً، كان قائداً ورئيس عمال ومفتّشاً، كلّ ذلك في واحد. عندما كان يضبط النساء في الحديث، كان يضربهنّ بنباتات البطاطا على وجوههن أو يحشو أفواههن بحبات بطاطا متعفّنة. ولم يكن أخرس، غير أنّي لم أكن أفهم كلمات صراخه. فهي لم تكن شتائم فحميّة ولا أوامر من تلك التي نسمعها عادة في ورشة البناء ولا مسبةً من مسبّات القبو.

شيئاً فشيئاً أدركت أمراً آخر، وهو أنّ اتفاقاً حصل بين ذلك الفتى المسلّح وبين تور بريكوليتش، وهو أن يتركني أعمل اليوم كلّه ثم يقوم برميي بالرصاص حين يأتي المساء بتهمة محاولة الفرار. أو أن تقوم الجماعة هنا بإخفائي في إحدى الحفر حين يحلّ المساء، في حفرة شخصيّة جداً، لأنني كنت هنا الذكر الوحيد. أو أن لا يخفوني فقط الليلة، بل كلّ ليلة بدءاً من اليوم، بحيث لا أعود أبداً إلى المعسكر.

وحين جاء المساء صار الفتى الخفير، إلى جانب كونه حارساً، رئيساً وقائد مجموعة ورئيس عمال ومفتّشاً وقائد معسكرٍ أيضاً. إذ وقفت النسوة مصطفاتٍ في رَتْل التفقّد، قلن أسماءهنّ وأرقامهن ثم نفضن جيوب البوفايكا وعرضن حبات البطاطا في يديهن اليسرى واليمنى للتفتيش، كان يسمح لهن الاحتفاظ بأربع حبات، في كلّ يدٍ حبتان متوسطتا الحجم. وحين تكون إحدى الحبّات كبيرة، يتم تبديلها. وقفت في آخر الصفّ وعرضت ما في كيس مخدتي للتفتيش. كانت مملوءةً بسبع وعشرين حبّة بطاطا، سبع منهن متوسطة الحجم والعشرون الأخريات كبيرات. وأنا أيضّاً سمح لي بالاحتفاظ بأربع حبّات بطاطا، أمّا الباقي فكان عليّ إعادته. سأل الرجل المسلّح بالمسدس عن اسمي. قلت: ليوبولد أوبيرغ. فما له إلا أن أخذ حبة بطاطا متوسطة الحجم، وكأن لهذا علاقة ما

باسمي، وشاطها بحذائه لتمرقَ فوق كتفي، حيث أملت برأسي هارباً من دربها. الثّانية لم يركلها بقدمه، بل أخذها وقذف بها باتّجاه رأسي ثم أخذ مسدسه وأطلق الرصاص عليها، حيث أصابها وفتتها هي ودماغي. ورأى، بينما كنت غارقاً في تفكيري، كيف دسستُ كيس المخدّة في جيب بنطالي. لكنه أخذني بعد ذلك من ذراعي، وأخرجني من الصفّ ثم أشار، وكأنه عاد أخرس من جديد، في المساء إلى البادية، هناك حيث جئت صباح اليوم. تركني واقفاً حيث أنا، وأعطى النسوة أمراً بالسير في الاتجاه الآخر، ومشى هو خلف المجموعة.

كنت واقفاً على طرف الحقل، وأراه يسير مبتعداً مع النسوة وأنا على يقين من أنه سيترك مجموعته بعد قليل ويعود. ومن دون وجود شهود سيعلو صوت الرصاص ويقولون: قتل أثناء فراره.

سارت المجموعة على شكل أفعى رماديّة وصارت تصغر كلما ابتعدت، انتصبت كأني نبتُّ هناك أمام كومة البطاطا الكبيرة وبدأت أؤمن، أنّه لايوجد أيّ اتفاق بين تور بريكوليتش والخفير وإنما بيني وبين تور بريكوليتش. وأنّ كومة البطاطا هي الاتّفاق. وأن تور يدفع لي الآن بطاطا مقابل الشال الحريري.

حشوت نفسي بالبطاطا من جميع الأحجام حتى أسفل القبّعة. وأحصيت ماحشوت، كان عددهن مائتين وثلاث وسبعين حبّة بطاطا. قام ملاك الجوع بمساعدتي، فقد كان لصّاً مشهوراً. لكنّه وبعد أن ساعدني، أصبح جلاداً مشهوراً وتركني وحيداً مع الحنين الطويل إلى الوطن.

مشيتُ، وعلى الفور بدأ جسمي يحكّني في كلّ جزءٍ منه. قملُ الرأس وقمل الرقبة وما خلفها والإبط والصدر وفي شعر العانة قمل العانة. أما مابين أصابع الرجل وعلى عصابات الرجل القماشيّة وتحت الخفّ فقد كان يحكّني مهما كانت الأحوال. من أجل هذا الهرش كان عليّ أن أرفع الذراع، وهذا مالم أستطعه بسبب امتلاء الأكمام. على المرء أن يطوي ركبه أثناء المشي، وهذا مالم أستطعه بفردتي بنطالي المحشوتين. جررتُ ساقيّ تاركاً خلفي أولّ تلّة ردم. والثانية جاءت ولم تأتِ، أو أنها انتصبت في مواجهتي. لقد

كانت البطاطا التي شحنتها معي أثقل منّي. للوصول إلى التلة الثالثة كان الظلام قد صار شديداً جداً، والنجوم قد رُبطت متدليّة من حارات السماء.

يمتدّ دربُ التبّانة من الجنوب إلى الشمال، كان الحلاق أوسفلد إنييتر قد قال ذلك مرّةً، عندما اقتيد ثاني أبناء بلده بعد فشله في الهرب في ساحة المعسكر.

قال الحلاق: لكي تصل إلى الغرب عليك أن تعبر درب التبّانة ثم تنحرف إلى اليمين، ثم تتابع إلى الأمام، وتبقى دائماً على يسار الميزان الكبير. لكنني لم أجد لا التلّة الثانية ولا الثالثة، اللتين كان عليهما الظهور الآن على اليسار في طريق العودة. الأفضل أن تبقى محاطاً بالحراسة على أن تحاط بالخسارة. حمل شجر الأكاسيا وحملت نباتات الذرة ومعها خطواتي أيضاً عباءَةً سوداء. وأطلّت رؤوس النباتات العشبيّة صوبي وكأنها رؤوس بشر بتسريحاتٍ وقبعاتٍ مختلفة. القمر وحده كان يحمل قلنسوةً بيضاء غارزاً أصابعه في وجهي مثل ممرّضة. قلتُ في نفسي، ربما لا أحتاج لهذه البطاطا بعد الآن، فربما قد تسممت في القبو وانتهى الأمر، وأنا الآن مصاب بمرض مميت من دون أن أدري. من صوب الأشجار سمعت صيحات طيورٍ وأصواتاً حزينة آتيةً من بعيد، وسرت أشباح الليل في لحظة لا يسمح لي فيها أن أخاف، لأنني إن خفت غرقت. صرت أتحدّث مع نفسي، كي لا أضطّر للصلاة:

الأشياء الأبديّة لا تتبدّد، وهي لا تحتاج إلا إلى علاقةٍ وحيدةٍ لاتتغير مع الكون أبداً. إن علاقة البادية بالكون هي علاقة ترصّد، وعلاقة القمر به علاقة نورانيّة، وعلاقة كلاب الأرض بالكون هروبيّة، أما علاقة الأعشاب بكونها فهي نوّاسيّة. وعلاقتي أنا بالكون هي الطعام. صرَّتِ الريح وسمعت صوت أمي. في الصيف الأخير كنا جالسين إلى مائدة الطعام في البيت، ولم تكن أمّي بحاجة لأن تقول لي، لا تنخز حبة البطاطا بالشّوكة، إنّها تتفتت، الشوكة نستعملها من أجل اللحم. ماكانت أمي تستطيع أن تتصوّر أنّ البادية تعرف صوتها، وأن هذه البطاطا ستشدني مرّةً في الليل صوب الأرض وأن النجوم كلّها تخرّ من الأعلى.

أنّه سيأتي وقت أجرّ به نفسي مثل خزانة عبر الحقول وبيادر العشب وحتّى باب

المعسكر، أمرٌ لم يخطر على بال أيّ من الجالسين على الطاولة يومئذ، كما أنّه لم يخطر ببال أحدٍ يومها أنّي سأصبح بعد ثلاث سنوات فقط رجلاً من البطاطا، وحيداً في الليل، أسمّي طريق عودتي إلى معسكر طريق بيتي.

عوت الكلاب على باب المعسكر بأصواتِ ليلِ سوبرانية عالية، أصوات كانت تشبه دائماً البكاء. ربما اتفق تور بريكوليتش أيضاً مع الحرّاس، لأنّهم أشاروا لي فوراً بالدخول، الحراس لم يفتّشوني. وسمعتهم خلفي يضحكون، وأحذية تصفّق على الأرض. فأنا لم أكن أستطيع الالتفات محشواً كما أنا، ربما قام أحدهم بتقليد مشيتي الجامدة.

أخذت معي لألبرت جيون خلال الأيام الثلاثة التي تلت ثلاث حباتٍ من البطاطا المتوسطة الحجم على وردية العشاء. ربما يريد أن يأكلها على مهله الشديد على النار في الخلف، حيث يشويها على الموقد الحديديّ المفتوح. هو لا يريد، هو يترقبها كلّ واحدة بمفردها ثم يضعها في قبعته. هو يسأل: لماذا 273 حبة بطاطا بالتمام.

لأن ناقص 273 درجة سيلزيوس هي درجة حرارة الصفر المطلق، أقول، لا يوجد أبرد منها.

ثم يتابع، أنت اليوم على علاقة بالعلوم الطبيعيّة على مايبدو، أنت أخطأت حساباتك بالتأكيد.

لا يمكن أن أكون قد أخطأت، أقول أنا، فالرقم 273 ينتبه إلى حاله، هو مسلّمةٌ.

مسلّمةٌ، يقول ألبرت جيون، كان عليك أن تفكّر بشيء آخر. ليو، أيها البشري، كان يمكنك الفرار.

أعطيت ترودي بيليكان عشرين حبة بطاطا وبذلك دفعت ثمن السّكر والملح. وبعد شهرين، قبل أعياد الميلاد بفترةٍ وجيزة انتهت ال 273 حبة بطاطا. فقد حصلت الأخيرات بينهن على عيونٍ حاسدة بلونٍ أخضر مزرقّ مثل تلك التي لبيا تساكل. وتناقشت مع نفسي، فيما إذا كان عليّ أن أقول لها ذلك يوماً ما.

السماء تحت والأرض فوق

في البيت الصيفي على الفينش وعميقاً في حدائق أشجار الفاكهة كان مقعد خشبيّ بلا مسند. وقد أعطينا ذلك المقعد اسماً هو العمّ هيرمانّ، لأننا لا نعرف أحداً بهذا الاسم. كان للعم هيرمان قائمتان مدوّرتان مزروعتان في الأرض، كانتا من جذوع الشجر. كان مكان القعود أملس وناعماً فقط على سطحه الخارجي، أما على جهته السّفلى فقد احتفظ بلحائها، وحين تكتنز الشمس ساطعة على العم هيرمان كان يعرق ويقطر منه الراتينج. وإذا قطفت ذلك الصمغ عنه، فإنه لايلبث أن يعود ويبرز منه في اليوم التالي.

على تلّة عشبٍ فوق العمّ هيرمان انتصبت العمّة لوئيا. وللعمة لوئيا مسند وأربعة قوائم، وهي أصغر وأضعف من العم هيرمانّ وأقدم منه، فهي السلف وهو الخلف. من أعلى التلة قرب العمة لؤيا تركت جسدي على ذلك المنحدر يتدحرج إلى الأسفل. حيث رأيت السماء تحت والأرض فوق وبينهما العشب، العشب الذي أمسكني وثبّت رجلي، كيلا أسقط في السماء، حيث رأيت بطن العمة لوئيا الرمادي دوماً.

في أحد المساءات جلست أمّي على العمة لوئيا واضجعت أنا على العشب أمام قدميها. كنا ننظر إلى الأعلى حيث حضرت النجوم جميعها. سحبت أمي قَبّة كنزتها الصوفية فوق ذقنها حتى صار لقبّتها شفتان، لم تتكلّم أمي وإنما شفتا الكنزة هما اللتان قالتا:

السماء والأرض هما العالم. والسماء كبيرة إلى حدٍّ تستطيع فيه أن تقدّم لكلّ إنسان معطفاً يتدلى منها.

والأرض كبيرة بهذا الشكل لأنّ عليها أن تصل أبعادها بأصابع أقدام الكون. لكن المسافة بعيدة حتى هناك، بعيدة لدرجة تلغى فيها قدرة المرء على التفكير، لأنه يشعر بتلك الأبعاد وكأنها غثيان فارغٌ في المعدة. سألت عن أبعد نقطةٍ في الكون.

وأين ينتهي الكون؟

عند أصابع رجليه!

نعم.

هل عدد تلك الأصابع أيضاً عشرة؟

أنا أعتقد، نعم.

هل تعرفين أي معطف هو معطفكِ؟

ليس قبل أن أصعد إلى السماء.

ولكن الأموات هناك.

نعم.

كيف يذهبون إلى هناك؟

بأرواحهم.

هل للروح أيضاً أصابع قدمين؟

لا، جوانح.

هل للمعاطف أكمام؟

نعم.

هل الأكمام هي جوانحها؟

نعم.

هل العم هيرمان والعمّة لوئيا زوجان؟ إذا كان الخشب يتزوج فنعم.

بعدئذا وقفت أمّي وذهبتْ إلى البيت. وأنا جلست على العمّة لوئيا، تماماً هناك، حيث جلست أمي، وكان الخشب دافئاً، أمّا في حديقة الفاكهة فقد ارتجفت ريح سوداء.

عن لحظات السأم

ليس لديّ اليوم وردية في الصباح، ولا في أي وقتٍ من ورديات بعد الظهر والمساء. بعد آخر ورديةٍ مسائية يأتي الأربعاء الطويل. إنه يومُ الأحد بالنسبة لي ولا ينتهي قبل الساعة الثانية بعد ظهر يوم الخميس.

حولي كثير من وقت الفراغ، وقد كان عليّ أن أقصّ أظافري، رغم أنّه بدا لي في آخر مرّةٍ أني أقصّ أظافري على يد شخص آخر، ولم أعرف من هذا الشخص.

عبر نافذة البرّاكة يرى المرء شارع المعسكر الرئيسي وحتى الكانتينه. من هناك كنت أرى تسيرّي كلتاهما قادمة. كانتا تحملان سطلاً، يجب أن يحتوي على الفحم، فهو ثقيل على مايدو. مرّا بجانب أوّل مقعدٍ في الشارع، لكنهما جلستا على الثاني، لأنّ لهذا الثاني مسنداً. كان باستطاعتي أن أفتح النافذة وألوّح بيدي أو أخرج إليهما. ولم أرَ نفسي إلاّ وأنا ألبس خفيّ ثم أبقى جالساً على السرير مرتدياً الخفيّن.

يوجد جنون العظمةِ المملّ والخاص بدودة الغوما في ساعة الوقواق، وتوجد الركبةُ السوداء على أنبوب الفرن. على الأرض يضطجع ظلّ الطاولة الصغيرة المتآكلة. وعندما تدور الشمس يجدّد الظلّ ذاته. سطح الماء في سطل التنك يصيبه السأم، ويملّ الماء الذي في رجليّ المتضخمتين. يوجد مللٌ خاصّ بدرزة قميصي المفتوح و ملل إبرة الخياطة التي استعرتها والملل المرتجف للخياطة نفسها، حين ينزاح دماغي فوق عينيّ، كما يقع المللُ بالخيط الذي انقطع.

يوجد لدى الرجال ملل الكآبات التي لا يمكن التّعرف عليها حين يلعبون الورق بضجر وبلا أيّة حماسة. إنّ عليك بورقة جيدة أن تملك إرادة الرابحين، لكن الرجال يقطعون لعبتهم قبل أن تربح أو تخسر. والنساء يسأمنَ الغناء عند النساء، يسأمنَ أغانيهنّ المليئة بالحنين إلى الوطن وهنّ يفلينَ القمل بواسطة ملل أمشاط القمل الصلبة المصنوعة من العاج والصمغ الاصطناعي. ويوجد ملل الأمشاط التنكية المثلّمة، التي لا تنفع في شيء. يوجد ملل الحلاقة على الصفر وسأمُ جماجم علب البورسلان، المزيّنة بفقاقيع القيح والندبات المتقشّرة الناتجة عن عضّات القمل الكاسدة والطرية. وهناك الملل الأخرس

لكاتي البلانتونية. كاتي البلانتونيّة لا تغنّي أبداً. سألتها مرّةً: كاتي، ألا تستطيعين الغناء؟ أجابت: لقد مشّطتُ شعري. ألا ترى، أنّ المشط يجرح من دون شَعر.

فناء المعسكر قرية فارغة في الشمس وتعرجات الغيوم من النار. أشارت عمتي فيني إلى مرجٍ جبلي في شمس الغروب. نسمةٌ رفعت شعرها للأعلى مثل عشّ طير وقسمت شعرها من الخلف بفرق أبيض في الوسط، وقالت: الطفل يسوع يخبز كاتو. سألت: الآن، قالت: الآن.

يوجد ملل أحاديث إضاعة الوقت، كي لا نقول ملل الفرص السانحة. من أجل رغبةٍ محدّدة يصرف المرء الكثير من الكلمات وربما لا تعلق واحدة. غالباً ما أبتعد أنا عن الأحاديث، وحين أبحث عنها أخاف منها، هي غالباً أحاديثي مع بيا تساكِل. فقد يحدث أنّي لا أريد شيئاً من بيا تساكل، حين أتحدث معها.

ويحدث أن أغيب في عينيها المتطاولتين، لأني أريد التسوّل باحثاً عن عَفْو (تور) ورحمتِه. أنا في الأساس أتحدثُ مع الجميع أكثر مما أريد، كي أخفّف من وحدتي، وكأن المرء يستطيع أن يكون وحيداً في المعسكر. أنت لا تستطيع ذلك حتى لو كان المعسكر قريةً فارغة في الشمس.

يحدث الشيء نفسه دائماً، أضطجع في فراشي، فلن يخلو لي الجوّ بعد الآن كما هو الآن، لأنّ الآخرين سيأتون من العمل. العاملون في ورديّات الليل لا ينامون طويلاً في دفعة واحدة، فأنا استيقظت بعد أربع ساعات من النوم الإلزاميّ. استطعت أن أحسب، كم بقي من الوقت لقدوم ربيعٍ جديد مملّ بسلامٍ جديدٍ عديم النفع إلى المعسكر ولكي تدور على الألسن دعاية عودتنا القريبة إلى الوطن. وفي هذا السلام الجديد أستلقي في عشبٍ جديد وعلى ظهري ربطت الأرض كلها. سيقومون بالتأكيد بترحيلنا من هنا إلى معسكرٍ آخر أبعد إلى الشرق خاصّ بتقطيع الخشب. وسوف أجمع أمتعة القبو في حقيبة الغرامافون، أجمع ثمّ أجمع ولا أنتهي. والآخرون ينتظرون. والقطار يصفر، حيث أقفز صاعداً آخر لحظة عتبة الدخول إلى القطار. حيث نسافر من غابة صنوبر إلى أخرى. الصنوبرات يتقافزن على الجوانب مفسحاتٍ الطريق للسكّة ثم يقفزن خلف القطار من

جديد بعد عبوره عائدات إلى أماكنهن. أخيراً نصل وننزل من القطار، أوّل النازلين كان الآمر شيشتفانيونوف. أعطي نفسي الوقت وآمل أن لا يلاحظ أحد أني لا أملك في حقيبة الغرامافون منشار خشب ولا بلطة. بل كلّ مامعي كانت حوائج القبو ومنديل جيبي الأبيض. قام الآمر بتبديل ثيابه فور نزوله، كان يحمل على بدلته العسكرية أزراراً عاجيّةً وشرائط على الكتف عليها أوراق بلّوط، رغم أننا في غابة صنوبر. غضب الآمر وقال، دافاج، أي باشر العمل. قالها لي، إن لدينا أكثر مما نحتاجه من المناشير والبلطات.

أترجل من العربة حيث يعطيني الآمر كيساً من الورق البنيّ. مرةً ثانية إسمنت، أقول في نفسي. لكنّ الكيس ممزق في أحد أطرافه، ويخرج منه طحين أبيض. أنا أشكره على هذه الهدية، آخذ الكيس تحت ذراعي الأيسر وباليمنى أحييّ. يقول شيشتفانيونوف: أرح رجليك، في هذه الجبال هنا يجب علينا أيضاً أن نقوم بالتفجير. والآن أدرك، أنّ الطحين الأبيض هو ديناميت.

وبدلاً من مراودة تلك الأفكار، استطعت أن أقرأ قليلاً. ولكنّي كنت قد بعت منذ زمنٍ طويل زرادشت المرعب وفاوست السميك وفاين هيبِر ذو الطبعة قليلة السماكة كورق سجائر من أجل تهدئة جوعي. في أربعائي الماضي تصورت أنّ علينا الامتناع عن الصعود إلى القطار، فالبراكة تسافر فينا دون عجلات باتجاه الشرق وهي تتمدّد أثناء المسير مثل الأكورديون. وهي لاترتجّ، وأنّ شجرات أكاسيا تمر بنا في الخارج وتخرمشنا عبر النوافذ بأغصانها، وأني أجلس إلى جانب كوبليان وأسأل: كيف نسافر وليس لدينا عجلات بالمرّة! ويقول كوبليان: ألا ترى أنّا نمشي على مضجعٍ متدحرج.

أنا تعب وليس لدي أية رغبة في الحنين إلى شيء مخيف. يوجد الكثير من لحظات السأم، لحظاتٌ سريعةٌ في مرورها ولحظاتٌ تعرج متأخرة في لحاقها. وعندما أعالجها بشكل جيّد، فإنها لا تؤذيني بل تصير ملكي الشخصيّ في كلّ يوم جديد. يوجد طوال العام حول القرية الروسيّة سأم القمر النحيف، رقبته تحاكي زهرة نبتة الخيار أو آلة البوق بفتحات الأصابع البنيّة. وبعد ذلك بعدة أيام ينمو الهلال مثل طربوشٍ مشنوق. وبعد

بضعة أيام أخرى يحملق سأمٌ من السماء باتجاه الأسفل، إنه سأم القمر البدر المكتمل، الممتلئ حتى الفيضان.

للأسلاك الشائكة سأمها اليوميّ على جدار المعسكر، ولمخافر الحراسة في الأبراج سأمها، وسأم رأس حذاء تور بريكوليتش المدبّب اللامع وسأم خفيّ الشخصيين الممزّقين. يوجد سأم غيمة برج التبريد البيضاء، كما لملاءات الخبز الكتّانية البيضاء سأمها. وهناك سأم صفائح الأسبست المموّجة، ورائحة احتراق القار وحُفَر الزيت العتيقة.

يوجد سأم الشمس عندما يجفّ الخشب وتصبح الأرض أضعف من العقل في الرأس، عندما يشرد ذهن كلب الحراسة بدلاً من أن ينبح. وقبل أن ييبس العشب تماماً تنسحب السماء فوقه مغطيّةً إيّاه ليتكوّن السأم على النهايات السفلى لخيوط المطر، فينتفخ الخشب وتلتصق الأحذية بالأرض الموحلة والثياب بجسد لابسها. يعذّب الصيف أوراق الشجر والخريف ألوانه، أما الشتاء فيعذبنا نحن.

يوجد سأم الثلج الطريّ والقديم الممزوجين بغبار الفحم، سأم الثلج العتيق الممزوج بقشور البطاطا والثلج الحديث العهد دون قشور بطاطا. سأم الثلج بتموجاتٍ إسمنتيّة وبقع شاي، والصوف الطحيني على جلود كلاب الحراسة ونباحها السوبراني العالي والتنكيّ العمق. يوجد سأم المواسير التي تزرب، ونوازلها الجليدية كالأسافين مثل فجلٍ بللوريّ، وسأم الثلج الذي كالموبيليا المنجّدة بالقماش على أدراج الأقبية. ويوجد خيطُ الجليد وذوبانه الشبكي الرفيع كالشعر على الصلصال الحبيبي لبطاريات الفحم. وسأم الثلج الولهان بالبشر لدرجة الالتصاق، والذي يزجّج العينين ويحرق الخدين.

يوجد على خطوط السكك الحديدية الروسيّة العريضة ثلج العوارض الخشبيّة، والتيجان الصدئة للبراغي، التي تصطفّ بعضها إلى جانب بعض في صفوف ثنائيّة وثلاثيّة بل وخماسيّة مثل الرتب العسكرية على كتف الضباط بدرجاتها المختلفة. وعلى جسر سكّة الحديد، عندما يسقط شخص عنه، سأم الثلج مع الجثة ورفشها. لا ينقضي من الوقت طويله بعد إخلائها إلا وتُنسى تلك الجثة، لأن الإنسان لا يرى آثار الجثث الواهية في الثلج السميك، إنه لا يرى إلا سأم رفشٍ مهمل. ويجب على المرء ألاّ يبقى بجانب الرفش. إذ

عندما تهبّ الريح ضعيفة، تطير روح مُزيّنة بالرّيش، وعندما تكون تلك الريح قويةً، تطير تلك الروح على شكل موجات. ليس فقط الروح، فربما يطلقُ مع كلّ جثّة ملاك جوع حرّاً ويبحث لنفسه عن خادمٍ جديد. ولكنّ أيّاً منا لايستطيع إطعام ملاكي جوعٍ يطلقان دفعة واحدة.

حكت لي ترودي بيليكان أنها والحلاّقة الميدانية سافرتا مع كوبليان إلى جسر سكّة الحديد وحمّلتا المتجمّدة كورينا ماركو على الشاحنة. وأنها، أي ترودي، صعدت على الشاحنة من الخلف كي تعريّ الجثة من ثيابها قبل أن يتم قبرها. لكنّ الحلاقة الميدانية قالت لها: ننجز هذا فيما بعد. وحكت لي أيضاً أنّها مع الجثة كانتا في الخلف بينما جلست حلاقة الميدان مع كوبليان في كابين السيارة. وأن كوبليان لم يأخذ السيارة إلى المقبرة، بل إلى المعسكر، حيث كانت بيا تساكل تنتظر على باب برّاكة المرضى وطفلها على ذراعها حين سمعت زمجرة السيارة قادمة. وأن كوبليان أنزل الميتة كورينا ماركو وحملها على كتفيه حيث نقلها بناء على تعليمات الحلاقة الميدانية إلى غرفتها الشخصيّة، أي لا إلى غرفة الأموات ولا إلى غرفة المعالجة. وأنّه لم يكن يعرف هناك أين يذهب بالجثّة، لأن حلاقة الميدان قالت: انتظر. وأنّ الميتة أصبحت ثقيلة على كتفيه وأنه تركها تنزلقُ على جسده ساقطةً على الأرض.

وأنه أسندها بعدئذ عليه بينما قامت الحلاقة الميدانية بلمّ علب الكونسروة عن الطاولة وتجهيزها. وأنّ كوبليان وضع الجثّة على الطاولة بعد ذلك دون أن يتفوّه بكلمة. وأنّ ترودي بيليكان بدأت بفك أزرار سترة الميّتة، لأنها اعتقدت أن بيا تساكل تنتظر الحصول على الثياب. وأنّ الحلاقة الميدانية قالت: الشّعر أولاً. وأنّ بيا تساكل حبست ابنها مع بقية الأطفال الآخرين خلف القاطع الخشبيّ، حيث ضرب الطفل على الحائط الخشبي برجليه وصرخ حتى بدأ الأطفال الآخرون بالصراخ معه، مثل الكلاب، يكفي أن يرتفع عواء أحدهم حتى يشاركه الجميع. وأنّ بيا تساكل سحبت الميتة برأسها على طرف الطاولة حتّى تدلّى شعرها إلى الأسفل. وأنّ المعجزة التي حصلت مع الميتة كورينا ماركو في حياتها، أنّهم لم يحلقوا لها ولا مرّةً واحدة على الصفر طيلة فترة عملها في المعسكر،

أما الآن فقد جزّتها الحلاقة الميدانية بماكينة الصفر. وأن بيا تساكل وضعت الشعر بشكلٍ نظاميّ في صندوقٍ خشبيّ صغير. وأن ترودي كانت تريد أن تعرف، مانفع هذا الشعر، وأن الحلاقة الميدانية أجابتها: من أجل مخدات النوافذ. وأنّ ترودي سألت: لمن، وأجابت بيا تساكل لورشة الخياطة، السيد رويش يخيط لنا مخدات النوافذ، مخدّات الشعر تحمينا من البرد إذ تمنع مرور الهواء. وأنّ حلاّقة الميدان غسلت يديها بالماء والصابون وقالت: أنا خائفة أن يملّ المرء حين يموت. وأن بيا تساكل أجابت على ذلك بصوتٍ عالٍ وبنبرةٍ غير طبيعيّة: معك حقّ. وأن بيا تساكل خلعت بعد ذلك ورقتين فارغتين من سجلّ المرضى وغطّت بهما صندوق الخشب الصغير. وأنّ منظرها مع الصندوق الصغير تحت ذراعها أوحى بأنّها اشترت بضاعة فاسدة في متجر القرية الروسيّة. فهي لم تنتظر للحصول على الثياب، وإنما اختفت مع الصندوق قبل أن ينتهوا من تعرية الميتة تماماً. وأنّ كوبليان ذهب بعد ذلك كلّه إلى سيارته.

وأن وقتاً انقضى حتى انتهت تعرية الجثة، لأنّ ترودي لم تكن تريد قصّ طقم البوفايكا في حالته الجيّدة التي كان عليها. وأنّه أثناء تلك المشادّة وقع أحد البروشات المزخرف بصورة قطّة من جيب جاكيت الميتة إلى جانب السطل على الأرض. وأنّ ترودي بيليكان انحنت لأخذ البروش وأثناء ذلك قرأت في السطل الطبعة الموجودة على علب الكونسروة اللامعة: كورنِد بيف، لحم بقر محفوظ بالملح. وأنها لم تصدّق عينيها. وأنّ حلاقة الميدان، بينما كانت ترودي تهجّي حروف الكلمات، رفعتْ البروش عن الأرض. وأنّ السيارة كانت تزمجر طوال الوقت في الخارج ولم ترحل. وأنّ الحلاقة الميدانية علقت البروش ذا القطّة بين أصابعها متدلياً، ثم عادت بعد لحظلت خالية اليدين وقالت: كوبليان يجلس الآن خلف المقود، ويردد بشكل مستمرّ أيها الربّ العظيم ويبكي.

السأم هو صبر الخوف، وهي لا تريد أن تزيد الطين بلّةً. إنّها تريد أحياناً فقط أن تعرف بشكلٍ شخصيّ كيف تسير أموري.

استطعت تناول خبزي الذي وفرته في مخدتي ببعض السكر والملح، أو أن أنشّف قماطات رجلي على مسند الكرسي إلى جانب الفرن. ترسل طاولة الخشب ظلاً أطول

من ظلّها والشمس تدور. سأحاول في الربيع القادم الحصول ربما على قطعتي غوما من الحزام النّقال في المعمل أو من عجلة سيارة في الكراج. ثم آخذهما للحذّاء.

أوّل من لبس الباليتكي أو حذاء الباليه في المعسكر كانت بيا تساكِل، حيث لبسته منذ الصيف الماضي. جئت إليها في صالة الألبسة، فأنا أحتاج لحذاءٍ خشبيّ جديد. فَتَّشت باحثاً في كومة الأحذية حين قالت بيا تساكل: ليس لديّ إلا الكبير والصغير، عقلة أصبع أو بواخر، الحجوم الوسطى انتهت. جربت الكثير منها كي أستطيع البقاء هناك فترةً أطول. قررت أوّل الأمر أخذ واحدٍ صغير، ثم سألت، متى تأتي شحنة أحذية جديدة.

في الآخر احتفظت بزوجٍ أحذية من الحجم الكبير. قالت بيا تساكل: البسهما فوراً، واترك القديم هنا. أنظر ماذا ألبس أنا، باليتكي.

سألت: من أين.

قالت: من الحذّاء. انظر، إنه ينطوي وكأنك لا تلبس شيئاً. سألت: ما سعرها؟

قالت: عليك سؤال تور عن ذلك.

ربما يعطيني كوبليان قطعتي الغوما بلا مقابل. يجب أن تكونا بحجم صفحتي الرفش على الأقلّ. وسأحتاج لفلوس من أجل الحذاء. يجب عليّ أن أبيع الفحم، مادام البرد موجوداً. فربما يخلع السأم قماطات القدمين، ويلبس باليتّكي في الصيف، أعني في الصيف القادم. بعدها يمشي السأم حافياً.

الأخ البديل

ناداني تور بريكوليتش في بدايات تشرين الثاني، نوفمبر، إلى مكتبه.

لقد جاءني بريد من الوطن.

حنكي ينبضُ من شدّة الفرح، ولا أستطيع إطباق فمي. يبحث تور في إحدى العلب في خزانة نصف مفتوحة. على نصف الخزانة المغلق تلتصق صورة ستالين، عظمان مرتفعان في الوجنتين كتلّتي ردم، والأنف هائل الكبر مثل جسر سكّة الحديد، وشارباه مثل سنونوة. كانت مدفأة الفحم تفرقع إلى جانب الطاولة وعليها يصفر إبريق شاي مفتوح، إلى جانب الفرن وضعَ سطلٌ فيه فحم الأنتراسيت. يقول تور: لقّم المدفأة ببعض الفحم، بينما أجد لك بريدك.

أبحث في السطل عن ثلاث قطع فحم مناسبة وبعد إطعامها للنار تتداخل ألوان الشعلة مثل أرنبٍ أبيض يدخل أرنباً أصفر. بعدئذٍ يدخل الأصفر في الأبيض، ثم يمزّق الأرنبان بعضهما بعضاً، وينفخان بصوتين متداخلين هازوفيه. تنفخ النار الحرارة في وجهي، وتمنح الانتظار خوفَه. أغلق باب المدفأة الصغير حين يغلق تور باب الخزانة، ويعطيني بطاقة بريديّة من بطاقات الصليب الأحمر.

على البطاقة صورة طفلٍ مدروزةٍ بخيط أبيض وبدقة تامّة بواسطة آلة خياطة لتثبيتها. ينظر تور في وجهي وأنا أنظر في البطاقة، والطفلُ المدروز على البطاقة ينظر في وجهي، ومن باب الخزانة ينظر ستالين إلينا جميعاً في وجوهنا.

كُتبَ تحت الصورة:

روبِرت، ولدَ بتاريخ 17 نيسان، أبريل 1947.

إنّه خطّ أمّي. يحمل طفل الصورة على رأسه قبعةً من أشغال الكروشيه ولها أنشوطة تحت الذقن. أقرأ الكتابة مرّة ثانية: روبِرت، ولد بتاريخ 17 نيسان، أبريل 1947. لم يُكتب أي شيء آخر غير هذه الجملة. لقد وخزني خطّ اليد هذا، إنّه التفكير العمليّ لأمّي، فقد كتب اختصار كلمة وُلِدَ وليس الكلمة كلّها من أجل التوفير في المكان.

يدقّ قلبي نابضاً في البطاقة البريديّة وليس في يدي التي تحمل البطاقة. يفتح تور لائحة

البريد أمامي على الطاولة ويعطيني قلم رصاص. عليّ أن أبحث عن اسمي وأوقّع بجانبه. بعدئذ يذهب تور إلى المدفأة، فيفتح ذراعيه، ويصغي كيف يغلي ماء الشاي وكيف تصفر الأرانب في النار. تغيب القائمة أمام ناظري في البداية ثم تضيع الأحرف. فأركع أمام طرف الطاولة تاركاً يديّ تسقطان عليها، أسقطُ رأسي بينهما وأنشج بالبكاء.

هل تشرب الشاي، يسأل تور. هل تريد براندي. أنا ظننت أنك ستفرح.

قلتُ نعم، أنا فرح أيضاً، فنحن مازلنا نحتفظ في البيت بآلة الخياطة القديمة.

أشرب مع تور بريكوليتش كأس براندي ثم كأساً آخر، وهذا كثير جداً على بشر العظم والجلد. احترقت المعدة حيث نزلت البراندي واحترق الوجه حيث سالت الدموع. منذ الأزل لم أبكِ، ودرّبت حنيني إلى الوطن على العيون الجافة، وجعلته سيّد نفسه.

أعطاني تور قلم الرصاص ثم أراني العمود الصحيح. كتبت مرتجفاً: ليوبولد. أحتاج لاسمك كاملاً، يقول تور. إذن فلتكتبه أنتَ كاملاً، أقول أنا، أنا لا أستطيع.

وضعت الطفل المدروز في جاكيت البوفايكا وذهبت معه إلى الثلج في الخارج. من الخارج رأيت في نافذة مكتب إدارة المعسكر مخدة منع مرور الهواء اتقاءً لشر البرد، المخدة التي حكت لي عنها ترودي بيليكان. لقد تم حشوها وخياطتها بشكلٍ جيّد. لكنّ شعر كورينا ماركو لم يكفِ وحده، لقد حشوه بالتأكيد مع شعورٍ أخرى من ناسٍ آخرين.

من المصابيح تسيل أقماع ضوءٍ بيضاء الشكل، وبرج الحراسة الخلفيّ ينوس في السماء. كانت حبّات فاصولياء تستّر لومّر البيضاء مرشوشة على كامل فناء الثلج. والثلج مع جدار المعسكر ينزلقان مبتعدين بلا توقّف. ولكن وعلى شارع المعسكر الرئيسيّ، حيث أمشي الآن، يتكدّس ذلك الثلج مرتفعاً حتى رقبتي. للريح كاسوحةٌ حادّة. وأنا بلا قدمين، أمشي على وجنتي وقريباً أفقدهما. لست أملك إلا هذا الصبيّ المدروز على البطاقة البريديّة، إنّه أخي بديلي. لقد خلّف أهلي طفلاً جديداً، لأنّي صرت غير موجود بالنسبة إليهم. تماماً

كما أبدلت أمّي كلمة وُلِدَ بمختصرها، لابدّ أنها ستختصر كلمة ماتَ أيضاً. ولقد فعلتها. أمّي لم تستحِ حين خاطت الصورة بدرزةٍ متقنةٍ من خيطٍ أبيض، بطريقةٍ أجبرتني فيها على البحث تحتَ السطور محاولاً القراءة:

أنت تستطيع أن تموت حيث أنت، لا مشكلة لديّ في ذلك، فموتك سيوفّر مكاناً في البيت.

في بياض ماتحت السطر

وصلت بطاقة أمي البريدية عبر الصليب الأحمر في شهر تشرين الثاني، نوفمبر، بعد أن قضت سبعة أشهر في الطريق إلى المعسكر. إذ كان أهلي قد أرسلوها في نيسان من الوطن. وهكذا يكون عمر الطفل المدروز عليها ثلاثة أربا ع السنة.

وضعت البطاقة وعليها الأخ البديل مع منديل الجيب الأبيض في أسفل حقيبتي. على البطاقة خطّ واحد فقط، وفي هذا الخطّ لم يذكرني الكاتب على الإطلاق، ولاحتى في بياض ماتحت ذلك السطر. تعلمت من حياة المعسكر كيف أستجدي الطعام في القرية الروسيّة. لكنّي لم أكن مستعداً لا ستجداء أمّي كي تذكرني في رسالتها. وأجبرت نفسي في العامين التاليين على ألاّ أجيب على رسالتها. لقد تعلّمت في العامين اللذين مرّا استجداء ملاك الجوع، وفي العامين اللذين بقيا تعلمت من ملاك الجوع الفخر الفظّ. لقد كان فظّاً مثل الصمود أمام إغراء الخبز، ولقد أزعجني بوحشية. كان ملاك الجوع يريني أمّي كلّ يوم كيف تطعم طفلها البديل ناسيةً حياتي. حيث مرّت في مخيلتي غادية ورائحة، كانت مهندمةً وشبعانةً ومعها عربة الأطفال البيضاء، وأنا أراقبها من كلّ الأمكنة، الأمكنة التي لاذكر لي فيها، ولا حتّى في بياض ماتحت السطور.

سلك مينكوفسكي

كلّ واحدٍ هنا يملك حاضره. كلّ واحدٍ هنا يلامس الأرض إمّا بخفيّه البلاستيكيين أو بحذائه الخشبيّ ولو كان في القبو تحت الأرض باثني عشر متراً، ولو كان جالساً على لوح الصمت الخشبيّ. في اللحظة التي لا نعمل فيها، ألبرت جيون وأنا، نجلس هناك على مقعد مكوّنٍ من حجرين ولوح خشبيّ عليهما. في كمّامةٍ من الأسلاك يضيء المصباح وفي سلّة معدنية مفتوحة تضيء نار الفحم المشتعل. نحن نبقى صامتين في استراحاتنا. غالباً ما أسأل نفسي، هل مازلت أستطيع الحساب. إذا كنّا الآن موجودين في عامنا الرابع هنا ونعيش مرحلة مابعد السلام الثالث، فيجب أن يكون السلام الأول والثاني قد وجدا مرّة في القبو، كما هي الحال مع مرحلة ماقبل السلام، فهي مرحلةٌ قد وجدت أيضاً ولكن من دوني أنا. ويجب أن يوجد في القبو الكثير من الورديات الليلية والنهارية المتراكبة كطبقات الأرض بعضها فوق بعض. وورديات شغلي مع ألبرت جيون موجودة في القبو أيضاً، فقط كان عليّ تعدادها، ولكن، هل مازلت أستطيع أن أحسب؟ هل مازلت أستطيع القراءة؟ حصلتُ من والدي بمناسبة عيد الميلاد على كتاب: أنت والفيزياء. وفيه تقرأ، أنّ لكلّ إنسان ولكلّ حدث مكانه وزمانه الخاصّان به، وهذا قانون طبيعيّ. ولذلك يملك الجزء والكلّ مشروعيته في هذا العالم. ويوجد لكلّ موجودٍ من موجودات الدنيا سلكه الخاصّ الذي يسمى سلك مينكوفسكي. فحين أجلس هنا، كما أنا الآن، فإنّ سلكاً يوجد في نفس اللحظة فوق رأسي معلقاً بشكل مستقيم إلى الأعلى، ويسمّون هذا السلك سلك مينكوفسكي. وعندما أتحرّك ينطوي هذا السلك ويحاكي حركتي. هذا يعني أنني لست وحيداً.

كما أنّ لكل زاويةٍ في القبو سلكها، ولكلّ شخصٍ في المعسكر سلكه، من دون أن يلامس سلك سلكاً آخر. إنها غابة من الأسلاك الدقيقة التنظيم تنتشر فوق كلّ الرؤوس. كلٌّ في مكانه يتنفس عبر سلكه. فبرج التبريد يتنفّس بشكل مضاعف، فربّما للغيمة الخارجة من برج التبريد سلكها الخاصّ. إذا ماأردنا تطبيق هذه النظرية على أحد المعسكرات، فإن الكتاب لا يعطي جواباً لمثل هذا الاستخدام. لملاك الجوع سلك مينكوفسكي أيضاً. ولكنّ

الكتاب لم يحو شيئاً عمّا إذا كان ملاك الجوع يدع سلكه دائماً عندنا، ولذلك لا يفارقنا إطلاقاً، عندما يقول، إنّه سيعود. ربّما يحترم ملاك الجوع الكتابَ، لقد كان عليّ أن أجلب ذلك الكتاب معي.

أغلب الأحيان أصمتُ عندما أجلس على مقعد القبو وأجول بناظريّ باحثاً في رأسي، مثلما ينظر المرء عبر شقّ بابٍ مضاء. واحتوى كتاب الفيزياء أيضاً، على كلّ شخصٍ وفي كلّ زمن وفي كلّ مكان يلعب فيلمه الخاص به. في كلّ رأس تدور البكرة ذات الست عشرة صورة في الثانية. كما احتوى كتاب «أنت والفيزياء» على تعبير «احتمال الإقامة في مكانٍ ما». وكأنّ أمر وجودي هنا ليس أكيداً، وأنّه ليس من واجبي أبداً أن أريد يوماً مغادرته، كي لا أكون فيه. والأمر هو فعلاً هكذا، لأنني جسديّاً في مكان، كأن أكون ذرّةً في القبو، ولكنني أيضاً وفي نفس الوقت موجةٌ من خلال سلك مينكوفسكي. وهكذا أستطيع بوصفي موجةً أن أكون في مكان آخر أيضاً، وأن يتواجد معي هنا شخص بعيد عني، كما أستطيع أن أختار بنفسي هذا الشخص. والأفضل ألاّ أختار شخصاً بل غرضاً، يتناسب وطبقات الأرض في القبو. أن أختار عظائيّاً مثلاً، أو باصاً سياحيّاً فخماً يكون لونه أحمر غامقاً يحتوي على قوائم معدنيّة مغطاة بالكروم، ويسافر بين هيرمان شتات وزالتس بورغ. كان يطلق على هذا الباص «العظائيّ». كانت أمّي وعمتي فيني تسافران في الصّيف بهذا الباص إلى المصحّ أوكنا باي، وهي منطقة تبعد عشرة كيلومترات عن هيرمانّ شتات.

وعندما عادتا، سمحتا لي بلحس زنودهنّ العاريّة، كم كانت تلك الحمامات مالحةً. لقد حَكّتا عن القشور الصدفيّة لصفائح الملح بين سيقان العشب على المروج. عبر شقّ الباب المضاء في الرأس وضعتُ الباص العظائي يسافر بيني وبين القبو. للباص أيضاً شق بابه المضاء ويملك أيضاً سلك مينكوفسكي. وسلكانا لا يتلامسان قطّ، أما شقّا بابينا المضاءان فإنهما يلتقيان تحت المصباح المشعّ، حيث الرماد الطائر يزوبِعُ بسلكِه المينكوفسكيّ. بجانبي على المقعد يصمت ألبرت جيون ومعه سلكه المينكوفسكيّ. أما المقعد فإنه لوحٌ للصمت، لأن ألبرت جيون لا يستطيع أن يقول لي في أيّ فيلمٍ هو الآن، كما أنني أنا

بدوري لا أستطيع أن أقول له، إنّي أملك هنا في القبو باصاً سياحياً أحمر قائماً ذا قوائم معدنيّة مغطاة بالكروم. كلّ ورديّة شغلٍ لوحةٌ فنيّة. ولكن سلك مينكوفسكي الخاص بتلك الوردية ليس أكثر من حبلٍ فولاذيٍّ مركّبٍ على عربة صغيرة دوّارة. وكلّ عربةٍ مع سلكها هي نقلة فضلات تسير تحت الأرض باثني عشر متراً.

يتراءى لي أحياناً أنّي متّ قبل مئة عام، وأنّ نعل قدمي شفّاف. وعندما أنظر من خلال شقّ الباب المضاء في رأسي، فإنه لا يعنيني من الأمر أساساً إلاّ ذلك الأمل الخجول المثقوب، بأن يكون هناك أحدٌ ما في مكانٍ وزمان ما يفكّر بي. حتى لولم يعرف هذا الواحد أين أنا الآن. إنّه لمن الممكن أن أكون ذلك الرجل ذا الأسنان المفروقة الموجود على يسار صورةٍ غير موجودةٍ لعرسٍ ما، وفي نفس الوقت طفلاً نحيل الجسد في ساحة إحدى المدارس غير الموجودة أيضاً.

وبنفس الطريقة أنا المنافس والأخ لأخ بديل منافس، لأنّا موجودان كلانا في نفس الوقت، كما أننا أيضاً غير موجودين في نفس الوقت، لأنه لم يسبق لنا أبداً، يعني ولا في وقت من الأوقات، أن رأى أحدنا الآخر.

وأنا أعرف في الوقت نفسه، ماهو الموت الذي قدّره لي ملاك الجوع، إنه موتٌ لم يحصل لي مبدئياً حتى اللحظة.

كلابٌ سوداء

أتيتُ من القبو في ثلج الصباح. بياضٌ يذهب بالبصر. على أبراج الحراسة تنتصب أربعة تماثيل من فضلات الاحتراق السوداء. هذي التماثيل ليست جنوداً، هي أربعة كلاب سود. التمثال الأوّل والثالث يحركان رأسيهما، الثاني والرابع جامدان. بعد ذلك يحرك الكلب الأول رجليه ويحرك الرابع البارودة، والثاني والثالث يبقيان جامدين.

الثلج على سطح الكانتينه ملاءَةٌ كتّانيّة بيضاء، لماذا نشرت فينيا ملاءة الخبز البيضاء على السطح. غيمة برج التبريد عربة أطفالٍ بيضاء تسافر إلى القرية الروسيّة، إلى شجر البتولا الأبيض. بعد أن قضى منديل جيبي الأبيض من الباتيست عامه الثالث في الحقيبة، طرقتُ في أحد أيام الشحادة باب العجوز الرّوسيّة. ففتح لي رجلٌ في مثل عمري. سألتُ، إذا كان اسمه بوريس. قال نْييتْ، كلا. سألته إن كانت امرأة عجوز تسكن هنا. فقال: نْييتْ.

بعد قليل يوزّع الخبز في الكانتينه. إذا ماجاء دوري ووصلت إلى شبّاك الخبز سأشد من عزيمتي وأسأل فينْيا: متى أسافر إلى الوطن؟ قريباً سأصير إلى تمثالٍ من فضلات الاحتراق السوداء. وستردّ فينْيا: عندك سكك حديدٍ وجبل في القبو. والعربات الصغيرة تسافر دائماً إلى البيت، سافر معها. سابقاً كنت تحبٍّ السفر بالقطار إلى الجبال.

سأقول لها: ولكنّي كنت حينها في الوطن. ستقول فينْيا: ألا يقول لك حدسك إذن، أنّ ذلك سيتحقق أيضاً!

الآن أدخل عبر باب الكانتينه لأقف أمام شباك الخبز في الصّف. الخبز مغطّى بثلج كان على السطح. وقفت في آخر رتل الخبز، كي يتسنى لي أن أبقى وفينْيا وحدنا حين أُستلم نصيبي من الخبز. ولكنّي لست واثقاً من نفسي، لأن فينْيا تملك عبر قداستها الباردة وكما في كلّ يوم ثلاثة أنوف في الوجه، اثنان منهما كانا منقاري الميزان.

ملعقة تذهب وأخرى تعود

جاء عيد البشارة ثانيةً، وأذهلني وجود شجيرتي المصنوعة من الأسلاك وصوف التنّوب الأخضر على الطاولة الصغيرة في البرّاكة. فقد احتفظ بها المحامي باول غاست في حقيبته، ثم نصبها وزيّنها هذا العام بثلاث كراتٍ من الخبز، لأننا دخلنا، كما قال، عامنا الثالث هنا، وهو يعتقد بأن الجميع يعتقد، أنّه لا يستطيع التّبرع بثلاث كراتٍ من الخبز، لأنّه يسرق خبز زوجته.

كانت زوجته هايدرون غاست تسكن في برّاكة النساء، إذ لم يكن يسمحُ للأزواج أن يسكنوا معاً. وكان مرض هايدرون غاست قد تطور وحوّل وجهها إلى وجه قرديّ الشكلّ، وفمها إلى شقٍّ عرضاني طويل يصل الأذنين بعضهما ببعض، وأسكنَ الأرنب الأبيض في غضون خدودها وأجحظ عينيها. منذ الصّيف وهي تعمل في الكراج في تزويد مدّخرات السيارات بسوائلها. وجراء هذا العمل صار وجهها مثقباً من حمض الكبريت أكثر من بدلة البوفايكا التي تلبسها. كنّا على علمٍ بالذي فعله ملاك الجوع بحياتها الزوجيّة. فقد كان المحامي يبحث عن زوجته وكأنه حارسها. فعندما يراها جالسةً مع الآخرين على طاولة الطعام، كان يأتي ويأخذها من ذراعها، ثم يجلسها بجانبه ويضع صحن حسائها إلى جانب صحن حسائه. وإذا ماحدث وتلهّت عن صحنها بالتفاتةٍ إلى جهةٍ ما ولو للحظة قصيرة، تراه يسرعُ في الغرف بملعقته وعاء حسائها. وإذا مالاحظت فعلته يقول: ملعقةٌ إلى هناك ثم ملعقةٌ من هناك.

كانت شجيرة عيد الميلاد المزدانة بكرات الخبز مازالت منتصبةً على طاولة البرّاكة حين ماتت هايدرون غاست في كانون الثاني، يناير، الشهر الذي كان بالكاد قد بدأ.

وكانت كرات الخبز مازالت معلّقة على الشجيرة حيث لبس باول غاست معطف زوجته ذا القبة الصبيانيّة وألسنة جيوبه المرقّعة المصنوعة من فرو الأرنب. كما بدأ يتردد على الحلاق أكثر من ذي قبل.

حين انتصف كانون الثاني يناير كانت مغنّيتنا إيلونا مِش ترتدي ذلك المعطف، بعد أن سمحت للمحامي بأن يختفي خلفها تحت لحاف سريرها في الليل. في ذلك الوقت سأل

الحلاق: هل لديكم أولاد في الوطن؟ وأجاب المحامي: تعنيني أنا.

سأل الحلاق: وكم عددهم؟

قال المحامي: ثلاثة.

من خلال رغوة صابون الحلاقة كانت عيناه تحملقان جامدتين في الباب، حيث علقتُ هناك قبعتي القطنيّة على مشبك تتدلى أذناها مثل بطّةٍ مقتولة. تنهّد المحامي تنهيدةً عميقة نافخاً الرغوةَ من يد الحلاق لتحلّق قليلاً في الهواء ثم تسقط على الأرض. وهناك بين قوائم الكراسي حيث سقطت الرغوة كان خفّا المحامي البلاستيكيين وكأنهما واقفان على رؤوس أصابع القدمين. لقد كانا مربوطين على مشط القدم من تحت النعل بسلكٍ نحاسيّ لامع فائق في جدّته.

مرّةً كان ملاك جوعي محامياً

لا تحكوا ذلك لزوجي أبداً، قالت هايدرون غاست. حدث ذلك في يوم استطاعت فيه هايدرون أن تجلس بيني وبين ترودي بيليكان، لأن المحامي باول غاستً لم يأتِ إلى الطعام، كانت أسنانه يومها متقيّحة. في ذلك اليوم استطاعت هايدرون غاست أيضاً أن تتكلّم.

في السقف بين ورشة تصليح السيّارات وصالة المعمل التي دمّرتها الحرب يوجد ثقبٌ بحجم قمّة شجرة. في الجزء الأعلى من صالة المعمل يقوم عمّال بتعزيل الردم. كانت هايدرون غاست تجد بين الفترة والأخرى في ورشة السيارات حبّة بطاطا مرميّةً على الأرض، كان يرميها أحد عمال التعزيل لها من فوق، دائماً. فترفع رأسها للأعلى ناظرة صوبه، وهو ينظر إليها نحو الأسفل. لم تكن هايدرون غاست تستطيع التّكلّم مع ذلك الرجل، لأنّه موجود تحت الحراسة مثلها في الورشة. كان الرجل أسير حربٍ ألمانّي ويرتدي بوفايكا مخطّطة. كانت آخر حبّة بطاطا رماها الرجل لهايدرون صغيرة ووجدتها محشورةً بين صناديق عدّة العمل. من المحتمل أنّ هايدرون غاست لم تجد حبّة البطاطا في البداية، وأنّها كانت مختبئة هناك منذ يوم أو يومين. فقد يكون الرجل قد رماها بسرعة تفوق سرعة نظيراتها قبلها أو أنها، أصغر من سابقاتها، راحت تتدحرجُ مبتعدةً أكثر من اللازم. ربّما كان قد رماها عن قصد في المكان الجديد. لم تكن هايدرون غاست متأكّدةً في اللحظة الأولى إذا كانت حبة البطاطا هذه من ذلك الرجل في الأعلى، وليست من رئيس العمل، نصبها مصيدةً ليوقع بها هايدرون غاست.

ركلت هايدرون حبّة البطاطا برأس حذائها لتصبح في أحد نصفيها تحت الدرج وفي النصف الآخر خارجه، بحيث لا يراها إلا الذي يعرف، أنّها موجودة هناك. كانت تريد الانتظار لتكتشف، إذا ماكان رئيس العمل يترصدها فعلاً. لم تأخذ حبّة البطاطا قبل انتهاء ورديتها وأحسّت عندما رفعتها عن الأرض وكأنّها مربوطة بخيط يلفّها. وكما في كلّ مرّة قامت هايدرون غاست في ذلك اليوم أيضاً بالنظر إلى الأعلى عبر ذلك الثقب، وكرّرت ذلك ماستطاعت، لكنّها لم تبصر ذلك الرجل ثانيّةً. وعندما جاءت مساء ذلك اليوم إلى

برّاكتها، قطعت خيط حبّة البطاطا بأسنانها. كانت حبة البطاطة مشطورة إلى نصفين، ومابين نصفيها وجدت هايدرون رقعةً من قماش. كان مكتوباً عليها: إلفريدِه رو، إرستراس، إنسبو. وفي الأسفل تماماً كلمة أويتشلا. كان نشاء البطاطا قد افترس الأحرف الأخرى. عندما عاد المحامي إلى برّاكته بعد علف العشاء رَمتْ هايدرون غاست الرقعة في نار يشعلونها متأخرةً في الفناء وشوت نصفي حبّة البطاطا على النار نفسها. أنا أعرف، قالت هايدرون، أنني أكلت خبزاً، وكان ذلك قبل واحدٍ وستين يوماً. بالتأكيد لم يسمحوا له بالعودة إلى الوطن، وهو لم يمت في أيّة حالٍ من الأحوال، فقد كان بحالة صحيّة جيدة. لقد اختفى عن وجه الأرض، قالت هايدرون، كما اختفت حبّة البطاطا في فمي. أنا أفتقده.

في عينيها رفّت شريحةٌ ضعيفة من الجليد. وغضون خديها التصقت بشعرٍ أبيض على العظم. لم يكن صعباً على ملاك جوعها أن يكتشف، ألاّ إمكانية لمساعدتها بعدَ أن وصلت إلى هذه الحالة. لم يرحني شعوري بأنّ ملاك جوعها يسرع أكثر في مغادرتها كلما ازدادت ثقتها بي. وكأنّه يريد أن ينتقل إليّ. لم يكن أحد يستطيع منع باول غاست من سرقة طعام زوجته إلا ملاك الجوع، بالرغم من أنه هو نفسه لصّ.

ملائكة الجوع يعرف بعضهم بعضاً، قلتُ لنفسي، كما يعرف بعضننا بعضا. كما أنهم يمارسون مهننا أيضاً. فملاك جوع باول غاست محام مثله. وملاك جوع هايدرون غاست ليس أكثر من عميل لملاك باول غاست. كما أن ملاكي عميل، ولكن من يعرف عميل مَن.

قلتُ: كلي الحساء يا هايدرون.

قالت: لا أستطيع.

التقطتُ صحن الحساء. كانت ترودي بيليكان تسترق النظر إليه أيضاً. وكذلك فعل ألبرت جيون من الجهة الأخرى. بدأت بالأكل ملعقة خلف أخرى، لكنّي لم أحصِ عدد تلك الملاعق. حتى إن أحداً لم يسمع لارتشافي صوتاً، لأن ارتشاف الحساء امتدّ أطول من المعتاد. أكلت وحدي تماماً من دون هايدرون غاست وترودي بيليكان وألبرت جيون.

نسيت كلّ شيء حولي، نسيت الكانتينه كلّها. لقد ارتشفت الحساء إلى القلب. ولم يكن ملاك جوعي أمام ذلك الصحن عميلاً، بل محامياً.

ثم دفعتِ الصحن الفارغ إلى هايدرون غاست، باتجاه يدها اليسرى حتى لامس خنصر يدها. لحستْ ملعقتها التي لم تستعملها ثم مسحتها بالجاكيت لتنشيفها، وكأنها هي التي أكلت، وليس أنا. ربّما لم تعد تعرف، إذا كانت تأكل، أم تراقب الآكلين. أو أنّها أرادت أن تفعل مافعلت وكأنها قد أكلتْ فعلاً. كيفما كانت الحال فإنّك كنت ترى ملاك جوعها ممتداً في فمها ذي الشّق العريض، من الخارج شاحباً يستجدي الرحمة، ومن الداخل أزرق داكناً. لم يكن من المستبعد أن يستطيع حتى الوقوف أفقياً. وقد كان من المؤكّد أنّه كان يعدّ أيامها الباقيات في ماء الحساء المرقّع بالأعشاب. ويمكن أيضاً أن يكون قد نسي هايدرون غاست وضبط الميزان بشكلٍ حادٍّ على لهاتي. وأنّه أحصى أثناء الأكل، كم ومتى يستطيع أن يستأثر بي؟

لديّ خطّة

سأخون ميزانه، عندما يزنني ملاك الجوع.
سأصبح خفيفاً مثل خبزي الذي وفرته، وصعباً على القضم مثله.
وسترى، أقول لنفسي، إنّها خطّة قصيرة، تلك التي تصمد طويلاً.

قبلة الصفيح

ذهبتُ بعد العشاء إلى الورديّة الليليّة في القبو، السماء مضاءة، ومن القرية الروسية كان سرب طيور يشبه عِقداً بُنّياً طائراً صوب المعسكر. أنا لا أدري فيما إذا كانت الطيور تزعق في ضياء السماء الأعلى أم في فمي على شراع الحنك. أنا أيضاً لا أدري إذاكانت تزعق من مناقيرها أم أنها تحك أقدامها بعضها ببعض، أو أنها تملك على أجنحتها عظاماً قديمة خالية من الغضاريف.

وفجأة انتُزعتْ من العقد قطعةٌ توزعت على شكل شوارب. ثلاثة منهم طاروا إلى ماتحت القبّعة داخلين في جبين حارس البرج الخلفي. وبقوا فترةً طويلة هناك. وهناك حين درتُ مرةً ثانيةً حول نفسي على باب المعمل، طاروا في منطقة ماتحت القبّعة خارجين من الرأس الخلفي للحارس، عندما اهتزّت بندقيته، أما هو فقد بقي جامداً. اعتقدت أنه مصنوعٌ من الخشب والبارودة من اللحم. لم أكن أريد المبادلة مع الحارس في البرج ولا مع سرب الطيور. ولم أكن أريد أن أكون عامل تفريغ فضلات الاحتراق الذي يأخذ كلّ مساءٍ الأربع والستّين درجةً نازلاً إلى القبو. رغم أنّي كنت على استعداد للمبادلة، أنا أعتقد أني أريد أن أكون البارودة.

فرغتْ عرباتي الصغيرة عربةً خلف أخرى كالعادة في ورديّة المساء، أما ألبرت جيون فقد ذهب لتعبئة العربة ودفعها. بعدئذ تبادلنا المهمات. لقد غطتنا الفضلات بضبابها.

كانت للجمر رائحةُ صمغ الصنوبرٍ وكانت لرقبتي العرقانة رائحة الشاي بالعسل. كان بياض عينيّ ألبرت جيون ينوس مثل بيضتين مقشرتين أما أسنانه فكانت مثل مشط تفلية القمل. ووجهه الأسود لم يكن معه في القبو.

كانت نار الفحم الصغيرة تضيء أحذيتنا حتى الركبة أثناء فترة الاستراحة على لوح الصمت. فتح ألبرت جيون أزرار سترته وسأل: أيهما تفتقده هايدرون غاست أكثر، الرجلُ الألمانيّ أم البطاطا؟ لقد قطعتِ الخيط عدة مرات حتى الآن، من يدري ماذا كتب على الرقع الأخرى؟ الحقّ مع المحامي حين يسرق لها طعامها. الحياة الزوجية الطويلة تجعلك جوعان، أما الخيانة الزوجيّة فإنّها تشبعك. لكزني ألبرت جيون على ركبتي

وظننتُ أنّها علامة انتهاء الاستراحة، لكنّه قال: غداً أحصل على الحساء، ماذا يقول سلكك المينكوفسكي حول ذلك. لقد صَمَتَ سلكي المينكوفسكي. ثم بقينا بعضاً آخر من الوقت جالسين بصمت. لا أحد رأى يدي السوداء على المقعد. ولا يده.

في اليوم التالي جلس باول غاست، رغم أسنانه المتقيّحة، ثانيةً بجانب زوجته في الكانتينه. رجعت إليه قدرته على الأكل ولهايدرون غاست قدرتها على الصمت. وقد صرّح سلكي المينكوفسكي حول ذلك قائلاً لقد خاب أملي، مثلما كان يحدث في أغلب المرّات. كما أني لم أعهد من ألبرت جيون مثل هذا اللؤم من قبل. لقد أراد أن يفسد على المحامي طعامه باحثاً عن مشاجرة معه. فقد أخذ عليه شخيره المرتفع الذي لا يمكن تحمّله. بعدئذ أردتُ أن أصير لئيماً وأكّدتُ لألبرت جيون، أنّ شخيره أقوى من شخير باول. غضب ألبرت جيون غضباً شديداً، لأني أفسدتُ له محاولته القتاليّة. فرفع يده ليضربني، ووجهه العظمي يشبه رأس حصانٍ. وبينما نحن نتشاجر، كان المحامي قد بدأ ومنذ زمن يغرف بملعقته من حساء زوجته.

كانت وتيرة الغَرْف لملعقتها تخفّ مع الوقت أما ملعقته فتزداد حركةً. كان يرتشف الحساء بصوت مسموع وزوجته بدأت تسعل، كي تشغل فمها بشيء ما. أثناء سعالها كانت تغلق فمها وتفتح خنصرها مثل سيدةٍ صغيرة. خنصرها الذي افترسه الحمض ووسّخته زيوت التزليق مثل كلّ الأصابع هنا في الكانتينه. لا أحد يملك يدين نظيفتين إلا الحلاق، رغم أن يديه قاتمتان مثل قتامة وسخ أيدينا، لأنهما كانتا مليئتين بالشعر وكأنه استعارهما من كلاب الأرض. أيدي ترودي بيليكان كانت أيضاً نظيفة، منذ أن عملت ممرضةً. يداها نظيفتان لكن لونهما بنيّ أصفر من كثرة ماتدهن أجساد المرضى بمرهم الإشتيول. بينما كنت أفكّر بخنصر هايدرون غاست المنبسط وبحالة أيدينا جاء كارلي هالمن وأراد أن يقايضني بالخبز. لم يكن في رأسي متسع لتبادل الخبز ساعتها، رفضتُ وبقيت على خبزي. فبادل مع ألبرت جيون، فأسفت لأنّي لم أبادل، لأن قطعة الخبز التي يقضم منها الآن ألبرت جيون بدت أكبر بمقدار الثلث من قطعتي.

في كلّ مكان وعلى كلّ الطاولات كان يخشخش التنك. فكلّ ملعقة حساء هي قبلةٌ من الصفيح، قلت في نفسي. والجوع الشخصي هو قوةٌ غريبة في كلّ شخص. ما أفضل معرفتي لذلك في تلك اللحظة؟ وكم كنت سريعاً في نسيان تلك المعرفة!

مسار الأشياء

الحقيقة العارية هي أنّ المحامي باول غاست ظلّ يسرق حساء زوجته هايدرون غاست من صحنها حتى لم تستطع بعد ذلك الوقوف على رجليها وماتت، ماتت لأنها لم تستطع فعل شيء آخر، مثلما سرق هو حساءها، لأنّ جوعه لم يستطع خياراً آخر، ومثلما ارتدى معطفها ذا القبّة الصبيانية وألسنة فرو الأرنب المرقّعة، فلم يستطع فعل شيء لمنع موتها، كما أنّها ليست مذنبة في عدم قدرتها على الوقوف. وكما حدث لاحقاً ولبست مغنيتنا لوني مِش المعطف دون أن تكون مذنبةً هي الأخرى في أنّ معطفاً صار بلا صاحب حين ماتت زوجة المحامي، تماماً كما كان هو بلا ذنبٍ في أنّه أراد إبدال زوجته بلوني مِش، وهكذا أيضاً لم تكن لوني مِش مذنبةً في أنها أرادت رجلاً تحت لحافها أو أرادت معطفاً، أو أنّه لم يكن ممكناً الفصل بين الاثنين، كما أن الشتاء ليس مذنباً في أنّه كان بارداً حتى التجمّد، ولم يكن المعطف مذنباً أنه يدفئ جيداً، وهكذا لم تكن الأيام مذنبةً في أنها كوّنت سلسلةً من الأسباب والنتائج، مثلما انتفى ذنب الأسباب والنتائج حين كانوا حقيقة عاريةً، رغم أن المسألة مسألة معطف فقط.

وهكذا كان مسار الأشياء: لا يوجد مذنب حين لا يكون أحد مسؤولاً.

أرنبٌ أبيض

أبانا، إنّ الأرنب الأبيض يصطادنا من الحياة. وينمو أكثر فأكثر في تجاعيد وجنات وجوه جديدة.

قبل أن يبلغ أشدّه يتفحّص لحمي من الداخل، لأنه هو لحمه أيضاً. هازوفيه.

عيناه فحم، وفمه آنيةٌ من التنك، أرجله محاريك لتقليب النار، وبطنه عربة صغيرة من عربات القبو، ودربهُ سكة صاعدة إلى أعلى الجبل.

مازال يجلس فيّ ورديَّ اللون مسلوخاً وسكينه في يده، إنها أيضاً سكين فينْيا الخاصّة بتقطيع الخبز.

حنين إلى الوطن. وكأنّ بي حاجة إليه

منذ سبع سنين أعيش بلا حنين للوطن، فأنا فيه الآن منذ سبع سنين. حين رأيت في واجهة إحدى المكتبات على المتحلّق الكبير رواية فيستا لهيمنغواي، قرأت فيستا لهايمفيه (للحنين إلى الوطن). لذلك اشتريت الكتاب ثم وضعت رجليّ على الطريق ومشيت باتجاه الحنين إلى الوطن، وضعت رجليّ على الدرب متجهاً صوب البيت. توجد كلمات تفعل فيّ ماتريد. هي مختلفةٌ عنيّ وتفكّر بشكلٍ مختلف عما هي عليه. تخطر تلك الكلمات ببالي وتدعني أفكّر. توجد أشياءٌ أولى تريد الثّانية، حتّى حين لا أريد أنا ذلك. الحنين إلى الوطن، وكأن بي حاجة له.

توجد كلمات، ماعدا كلمة **الانتكاس** نفسها، تضعني هدفاً لها، وكأنها خلقت للعودة بي منتكساً إلى المعسكر، وتبقى كلمة انتكاس غير مجدية، حين يحدث لي هذا الانتكاس. وكلمة **ذكرى** لاتنفع أيضاً، كما أنّ كلمة **ضرر** لاتنفع هي الأخرى في حالات الانتكاس، وكذلك كلمة **خبرة** . وحين أنشغل بمثل هذه الكلمات اللامجدية، يصبح من الواجب عليّ أن أتغابى أكثر مما أنا عليه أصلاً. لكن تلك الكلمات تصبح بعد كلّ لقاءٍ لها معي أكثر صرامةً مما كنّ عليه قبلاً.

لديك قملٌ في الرأس وفي حواجب عينيك وفي العنق وتحت الإبطين وفي شعر العانة. عندك بقّ في هيكل السرير. لديك جوع. لكنّك مع ذلك لا تقول: لديّ قمل وبقّ وجوع. أنت تقول: عندي حنين إلى الوطن، يعني كأنّك بحاجة إليه.

البعض يقول، ويغني، ويصمت، ويذهب، ويجلس، وينام حنينه إلى الوطن طويلاً وبلا فائدة. يقول البعض: إن الحنين إلى الوطن يفقد مع الوقت محتواه، يصبح كامناً، ويزداد شراهةً، لأنّ هذا الحنين لم يعد حنيناً إلى وطنٍ واقعيّ. أنا من الذين يقولون هذا.

حتّى مجال القمل وحده يشتمل، كما أعرفٍ ثلاثة أشكال من ألوان الحنين إلى الوطن: قمل الرأس وقمل اللّباد وقمل الثياب. أما قمل الرأس فإنّه يزحف تاركاً حكّةً في جلدة الرأس وخلف الأذنين وفي الحاجبين وفي خلفية الرأس. عندما تشعر بحكّةٍ في العنق فيمكن أن يكون ذلك من قمل الثياب وهو أحد أنواع قمل قبّاتِ القمصان.

قمل الثياب لايزحف. يسكن في درزة الثوب. ويسمى قمل الثياب، رغم أنّه لا يتغذى على الخيوط. قمل اللباد يزحف ويحكّ ماتحت شعر العانة. ولا يذكر شعر العانة في هذه الحالة، كانوا يقولون، يحكنّي تحت.

كان القمل مختلفاً في حجومه، لكنه بمجمله مثل السرطانات الصغيرة ولونه أبيض. وعندما تمعس القملة بين ظفري إبهاميك فإنّك تسمع فرقعتها الجافّة، ثم تجد على أحد الظفرين البقعة السائلة للقملة وعلى الظفر الثاني بقعة دم لزجة. بيوض القمل بلا لون، وتتوضع في صفوف مثل أكاليل الورد الجوريّ البللوريّة أو مثل حبّات بازلاء شفافة في قرنها. وقد يصبح القمل خطيراً حين يحمل عدوى الحمّى أو التيفوس، ماعدا ذلك يستطيع المرء أن يتعايش معه، إذ يتعود المرء على الحكّ في كل مكان في جسده. كما يمكن لأحدهم أن يجتهد قائلاً: لقد انتقل القمل بالعدوى من رأس إلى آخر عبر مشط الحلاق بعد زيارة صالونه. لا يحتاج القمل إلى مثل هذا الزعم لينتقل من رأس لآخر، فهو يزحف في البرّاكة من سرير لآخر.

وضعنا قوائم الأسرّة في علب كونسروة وملأنا العلب بالماء، كي نقطع الطريق على القملات. لكنهنّ كن جائعات مثلنا، ووجدن طرقاً أخرى للوصول إلينا. كنّا نتوزع تلك القملات فيما بيننا أثناء اجتماع ترديد الشعار وأثناء الوقوف في صفوف أمام شباك الطعام وعلى طاولات الأكل الطويلة في الكانتينه وفي الشّغل أثناء التّحميل والتّفريغ وحين نجلس القرفصاء للتدخين في الاستراحة و أثناء رقصة التانغو أيضاً.

حلقوا لنا شعرنا بماكينة الصفر. قصّ شعر الرجال أوسفالد إنييتر في صالون الحلاقة، أما النساء فقصتهن حلاقة الميدان الروسيّة في تخشيبة إلى جانب برّاكة المرضى. في أول حلاقة صفر جرت سمح للنساء أخذ جديلاتهن معهن ووضعهن في حقائبهن كذكرى عنهن أنفسهنّ.

أنا لا أدري لماذا لايفلّي بعض الرجال رؤوس بعض من القمل مثل النساء، فقد تناطحت رؤوس النساء يوميّاً في أحضان بعضهنّ، حكين الحكايات وغنّين وتبادلن الأدوار في تفلية القمل. كان تسيتّر لومّر يعرف ومنذ شتائنا الأول في المعسكر كيف ينظّف المرء

كنزته الصوفيّة من القمل. في غسق المساء، حين كانت درجة الحرارة تهبط تحت الصفر بكثير، كنّا نحفر حفرةً بعمق ثلاثين سنتيمتراً في الأرض، ثم نضع الكنزة في الحفرة ونغلق الحفرة تاركين طرفاً واحداً منها بطول إصبع اليد ناتئاً من الحفرة مكشوفاً في العراء. في الليل تزحف القملات جميعهن خارجات من الكنزة، ويتجمعن في غسق الصبح على شكل كتلٍ بيضاء على الطرف الناتئ من الكنزة، حيث نعفسهنّ بدعسةٍ واحدةٍ من طرف الحذاء.

حين جاء الربيع، وتحررت الأرض من جليدها المنغرز فيها بأعماقَ تزيد على المتر، فتحنا حفراً بين البراكات. كنت ترى أطراف الكنزات الناتئة من الأرض كلّ مساء وكأنها حديقة محبوكة بماكينات التريكو. في غسق الصبح تفتحت الحديقة بزبد أبيض مثل القرنبيط. دعسنا القمل بأحذيتنا وسحبنا الكنزات من الأرض ولبسناها ودفأنا أجسادنا ثانيةً. حينئذٍ قال تسيتّر لومّر: لاتموت الثياب حتى لو قبرناها.

سبع سنين مضت على عودتي إلى الوطن، وأنا أعيش بلا قمل منذ سبع سنين، لكنّني حين أرى القرنبيط أحياناً على صحني، أشعر أني آكل القمل منذ ستين سنة على أطراف كنزات الصوف في غسق الصبح الباكر. كما أنّي لا أشعر وحتّى اليوم أنّ القشطة قشطة.

توفر لنا بدءاً من العام الثاني للمعسكر حمّام لنزع القمل بالهواء المحمّص كلّ يوم سبت وكان يسمى إيتوبا – وهو عبارة عن قاعة محمّاة بهواء حرارته مرتفعةٌ جدّاً. كنّا نعلّق ثيابنا على خطافات حديديّة معلّقة على سكةٍ بعجلات تدورمثل سيور التعليق النّاقلة في مخازن التبريد في المسلخ. كان تحميص الثياب يستمر فترةً أطول حين كانوا يتكرّمون علينا بالوقت وبالماء الساخن في غرفة المِرَش – ساعة ونصف تقريباً. بعد أخذ المِرَش نقف عراةً في غرفة أماميّة وننتظر بقاماتنا المعوجّة والجرباء، عراةً مثل حيوانات جرّ استبعدت من الخدمة. مامن أحد منّا كان يشعر بذرّةٍ من خجل، وممّ يخجل امرؤ لم يعد له جسد. رغم أنّهم ساقونا إلى المعسكر بسبب هذا الجسد، كنّا هنا من أجل العمل الجسديّ. كلما ملكت جسداً أقلّ، عاقبك هذا الجسد أكثر، هذا الغلاف الذي يملكه الرّوس الآن. لم أخجل مرّةً أمام الآخرين، كنت أخجل أمام نفسي. إذ كيف أستطيع الآن أن أتعرّف على

جسدٍ عرفته أملس ناعماً أيام حمام نيبتون، حيث أربكتني أبخرة زهر الخزامى والسعادة المسروقة! حين كان من المستحيل أن يخطر على بال إنسان صور لحيوانات عملٍ تمشي على اثنتين ومستبعدة من الخدمة. حين كانت الثياب تخرج من الإيتوبا، كانت رائحتها حارّةً ومالحة وكان القماش محترقاً ومهترئاً. بعد تحميص الثياب لإزالة القمل منها مرتين أو ثلاث مرات، كانت تتحول قطع الشوندر المهرّبة والمنسيّة في جيوبها إلى مربّى حلو الطعم.

لم آخذ معي إلى الإيتوبا شوندراً أبداً. فأنا أحمل فيّ مجرفةً قلبيّة الشكل وفحماً وإسمنتاً ورملاً وأحجار بلوك وفضلات احتراق من القبو. لقد شهدتُ في حقل الكولخوز يوم بطاطا مرعباً، لكنّي بالمقابل لم أشهد يوم شوندرٍ في ذلك الحقل. فقط الرجال الذين عملوا في تحميل الشوندر السّكري وتنزيله في الكولخوز حملوا في جيوب ثيابهم إلى الإيتوبا مربّى فاكهة. كنت أعرف ومن بيتنا، كيف يكون معقود الفواكه: أخضر زجاجيّاً أو أحمر كثمر العليّق أو أصفر مثل الليمون. مثل قطع الحجارة الصغيرة تنغرز حبات تلك الفواكه في التورتة وفي تجاويف مابين الأسنان أثناء تناول الطعام. أمّا مربّى الفاكهة في جيوبنا فكان بنيّاً بلون الأرض. كانت قطع الفاكهة تبدو مقشّرةً مثل قبضاتٍ من البللور. وحين كنت أرى الآخرين يأكلونها، كان الحنين إلى الوطن يقضم تورتة الفواكه، فتنقبض معدتي.

في ليلة رأس السّنة حين بدأ عام المعسكر الرابع وفي برّاكة النساء أكلت أيضاً مربّى الشوندر على شكل تورته. وبدلاً من أن يُخبز في الفرن قامت ترودي بيليكان بصناعته على البارد. بدلاً من مربّى الفواكه استعملت ترودي مربّى الشوندر وبدلاً من الجوز لبَّ بذر عبّاد الشمس وبدلاً من الطحين جريش الذرة، وبدلاً من تقديمه على صحون التورته الصغيرة قدّمتْه على بلاطات سيراميك من النوع الفايينسي[1]، وهو سيراميك أخذ اسمه من مدينة فايينس الإيطاليّة، مطليّ بطبقةٍ من القصدير يستخدم في المدافئ، وقد جلبته ترودي من غرفة الأموات في برّاكة المرضى. وحصل كلّ منا على سيجارة من السوق – لوكي سترايك. بعد سحبتين من سيجارتي أصابني السكر، وترنّح رأسي على كتفيّ

1– الفايينسي Fayencekacheln.

واختلط بالوجوه الأخرى وصارت هياكل الأسرة تدور. غنينا متمايلين مقطوعة من أغاني البلوز، كنّا غنيناها أثناء ترحيلنا إلى المعسكر في عربة نقل الحيوانات:

في الغابة تزهر وريدة الحجر
وفي الحفر مازال الثلج يقبع
هذه التي كتبتها لي
رسالتك الصغيرة توجعني

جلست كاتي البلانتونيّة وقطعة التورته في يدها إلى الطاولة الصغيرة على السيراميك الفايينسي تحت مصباح الخدمة محملقة فينا دون أيّ إحساس بالمشاركة. ولكن عندما صارت الأغنية إلى نهايتها، تمايلت كاتي على كرسيّها وصاحت: أوووه، أوووه.

أوووه يشبه الصوت العميق لقاطرة ترام الترحيل على محطّته الأخيرة في ذلك الليل الثلجيّ قبل أربع سنوات. جمّدني الارتباك والبعض بكى. أيضاً ترودي بيليكان لم تستطع تهدئة نفسها فبكت دون توقّف. أما كاتي البلانتونية فقد جلست تتأمل هذا العويل وتابعت أكل التورتة. وكنت ألحظ أنّها تتلذذ بالتهامها.

توجد كلمات تستطيع أن تفعل معي ماتريد، فأنا لم أعد أعرف فيما إذا كانت الكلمة الروسيّة فوشّ تعني البقّ أم القمل. وهكذا فأنا حين أقول فوشّ فإنّني أقصد بذلك البقّ والقمل معاً. ربما لا تعرف هذه الكلمة حيواناتها أبداً. أما أنا فأعرفها.

يتسلق البقّ على الحيطان ثم يرمي نفسه في الظلمة ساقطاً من السّقف على أسرّة نومنا. أنا لا أعرف فيما إذا كانت البقّات ترتمي في النهار أيضاً، أو ربما لا يَراها المرء في ضوء النّهار. ولكي نحمي أنفسنا من هذا البقّ نترك ضوء الخدمة مشتعلاً طوال الليل في البراكات.

أسرّتنا مصنوعة من الحديد، قوائمها صدئة بدرزات لِحام خشنة، يعشعش فيها القمل ويتكاثر مثلما يفعل في الألواح الخشبيّة ذات السطوح الخشِنة تحت فراش الحصيد الذي يشبه الخيش. يصبح علينا حين يزيد القمل عن حدّه ويطغى أن نُخرج الأسرّة، غالباً في نهاية الأسبوع، إلى الفناء. وهناك تفرك الأسرّة بفراشٍ معدنيّةٍ صنّعها لنا بعض زملائنا الحدّادين في المصنع. حيث كنت ترى هيكل السرير والألواحَ الخشبيّة حمراء بنيّة تحت

تلك الفراشي، إنّه دم البقّ المسحوق. كم كان اجتهادنا عظيماً في هذا التوزيع الرسميّ للبقّ. كنّا نريد تنظيف أسرّتنا لتهب لنا راحتنا في الليل. كنا نحبّ رؤية دم البقّ، لأنّه دمنا. وكلما حصلنا على دم أكثر، زادت شراهتنا للحكّ بفرشاة الأسلاك المعدنيّة.

كنّا نعتصر من دواخلنا الكره حتى آخر قطرة منه. نحكّ البقّ بالفرشاة حتى الموت ونحن فخورون بعملنا، وكأن البقّ هو الرّوس. بعدئذٍ يغلبنا التعب وكأنا تلقينا ضربةً مفاجئة على الرأس. إنّه فخر متعِبٌ ومانح للحزن، هيَ مفخرةٌ حكّت نفسها بالفرشاة حتى صَغُرت منتظرةً المرّة القادمة. نحمل أسرّتنا المنزوعة من البقّ عائدين بها إلى البرّاكات رغم إدراكنا بأنّه لا جدوى ممّا فعلناه. حيث نقول بتواضعٍ قمليّ وبالمعنى الضيّق للكلمة: على الأقلّ يستطيع الليل الآن أن يأتي.

وبعد ستين سنة من هذا كلّه مازالوا يرحلونني إلى معسكرات العمل الإجباري في الحلم، لقد رحلوني وحتى الآن للمرّة الثانية والثالثة والسابعة أحياناً. أضع حقيبة الغرامافون على البئر ثم أروح هائماً على وجهي في ساحة اجتماع ترديد الشعار. لا يوجد أية فرق عملٍ هنا، ولا يوجد آمرون. أنا ليس لديّ عمل، منسيّ من العالم ومن قيادة المعسكر الجديدة. فأتصرف بناءً على خبرتي كمعتقل قديم في معسكرات العمل الإلزامي. أقول لنفسي موضّحاً: في النهاية أملك رفشي القلبيّ الشكل، أما ورديتي النهاريّة والليليّة فقد انتمتا دائماً للأعمال الفنيّة. أنا لستُ قادماً مجاناً إلى هنا، أنا أستطيع أن أفعل شيئاً. أعرف القبو وفضلات الاحتراق. لديّ ومنذ ترحيلي الأوّل إلى المعسكر قطعةٌ منها بحجم الصرصور في قصبة رجلي وكأنها وسام بطولة. لقد نما عليها اللحم. ثم أعرض وسام بطولتي على بطّةِ رجلي كالأبطال للفرجة. أنا لا أدري أين يمكنني النوم هنا! فكلّ شيءٍ جديدٌ هنا، لذلك أسأل: أين هي البرّاكات، وأين بيا تساكل وأين تور بريكوليتش؟ كانت فينيا المفلوجة في أحلامي ترتدي لكل حلم جديدٍ كنزة كروشيه جديدة، وتلبس فوقها دائماً نفس الوشاح المصنوع من ملاءات الخبز البيضاء. تقول لي فينيا، لا يوجد قيادة للمعسكر. أشعر وكأنّي مهمل. لا أحد يحتاجني هنا، ولا أستطيع المغادرة إطلاقاً، في أيّ معسكرٍ وقع عليّ هذا الحلم، ومتى كان الحلم يهتم بوجود رفشٍ على شكل قلبٍ أو توفّر

قبوٍ لفضلات الاحتراق، أم أن سنوات السجن الخمس تكفي؟

هل يريد الحلم ترحيلي إلى الأبد ثم يبقيني في معسكري السابع بلا عمل؟ كم هو مزعج هذا التّصرف. وأنا لا أستطيع الاعتراض على الحلم، مهما زاد عدد مرّات ترحيله لي ومهما كان شكل المعسكر الذي أنزلني به.

إذا ماحدث ورُحلّتُ في هذه الحياة مرةً أخرى، فإني أعرف:

تحدث أشياء أولى، تريد حصول ثانيتها فعلاً على الرغم من الناس. ما الذي يدفعني إلى مثل تلك العلاقات الترابطيّة؟ لماذا أريد في الليل أن أملك الحقّ في بؤسي؟ لماذا أعجز عن أن أكون حرّاً؟ لماذا أجبر المعسكر على الانتماء لي؟ حنين إلى الوطن، وكأنّ بي حاجة إليه.

لحظة صحو

كان وقت العصر حين جلست كاتي البلانتونية، لا أحد يعرف منذ متى، إلى الطاولة الخشبيّة الصغيرة في البرّاكة، ربما لتتفرّج على ساعة الوقواق. وعندما دخلتُ، سألت كاتي: هل تسكن هنا.

قلتُ: نعم.

قالت : أنا أيضاً، ولكن خلف الكنيسة. لقد انتقلنا إلى البيت الجديد في العام الجديد. بعدئذ مات أخي الصغير. كان عجوزاً.

قلتُ: لكنّه كان أصغر منك عمراً.

قالت كاتي: كان مريضاً، إذا مرض الإنسان فإنّه يصبح عجوزاً.

بعد موته لبستُ حذاءَي الظبي اللذين كانا له وذهبت إلى بيتنا القديم. وهناك وجدتُ رجلاً في فناء البيت، سألني الرجل، لماذا تأتين إلى هنا. فأظهرتُ له حذاء الظبي. وعندئذٍ قال، تعالي في المرّة القادمة ومعك الرأس.

فسألتُها، وماذا فعلتِ بعد ذلك؟

قالت: ذهبتُ إلى الكنيسة.

سألتُ: ماذا كان اسم أخيك الصغير.

قالت: لاتسي، مثلك أنت.

قلت لها: ولكنّ اسمي ليو.

ربما يسمونك أهلك في البيت ليو، أما هنا فاسمك لاتسي. قالت: كاتي.

أيّة لحظة صحو هذه اللحظة، إنّ في الاسم لقملة. فالاسم لاتسي مشتّقٌ من ليديزلاوس، قملة السيدات.

نهضت كاتي البلانتونية واقفةً ثم حدّبت ظهرها ونظرت إلى جهة الباب حيث ساعة الوقواق، وبرمت عينها اليمنى صوبي، مثلما يبرمُ المرء حريراً عتيقاً. ثم رفعت سبّابتها وقالت:

هل تعرف ماذا؟ عليك في الكنيسة ألاّ تلوح لي ثانيةً بيديك.

خفّة عقلٍ مثل القشّ

سمحوا لنا في الصيف إقامة حفلةٍ راقصةٍ في ساحة ترديد الشعار. وقبل أن يبدأ الليل طارت السنونوات خلف جوعها، وبدت الأشجار رماديةً متعرّجة، والغيوم مخضّبة بالحمرة حيث تدلّى فوق الكانتينه قمرٌ بسماكة أصبع. وعلى دقات طبل الحداد أنطون المندرجة في ريح ذلك المساء تمايلت أزواج الراقصين في ساحة ترديد الشعار كأنّها أجمات شجرٍ متحرّكة. كان الجرس الصغير لبطاريات الفحم يدقّ على مراحل. بعد ذلك مباشرة رأينا الجمر في أرض المعمل، الجمر الذي أضاء السماء حتى وصل إلينا. كان المشاهد يستطيع، طالما وُجدَ الضوء، أن يرى كيف انتفخت رقبة المغنيّة لوني مِش وارتجف بلعومها، كما كان بإمكانه مراقبة تثاقل عيون لاعب الأكورديون كونراد فونّ أيضاً، الذي دار بجسده منحرفاً إلى الجانب، حيث لاشيء ولا أحد.

بهيميّةٌ اعترت شدّ كونراد فونّ وضغط لأضلاع الأكورديون، كما لو أنّ جفونه كانت ثقيلة بما فيه الكفاية لمثل هذه الخلاعة، لكنّ الفراغ الظّاهر في عينيه كان بارداً جدّاً. لم تلامس تلك الموسيقى فؤاده، لذا طرد الأغاني بعيداً عنه، لتحبو داخلةً إلينا. أسمعنا أكورديون كونراد فون أصواتاً عميقة كأنّه كان يجر ساقيه في الهواء جرّاً. إذ منذ أن شُحن تسيتّر لومّر إلى الوطن عبر أوديسا بالسفينة، كما زعموا، غابت عن الأوركسترا الأصوات الرّائعة الحنونة. فربما تعكّر يومئذٍ مزاج الأكورديون لأنّ مزاج عازفه متعكّر، وربما كان يشكّ الأوكوردين في أنّ هؤلاء المُرحّلين يرقصون، حين كانوا يتمايلون أزواجاً كالأجمات على ساحة ترديد الشعار.

جلست كاتي البلانتونية على المقعد، وكانت تهزّ رجليها بحركةٍ إيقاعيّة. وحين يأتي رجل إليها ليراقصها، تركض هاربةً في الظلمة خارج حدود دائرة الضوء. بين الفينة والأخرى كانت ترقص مع واحدةٍ من النساء، حيث تمدُّ رقبتها لتراقب السماء في الأعلى. حتّى حين كان يتمّ تبديل الخطوة، كانت تبقى ضمن الإيقاع، يعني هذا أنها رقصت كثيراً في حياتها السابقة. حين تجلس على المقعد وتلحظ أنّ الراقِصَيْن لم يحتشما حين يقترب أحدهما من الآخر أكثر من اللازم كانت تأخذ قطعاً من حجارة آجر مكسّرة

وترميهما بها. ولم تكن كاتي تمزح في ذلك، كما كان يبدو من تعابير وجهها. قال ألبرت جيون، لقد نسي الكثير من الراقصين ساحة ترديد الشعار، حتّى إنهم يقولون، نحن نرقص في الرونديل، ساحة الرقص الدائرية. وقال أيضاً إنّه لن يرقص ثانيةً مع تسيرّي فاندشنايدر، فهي حسب قوله مثل الشوكة، تريد أن تهبَ نفسها له مهما كلّف الأمر. ولكنها الموسيقى، هي التي تغريها بالذّهاب إلى العتمة، وليس هو. في بالوما الشتاء تبقى المشاعر مطبّقةً على شكل ثنيات مثل أضلاع الأكورديون، ومحبوسةً في الكانتينه. لقد أثار رقص الصّيف فينا بعض جنون في الحزن، أو لوثة عقلٍ خفيفة مثل القش. كانت شبابيك البرّاكات تبرق بلمعان ضعيف، وكان المحتفلون يشعر بعضهم ببعض أكثر مما يرون هذا البعض. حيث وصفت ترودي بيليكان الحالة بالقول، خلال الرقص في الرونديل يتساقط الحنين إلى الوطن كالرذاذ من الرأس إلى البطن. كأنّ أنموذج أزواج الرقص يختلف بين ساعة وأخرى، وكأنهم أزواج من حنين، حنين إلى الوطن.

أنا أعتقد أنّ خلطةً من توددٍ ومكرٍ اعترت حركات الرّاقصين، ربما كانت خلطة مختلفة جدّاً، وربما سيئة جداً مثل خلطات الفحم. ولكنك تستطيع خلط ماتملك فقط. نحن لم نكن نستطيع شيئاً، نحن فُرض علينا أن نخلط ماتملك فقط. تماماً مثلما أجنّب نفسي الانتماء لأيّة خلطة وأحتاط جيداً، ولست أدري، كيف لا يلحظ الآخرون لماذا!

ربّما أَحسّ لاعب الأكورديون، أنّ به شيئاً مختلفاً. وهذا ماعذّبني، بالرغم من أني أعتبرشعوره هذا مقزّزاً. كنت أجبر نفسي كلّ مرةٍ على النظر إلى وجهه، كانت نظراتي طويلة ومتكررةً، يتناسب طولها مع طول فترة إشعاع الجمر القادم من المعمل منيراً مافوقنا من سماء.

كنت أنظر بين كلّ ربع ساعة وأخرى إلى لاعب الأكورديون فأرى رقبته مشرئبّةً فوق الأكورديون تحمل رأساً مثل رأس الكلب بعيونه البيض المقلوبة والمثيرة للخوف، لقد كانت عيوناً من حجر.

بعدئذ أصبحت السماء ليلاً حالك السواد. فانتظرت ربع ساعة أخرى حتى أصبح رأس الكلب بشعاً من جديد. كانت تلك الأجواء تعيد نفسها كلّ مرةٍ نرقص فيها البالوما

الصيفيّة على ساحة ترديد الشعار. فقط حين كانت تعاد مثل هذه الحفلات في واحدةٍ من أواخر ليالي الرقص، نهايات أيلول يكون الجوّ مختلفاً في الخارج.

جلست كما أفعل في أغلب الأحيان، أرفع قدمي على المقعد الخشبي وأضع ركبتي تحت ذقني. أوقف المحامي باول غاست الرقص معلناً استراحة وجلس قريباً من نهايات قدميّ ثمّ بقي صامتاً. مازالت زوجته الميتة هايدرون غاست تخطر بذهنه بين الفينة والأخرى. لأنّ نجماً سقط فوق القرية الروسيّة في نفس اللحظة التي أسند ظهره فيها للخلف.

قال: ليو، عليك أن تتمنى شيئاً وبسرعة.

ابتلعت القرية الروسيّة ذلك النجم، أمّا النجوم التي بقيت في السماء فقد تابعت لمعانها مثل ملح خشن.

لم يخطر ببالي شيء أطلبه، قال المحامي، وأنت!

قلت: أن نبقى على قيد الحياة.

لقد كذبت بخفّة عقلٍ وزنها من وزن القشّ. فأنا تمنيّت أن يكون أخي البديل قد مات. لقد أردت أن تفجع أمّي به وتتألم، فأنا لا أعرف هذا البديل حتى الآن.

عن لحظات السعادة في المعسكر

السعادة شيءٌ يفاجئك.

وأنا أعرف نوعين من أنواع السّعادة: سعادة الفم وسعادة الرأس.

تأتي سعادة الفم مع الطعام وهي أقصر إن قيست من الفم، بل هي أقصر حتى من كلمة فم نفسها. ليس لديها وقت للصعود إلى الرأس حين تلفظ. إن سعادة الفم لا تريد أبداً أن يتكلم المرء حولها. عندما أتكلم هنا عن سعادة الفم فمن الواجب عليّ أن أقول قبل كل جملة **فجأةً**. وبعد كلّ جملة: **لا تقل ذلك لأحد، لأنهم جميعاً جوعى**.

أضرب مثلاً واحداً فقط: فجأة تسحب الغصن إلى الأسفل، تقطف زهر الأكاسيا وتأكل. لا تقل ذلك لأحد، لأنهم جميعاً جوعى. أنت تقطف الحمّيضة من جانب الطريق وتأكل. أنت تقطف الزعتر البريّ بين الأنابيب وتأكل. أنت تقطف البابونج بجانب باب القبو وتأكل. أنت تقطف الثوم البريّ على السياج وتأكل. تسحب الغصن إلى الأسفل وتقطف ثمر التوت الأسود وتأكل. تقطف الشوفان في الأرض البور وتأكل. أنت لا تجد قشرة بطاطا واحدة خلف الكانتينه، لكنك تجد إحدى الأعشاب فتأكل.

لا تجد شيئاً تقطفه في الشتاء. تخرج من وردية شغلك ذاهباً باتجاه بيتك في البرّاكة ولا تدري، في أيّ مكانٍ يكون الثلج أطيبه. أعليك أن تأخذ مباشرة عن درج القبو قبضةً منه أم تأخذها عن كومةِ الفحم المغطّاة بالثلج أم من فوق باب المعسكر أولاً؟

من غير أن يقع عليها اختيارك، تأخذ قبضةً من الطربوش الأبيض لقائمة السور الخشبيّة وتطري بها النبض والفم والرقبة حتى القلب. وفجأة يذهب عنك التعب. أنت لا تُفشي سرّ ذلك لأحد، لأنّ الجميع متعب.

إذا لم يحدث سقوط ما، فإنّ كل يوم جديد هو سابقه. وأنت ترجو لنفسك، أن يكون اليوم كسابقه. الخامس يأتي بعد التاسع، يقول الحلاق أوسفالد إنييتر – حسب قانونه فإنّ في السعادة بعض البلاء. يجب أن يكون حظّي سعيداً، لأن جدّتي قالت: أنا أعرف أنّك ستعود. وهذا ما لا أقوله لأحدٍ أيضاً، لأنّ الجميع يريد أن يعود. لكي تمنح حظّاً جيداً فإنك

تحتاج لهدف. يجب أن أبحث عن هدف، حتى لو لم يتعد هذا الهدف قبضةً الثلج من فوق قائمة السور.

يستطيع المرء أن يتكلم عن سعادة الرأس بشكلٍ أفضل من الكلام عن سعادة الفم.

تريد سعادة الفم أن تبقى وحيدة، إنها خرساء ودواخلها ناضجةٌ. أما سعادة الرأس فإنّها اجتماعيّة وتبحث دائماً عن أشخاص آخرين. إنها سعادة ضالّة متخبّطة ومتخلّفة. إنّها تستمرّ طويلاً أكثر من قدرتك أنت على التّحمل. إنّ سعادة الرأس مقطّعة الأوصال وصعبة التصنيف، إنها تتدخل في الأمور كما تريد وتتحول بسرعة من

الساطعة إلى

القاتمة

غير الواضحة

العمياء

الغيرانة

المختفية

المرفرفة

المتردّدة

الطّائشة

اللجوجة

المتأرجحة

المنهارة

السّاقطة نتيجة الإهمال

المسطّرة

الداخلة ثقب إبرة

المخدوعة

الواهية

المجروشة

المضطربة

المتربّصة

المليئة بالشوك

المزعجة

العائدة

الوقحة

المسروقة

المرميّة بعيداً

الباقية

ثمّ إلى سعادة ابتعدت قيد شعرة عن هدفها.

يمكن لسعادة الرأس أن تمتصّ الرطوبة وأن تكون مفتولة الرّقبة ومرتجفة الأصابع. ولكنّ السعادة، أيّاً كانت، تنقّ في الجبين مثل ضفدع في علبةٍ تنكيّة.

إنّ لحظة السعادة الأخيرة على الإطلاق هي سعادة فاضت عن حدّها بمقدار قطرة واحدة. إنها تحضر إليك مع الموت. مازلت أذكر عندما ماتت إيرما بفايفر في حفرة صبّة (البيتون)، كيف قرقعت ترودي بيليكان بلسانها داخل فمها، قرقعة صِفرٍ كبير وقالت بعد ذلك كلمة واحدة:

حظٌّ فاض عن حدّه بقطرة واحدة.

اعترفت لها بأنّها على حقّ فيما تقوله، لأنّ المرء رأى انشراح صدر الميت عند الدفن، وكيف استراح أخيراً العشّ المتحجّر في الرأس والأرجوحة المضطربة في النّفَس والمضخّة المجنونة الإيقاع في الصدّر وقاعة الانتظار الفارغة في البطن. لم يشهد الرأس قبل تلك اللحظة أصفى من تلك السعادة، لأنّ الجوع كان مُعَشِّشاً على كلّ لسان.

مازال الأكل بالنسبة إليّ وبعد ستين عاماً من المعسكر حالة انفعاليّة كبيرة. فأنا آكل بكلّ مسام جسدي. عندما آكل مع أشخاص آخرين أتحوّل إلى شخصٍ غير مريح. فأنا آكل

بشكلٍ مكابر. لايعرف الآخرون سعادة الفم، فهم يعقدون مجالس عِشرةٍ وأنس، كما أنهم مهذبون، حين يأكلون. أما أنا فيجول بخاطري في لحظة تناولي للطعام تماماً **الحظ الزائد عن حدّه بقطرة واحدة**، إذ يأتي هذا الحظّ يوماً ما إلى كلٍّ منّا ونحن جالسون هنا، ويجبر الشخص الذي يحتاجه على التضحية بالعشّ الذي في الرأس والأرجوحة التي في النفس والمضخّة التي في الصدر وقاعة الانتظار التي في البطن. أنا أحبّ الأكل لدرجةٍ أريد فيها ألاّ أموت، لأنني إن مت لن أستطيع الأكل بعدها. وأنا أعرفُ ومنذ ستين عاماً أن عودتي إلى الوطن لن تروّض سعادة المعسكر تلك. إنّها مازالت إلى اليوم تعضّ بجوعها مفترسةً المركز من كلّ شعور آخر، إن الوسط في داخلي فارغ.

منذ عودتي يملك كلّ إحساسٍ من أحاسيسي شعوره الخاصّ. وفي كلّ يوم جوعه الخاص ثمّ يفرض شروطه على ردودٍ أنا لم أسقها إليه. لم يعد يسمح لأيٍّ كان أنٍ يتشبّث بي. لقد تعلمت من الجوع كثيراً، وصيّرني الخنوع، لا الاعتزاز بالنفس، إلى شخصٍ يستحيل بلوغه.

الإنسان يعيش. يعيش الإنسان مرّةً واحدة

لم يبق لديّ في زمن العظم والجلد شيء في المخّ ماعدا صناديق صغيرة من الأرغنات الضّاجّة بلا انقطاع، والتي كانت تصفر ليل نهار مردّدةً: البرودة تقصّ العظم، الجوع يغشّ، التّعب يثقل كاهلك، الحنين إلى الوطن يفترس، البقّ والقمل يعضّ. أردت الشروع في مقايضةٍ مع أشياء ليست ميتة رغم انها لا تعيش. كنت أريد الاتفاق على مبادلة إنقاذيّةٍ بين جسدي وخطّ الأفق العالي في الهواء والغبار الساقط على الأرض. أردتُ أن أستعير قدرتها على الصبر ثم أبقى كائناً من دون جسدي، وعندما يكون الأقسى قد مرّ وانقضى أمره، أعود وأدخل في جسدي وأظهر أمام الناس في طقمي القطنيّ. ليس لهذا أيّة علاقة بالموت، بل هو نقيضه. إنّ نقطة الصِّفر هي مالا يمكن قوله. ونحن، نقطة الصِّفر وأنا، على اتّفاق، أن المرء لايستطيع الكلام عن نفسه، إنه يستطيع، وفي أحسن الأحوال، أن يتكلم حول هذه النفس بشكل عام. يمكن لخطم الصّفر المفتوح أن يأكل، لكنّه لايتكلّم، إنّه يحبسك في حنانه الخانق. لا تستطيع المبادلة الإنقاذيّة تحمّل أيّة مقارنات. إنّها ضروريّة ومباشرة مثل: رفشةٌ واحدة = غرام واحد من الخبز.

كان عليّ في زمن العظم والجلد أن أظفر بالمبادلة الإنقاذيّة فعلاً، وأن أملك هنا أو هناك قدرة خطّ الأفق وغبار الشوارع على التّحمل. بجلد على عظمٍ وفي بدلةٍ قطنيّة لم يكن باستطاعتي أن أبقى على قيد الحياة بفعل قدراتي الخاصّة وحدها.

بالنسبة إليّ مازالت عملية تغذية الجسم سرّاً. ففي الجسم يتم التهديم والبناء مثلما يفعل العمال في موقع البناء. أنت ترى نفسك وترى الآخرين يوميّاً، ولكنّك لا تلاحظ ولا في أيّ يوم، كم هي كمية الانهدام الذي فيك، هذا الذي ينزل على رجليك. وتبقى المسألة لغزاً، كيف تأخذ الحريرات كلّ شيء وتعطي كلّ شيء. كيف يمحون كلّ أثرٍ فيك عندما يأخذن، ثم يُعِدْن ذلك الأثر حين يعطين. وأنت لا تعرف، متى بدأت أمورك بالتحسّن، لتجد نفسك بين ليلة وضحاها سليماً معافى.

حصلنا في عامنا الأخير في المعسكر على نقود مقابل عملنا. وهكذا صار بمقدورنا الذهاب للتسوّق في السوق. لقد أكلنا خوخاً مجفّفاً وسمكاً وفطائر روسيّة مقليّة أو جبنة

مملّحة وشحماً ودهن خنزير وتورتة ذرة مع شوندر سكّري وحَلاوة طحينيّة. وخلال أسابيع عادت لنا تغذيتنا الصحيحة وأجسامنا بدينةً مترهّلةً. يقول الرّوس عن ذلك بامستي. عدنا وأصبح منّا رجالٌ ونساءٌ ربّما يعيشون مراهقتهم الثانية.

بدأت حالات التبرّج والغرور الجديدة لدى النساء أوّلاً، بينما الرجال مايزالون يكدحون جارّين أنفسهم ببدلاتهم القطنية في لياليهم وأطراف نهاراتهم. وقد كانوا مع ذلك جذّابين بمافيه الكفاية، لكنّهم لم يستطيعوا أن يقدموا للنساء بهذه الجاذبيّة أكثر من وقودٍ لغرورهن. كان لملاك الجوع حساسية خاصة بخصوص الثياب وأمام زيّ المعسكر الجديد. إذ جلب الرجال من المعمل قطع قماشٍ بيضاء كالزهر، كانت بطول مترٍ واحد ومصنوعة من حبال القطن الغليظة بسماكة ذراعٍ اليد. حيث فكّت النساء تلك الحبال ثم عقدن الخيوط بعضها على بعض من جديد وحِكن لأنفسهن حمّالاتٍ لنهودهن وسراويل وبلوزات وصدّارات للعمل البيتي، مستخدماتٍ لذلك صنارات من حديد. كانت عقد الحياكة مسحوبةً باتجاه الداخل، حيث لم تُرَ أيّةً عقدة على القطع المحاكة بعد أن تجهز. حاكت النساء حتى رباطات الشعر والبروشات. فقد قامت ترودي بيليكان بحياكة بروش لونه من لون زهر اللوتس، كان يشبه فنجان موكّا معلّقاً على الصدر.

واحدة من اللتين تحملان اسم تسيريّ وضعت بروشاً سوسنيّ الشكل وله قبعات بيضاء بحجم الكشتبان على أسلاك حياكتها، أما بروش لوني مش فكان عبارة عن زهرة داليا ملوّنة بغبار حجر الآجر الأحمر. في هذه المرحلة الأولى، مرحلة تحويل حبال القطن إلى ثياب، أعجبت أيضاً بنفسي كثيراً. لم يطل الوقت كثيراً حتّى قررت أن أجهّز نفسي. فعملتُ طويلاً على حياكة قبّعةٍ دائرية مثل مظلّة من المعطف المهترئ ذي الشرائط الحريرية. كنت أحفظ طريقة حياكتها عن ظهر قلب، فقد كانت تصميماً صعباً بدقائقه الصغيرة، إذ يتمّ تزويدها بلفّة من غوما الدواليب الملبّسة بالقماش على كامل محيطها، وتكون لفة الغوما كبيرة لدرجة يمكن معها وضع القبّعة على الرأس بشكلٍ مائل لتغطي إحدى الأذنين. أمّا الجزء الأماميّ العلوي فيتكون من الكرتون، ويكون بيضويّ الشكل ومقوّى بورق أكياس الإسمنت. من الداخل يتم تبطينُ القبّعة بقطع مفيدة من قميص داخليّ ممزّق.

كانت البطانةُ هامةً بالنسبة إليّ، إن بعضاً من جهالة أيّام غابرة عاد للظهور، إذ كان المرء يريد أن يبدو جميلاً أمام نفسه في مناطق من جسده لا يستطيع الآخرون رؤيتها. لقد كانت من نوع القبّعات التي تنزلق على الرأس، وقد صنعت لتصبح قبّعة الأمل، إنها قبعة الأيام المفضلة.

شملت موضة شغل الكروشيه النسائيّة في المعسكر أيضاً صابون الزينة والبودرة وحمرة الخدود، وكانت كلّها تشترى من متجر في القرية الروسيّة. كانت كلّها من نفس الماركة كراسني ماك، الخشخاش الأحمر. كانت أغراض التجميل حمراء ورديّة، تفوح برائحة مبرحة في حلاوتها، فقد أدهشت ملاك الجوع نفسه.

أول موجة للزيّ على الإطلاق كانت أحذية الخروج، الباليتكي. أحضرت نصف عجلة غوما إلى الحذّاء، أما الآخرون فقد دبّروا لأنفسهم مواد مطّاطية من أحد السيور النّقالة في المعمل. صنع الحذّاء أحذيةً صيفيّة، ونعولاً رقيقة مرنة مفصّلة بدّقة على القدم ومشغولةً بشكلٍ أنيق على القالب. لقد لبسها الرّجال والنساء على حدّ سواء. أصبح ملاك الجوع بكل هذه التطوّرات خفيف الحركة وخرجت البالوما من البيوت الصغيرة، فالكلّ جرى إلى الرونديل ورقص حتى ماقبل منتصف الليل بقليل إذ ضجّ المعسكر بآخر نشيد وطنيّ قبل النوم.

ولأن النساء لم يردن فقط إثارة إعجابهن بأنفسهن وإعجاب النساء الأخريات بهنّ فقد أردن أيضاً لفت أنظار الرجال إليهنّ، وكان على الرجال أن يجاهدوا كي تسمح النساء لهم بالنوم في فراشهنّ تحت اللحاف والتلذذ بملامسة الألبسة الجديدة الشفافة على أجسادهنّ. بعد الباليتكي، وعلى الأجساد المنتصبة فوق الأحذية الجديدة انتشرت الأزياء الرجاليّة الجديدة. فالزيّ الجديد يجلب معه حالات حبّ جديدة، تنقّلات وحشيّة من حبيبٍ لآخر وحالات حمل وإجهاضات جرى بعضها في المشفى الحكوميّ. لقد كثر عدد المواليد الجدد خلف الحاجز الخشبي في برّاكة المرضى في المعسكر.

ذهبت إلى السيّد رويش، رجلٌ قدمَ من غوتّن برونّ في مقاطعة بانات. لم أكن أعرفه إلا من اجتماع ترديد الشعار. كان ينقل الردم أثناء النهار في المعمل الذي دمرته الحرب

ثمّ يجلس في ساعات المساء يرفو بدلات البوفايكا الممزقة مقابل بعض التبغ. لقد كان خريج مدرسةٍ للخياطة، ومنذ أن بدأ ملاك الجوع يجول مجنوناً في المكان، أصبح صاحب مهنةٍ يحتاج إليه الجميع. فتح السيّد رويش شريطاً رقيقاً مقسّماً إلى رقع طول الواحد فيها سنتيميتر واحد وقاسني من الرقبة حتّى الرّسغين فوق القدمين. بعدئذٍ قال السيد رويش، يحتاج البنطال إلى مترٍ ونصف المتر من القماش، أمّا الجاكيت فإنه تحتاج إلى ثلاثة أمتار وعشرين سنتيميتراً، كما نحتاج أيضاً إلى ثلاثة أزرار كبيرة وستة صغيرة. قال الخياط، أنا أدبّر أمر بطانة الجاكيت. كنت أريد على الجاكيت شريطاً مع إبزيم للشّد. فاقترح عليّ إبزيماً بحلقتين متداخلتين من الأمام وعلى الظهر ثنيةٌ ثنائيّة الفتحات، وقال إنّ الثنية المثلّثة هي زيّ اليوم في أمريكا. حجزت على حلقتين معدنيتين من عند الحداد أنطون ثم ذهبت ومعي كلّ ما أملك من نقود إلى متجرِ القرية الروسيّة. كان قماش البنطال أزرق غير شفّاف وعليه براقع بنيّة فاتحة. أما قماش الجاكيت فكان من البيج الرملي وعليه مربّعات بنيّة من لون أكياس الإسمنت، في كلّ مربع نقش بارز. كما اشتريت أيضاً كرافيتّة جاهزة، خضراء بلون الطّحلب ومقسّمة إلى أشكالٍ شبه منحرفة. إلى جانب ذلك اشتريت للقميص ثلاثة أمتار من قماش مضلّع أخضر من لون نبتة البليخاء. ثمّ جاء دور أزرار البنطال والجاكيت والاثني عشر زرّاً صغيراً للقميص. كان ذلك كلّه في شهر نيسان، أبريل من العام 1949.

بعد ثلاثة أسابيع حصلتُ على القميص والبدلة بثنيته المثلثيّة والإبزيم الحديدي. وأخيراً صار يليق بي ارتداء شالي الحريريّ النبيذي المعتم في داخله والبرّاق في مربّعاته. ربما رماه تور بريكوليتش، فهو لم يلبسه منذ زمن طويل. لم يبق ملاك الجوع في المخّ، لكنّه مازال يسكن في العنق، ومازالت ذاكرته طيّبة، رغم أنّه لايحتاج تلك الذاكرة بتاتاً، فقد أصبح زيّ المعسكر أيضاً نوعاً من الجوع، لقد صار جوع عيون. قال ملاك الجوع: لاتبذّر نقودك كلّها، من يدري ماذا سيأتي عليك بعد. وفكرتُ في الأمر، كلّ ما سوف يأتي أتى وصار هنا. كنت أريد ثياب خروج للتنزّه في شارع المعسكر الرئيس وثياباً للرونديل وأخرى من أجل مشواري إلى القبو بين الأعشاب والصدأ والردم. بدأتُ ورديتي بتبديل ثيابي في القبو. لقد حذّر ملاك الجوع من أنّ الغطرسة مرحلة سابقةٌ للسقوط. ولكنني

قلت له: الإنسان يعيش، الإنسان يعيش مرّة واحدة. وكذلك الملوخيّة لا تنتهي هنا وتحمل حِلى حمراء اللون وتفصّلُ لكل ورقةٍ قفازاً بإبهام مختلف.

صار لصندوق الغرامافون مع الوقت مفتاح جديد، لكنّه ضاق أيضاً بكّل ماأشتريته من أغراض. ولهذا كلّفت النّجار بصنع حقيبة قوية من الخشب من أجل ثيابي الجديدة. كما أوصيت باول غاست من ورشة الميكانيك على قفل بلولبٍ جيد للحقيبة الجديدة.

وحين ظهرتُ لأول مرةٍ بثيابي الجديدة في الرونديل قلتُ فيً نفسي: كلّ مايمكن أن يأتي صار هنا، ويجب على الأمور أن تبقى كما هي الآن.

سآتي مرةً على بلاط شارع أنيق

نمت نباتات الملوخيّة، بعد السّلام في عامه الرّابع أيضًا، نمت خضراء صافرةً في الريح. لم يقطفها أحد منا هذه المرّة، لأنّ زمن الجوع الوحشيّ قد ولّى. وكنا على يقين وبعد أربع سنوات من التجويع أننا لا نعلف الآن من أجل العودة إلى الوطن، بل من أجل البقاء والعمل هنا. لقد انتظر الروس كلّ عام العام الذي يليه، وكنا متخوفين من هذا. فالآن تقف خبرتنا وخدمتنا الطويلة نفسها حجر عثرة في طريق عودتنا، بعدما بزغ عصر جديد في أرض الروس المترامية الأطراف.

وشاع خبرٌ يقول إنّ تور بريكوليتش وبيا تساكل كانا وخلال كلّ تلك السنوات يجمعان الثياب ويبيعانها في السوق ثم يتقاسمان الغلّة مع شيشتفاينيونوف. ولذلك تجمّد الكثيرون من البرد، رغم أنهم كانوا يملكون الحقّ حسب نظام المعسكر أيضاً بالحصول على الثياب والبوفايكا والأحذية. لقد توقفنا مع الوقت عن إحصاء هؤلاء الموتى، لكنّي إذا أحصيت معاهدات السّلام الميتة مع أولئك الموتى لحصلتُ من سجل ترودي بيليكان على ثلاثمئة وأربعة وثلاثين ميتاً يرقدون في كلّ ذلك السّلام المعقود – في الأوّل منه وفي الثاني وفي الثالث وفي الرابع أيضاً. لم أفكّر في الأمر أسابيع طويلة، لتظهر الأموات ثانيةً مثل صليلٍ في المخّ ويرافقوني عبر يومي.

كمّ مرة قلت لنفسي، إن الأجراس النواسيّة الصغيرة لبطاريات الكوك تطنّ من عام إلى العام الذي يليه. وأنا أريد أن ألتقي يوماً بمقعدٍ في حديقة بدلاً من لقاء شبيهه في شارع المعسكر الرئيس. مقعد يجلس عليه شخص غريب يتنزّه، شخص لم يدخل المعسكر في حياته.

كانَ مساءً وكان نعل الكْريبّ، أي نعل اللاتيكس المريح، يدور دورته في الروندل، حيث سألت مغنيتنا لوني مِش، ماذا يعني كريبّ. يدوّر كارلي هالمن عينيه ناظراً إلى المحامي باول غاست ويقول: أتت كلمة كريبّ من كربّيرِن، وهو النفوق أو الموت، يعني أن نلبس جميعاً نعال لاتيكس حين نصعد بعد نفوقنا إلى سماء البادية. لم تتراجع لوني مِش عن عزمها في طرح الأسئلة، فبعد حديث نعال اللاتيكس المريحة انتقل الحديث إلى ذوي

الحظوة العصريين هذه الأيّام في أمريكا أو الفافوريتِن، فسألت لوني مِش ثانيةً، مَن هم هؤلاء الفافوريتِن؟ يجيب لاعب الأكورديون بأن الفافوريتِن هم حلاقو أذناب الطيور على الأذنين.

كانت تعرض لنا نحن سكانَ المعسكر كلّ أسبوعين على مسرح سينما القرية الروسيّة أفلام وعروض أسبوعيّة أخرى. كان بينها أفلام روسية وأمريكيّة أيضاً وحتى أفلام شركة «الفلم العالمي UFA»، التي تمّت مصادرتها في برلين. وقد رأينا في أحد العروض الأسبوعية من أمريكا نثار ورقٍ يتطاير مثل الثلج بين ناطحات السحاب، كما رأيناً مغنّين يلبسون نعالاً من اللاتيكس ولهم شوارب تتصل بلحى نصفيّة حتى أسفل الذقن. بعد الفيلم قال الحلاق أوسفالد إنييتر، لحى الذقون هذه تسمى فافوريتِن. لقد اكتملت الآن عملية ترويسنا ومن خلال هذه الأفلام يتم الآن تطويرنا على الطريقة الأمريكيّة، هكذا قال الحلاق.

وأنا أيضاً لم أعرف شيئاً عن الفافوريتِن، إذ نادراً ماكنت أزور السينما. بسبب عملي في ورديات، فقد كنت حين تدور أفلام السينما دائماً في القبو، أو كنت تعباً من عملي في هذا القبو. لكنّي كنت أملك باليتكي من أجل ذلك الصيف بعد أن أهداني كوبيليان نصف دولاب سيّارة. كما استطعت قفل حقيبة الغرامافون، فقد صنع لي باول غاست مفتاحاً بثلاثة أنوفٍ مثل أسنان الفئران. وحصلت من النجار على حقيبة خشبٍ جديدة بقفلٍ ذي برغي، كما جهزتُ نفسي جيداً بالثيّاب الجديدة.

ماكانت نعال اللاتيكس الخفيفة مصمّمة للقبو أبداً وانتشر زي الفافوريتِن من تلقاء نفسه، ربما كان هؤلاء الفافوريتن أكثر نفعاً لواحدٍ مثل تور بريكوليتش، فلقد بدوا لي وكأنّهم قردة.

ومع ذلك فقد حان الوقت، قلتُ في نفسي، لألتقي بيا تساكل أو تور بريكوليتش يوما ما وفي مكانٍ ما مقابلة الندّ للنّد، كأن نلتقي مثلاً في محطّة القطار حيث أوتادٌ من حديد الصبّ خارجة بلا معنى وظيفيّ من حيطانها القديمة ونباتات من النعناع البريّ تتوزع ناميةً في ظلالها كأنّك في مصحّ. كأن أصعد في القطار وأجد تور بريكوليتش جالساً في

نفس مقطورتي. فأحييه باقتضابٍ وأجلس مقابله بانحراف، هذا كلّ مافي الأمر. أفعل ذلك وكأنّه كلّ ما أريد، فأنا سأرى خاتم زواجه ولن أسأله، إذا كان قد تزوّج بيا تساكل فعلاً. سأقوم بأخذ سندويشتي من الحقيبة ثمّ أفتح طاولة القطار الصغيرة القابلة للطيّ وأضعها عليها. خبزٌ أبيض وعليه قطعة كبيرة من الزبدة مع شرائح من لحم الخنزير الوردية اللون. ثمّ لايعجبني طعم مآكله ومع ذلك لن أدع الآخرين يشعرون بأن طعمه لم يطب لي. أو أن ألتقي مثلاً تسيتّر لومّر. سوف يأتي مع المغنّية لوني مِش، وسأرى كيف انتفخت غدتها على رقبتها أكثر من الماضي. سيكونان كأنهما أرادا أخذي معهما إلى الكونشرتو في مبنى الأتينيّوم التاريخي في بوخارست[1]. سأغيّر صوتي حين أعتذر منهما وأتركهما يتجرجران في المبني هناك. لأنني سأقوم هناك بدور عامل استقبال الزبائن أثقب بطاقاتهم وأدلّهم على أماكنهم في الأتينيّوم. سأستقبلهما في مدخل القاعة وأقول لهما وسبابتي منبسطة: دعوني أرى بطاقتيكما، فالقاعة مقسّمة إلى أرقام مفردة وأخرى مزدوجة. أنتما تحملان الرقمين مئة وثلاثة عشر ومئة وأربعة عشر. يعني أنّ عليكما الجلوس منفصلين. ولن يتعرفا عليّ قبل أن يسمعا ضحكتي، وربما لن أضحك أبداً.

كما فكرتُ بيني وبين نفسي، أنّي التقيت تور بريكوليتش للمرّة الثانية في مدينة كبيرة في أمريكا. لن يحمل على أصبعه خاتم زواجه، ولكنه يصعد الدرج برفقة واحدة من اللتين اسمهما تسيرّي، كانت تسيرّي ممسكةً بذراعه.

لن تتعرّف عليّ تسيرّي هذه، أما هو فسوف يغمزني بعينه مثلما يفعل عميّ إدوين، حين يقول: ها أنذا أخاطر ثانيةً برفّة رمش. سوف أتابع طريقي، وسيكون هذا كلّ شيء. ربما سأحتفظ ببعض شبابي حين أخرج من المعسكر، أو كما يقولون، ربّما أكون في أوج شبابي، هذا ماتقوله أغنية غنتها لوني مِش بغدّتها المرتجفة وكأنها آريي: كان عمري ثلاثين إلا قليلاً. ربّما ألتقي تور بريكوليتش للمرة الثالثة والرابعة، ثم ألتقيه كثيراً في المستقبل الثالث والرابع والسادس وحتى الثامن. يوماً ما سأنظر من نافذة الفندق من الطابق الثاني

1- أتينيّوم Athenäum: وهو مبنى الكونشرتو التاريخي في بوخارست بني حسب نموذج من المهندس الفرنسي غاليرون ليكون في الأساس بناء سيرك.

إلى الشارع حين تمطر السماء وأرى رجلاً تحتي يفتح للتوّ مظلّته المطرية، وسيأخذ وقتاً طويلاً حتى يفتحها ويبلله المطر، لأن المظلّة استعصت على الفتح. وسأرى يديّ تور، وأقول إنهما يداه، ولن يدري هو بكلّ هذا. لأنه لو عرف، فسأعود إلى ذاتي وأقول، لو لم يعط لنفسه الوقت الكافي لفتح المظلّة، أو لو لبس قفازيه، أو لو أنّه مامرّ بهذا الشارع. لو لم يكن تور بريكوليتش، أو لو كان رجلاً آخر لا يملك من تور إلا يديه لصحت عليه من النافذة: امشِ على الجهة الأخرى من الشارع تحت الموقف المسقوف كي لايبللك المطر. لو أنّه رفع رأسه فقط، لربما قال: كيف تسمح لنفسك بمناداتي بأنتَ ولا تكلّمني بلهجة التفخيم أنتم. كنت سأقول له: إنني لم أر وجهكم، أنا أقول فقط ليديكم أنتَ.

قلت في نفسي، سآتي مرةً ماشياً على بلاط شارع أنيق، هناك حيث تختلف حياة الناس عن مثيلتها في المدن الصغيرة، حيث ولدتُ. وسيكون البلاط الأنيق شارعاً عريضاً على البحر الأسود. سيكون الماء أبيض مزبداً وسيموّج بطريقةٍ لم أشهد لها مثيلاً في حياتي. على الشارع العريض ستضيء أنابيب النيون وتضجّ موسيقى آلات الساكسوفون.

سألتقي بيا تساكل وسأتعرف عليها أيضاً، ستدور عيناها بنفس عطالتها السابقة ونظرتها المنزلقة. لن يكون لي وجه، لأنها لن تتعرف عليّ. سوف تحمل كما كانت دائماً نفس الشعر الثقيل غير المجدّل، إنما المرميّ مثل طائرٍ على الصدغين، أبيض شاحباً وطحينيّاً كجناحي نورس. وستكون عظام حنكها الناتئة كما كانت في الماضي، وحولها ينتصبُ ظلاّن قاسيان كركني بيتين ملتصقين وقت ظهرٍ عالٍ. سأفكر بالزاوية القائمة وبضاحيةٍ سكنيّة خلف المعسكر حيث بُنيت ضاحية سكنٍ جديدة للرّوس في الخريف الماضي خلف المعسكر. وقد بُنيت على شكل صفوفٍ من الفيللات المتلاصقة بأجزاء خشبية مسبقة الصنع أتت من فينلندا، وسميت بالبيوت الفنلندية. وقد قصّ عليّ كارلي هالمن أن تلك الأجزاء العمرانية المسبقة الصنع فُصّلت بدقة وتبعاً لمخططات تركيب جاهزة، حيث تورّد تلك المخططات معها. وأنّها أتت متداخلة بشكل فوضويّ عند توريدها، لدرجة لا تعرف معها أية قطعة تنتمي للأخرى. وهكذا يصبح التركيب وبالاً عليك. فأحياناً تنقصك قطعة وتكتشف أنّها لم تورّد، أو ربما تزيد قطع تمّ توريدها مرّتين

وأحياناً تورد قطع لالزوم لها إطلاقاً أو مغلوطة.

في كلّ سنوات خدمتنا في المعسكر كان معلّم تركيب البيوت الفنلنديّة هو الوحيد الذي اعتبر أنّ عمّال السخرة بشرٌ قادمون من بلاد متحضّرة، من بلاد فيها الزاوية القائمة تسعون درجة. لقد كان المعتقلون بالنسبة إليه بشراً يفكرون. ولأنني فعلاً أفّكر استطعت لمس هذه المعاملة.

في إحدى استراحات التدخين ألقى كلمةً في ورشة التركيب حول مقاصد الاشتراكيّة واللاملكية. وقد أدركنا من خلال كلمته أن الرّوس يعرفون، ماذا تعني الزاوية القائمة، لكنّهم لا يستطيعون تحقيقها على الأرض.

فكرت بيني وبين نفسي أنّي حتماً سأعود يوماً، من يدري في عهد أيّ سلام وفي أيّ مستقبل، إلى أرض السلاسل الجبليّة! إلى الأرض التي عبرت سماءها في الحلم راكباً على خنزير أبيض والتي يقول عنها الناس، إنّها وطني!

كثيراً ماتدور على ألسنة الناس في المعسكر هذه الأيام أحاديث العودة إلى الوطن والأحاديث التي يزعم بعضها أننا لن نراه قبل أن تكون أفضل أعوام حياتنا قد ولّت. وهكذا تتحوّل سنواتنا القادمة إلى رحلة عودة تستمرّ عشرات السنين، مثلما حصل مع معتقلي الحرب العالميّة الأولى. سوف يدعونا شيشتفانيونوف إلى آخر اجتماع قصير ويأمرنا بترديد الشعار، وسيكون أقصر اجتماع ترديد شعار شهدناه حتّى الآن ثمّ يقول:

أعلن حلّ المعسكر بدءاً من هذه اللحظة. اغربوا عن وجهي.

فينسحبُ كلّ واحدٍ بطريقته الخاصّة باتجاه الشرق، أي في الاتّجاه المعكوس، لأنّ كلّ الطرق إلى الغرب مغلقة. عبر الأورال قاطعين سيبيريا بأسرها، ثم آلاسكا وأمريكا حتى نصل عبر مضيق جبل طارق إلى البحر الأبيض المتوسط. إذ نصل بعد خمسة وعشرين عاماً من الشرق عبر الغرب إلى أوطاننا، اللهم هذا إذا بقيت أوطاننا أوطاننا، ولم يتبعوها حتى ذلك الوقت إلى روسيا. أمّا الاحتمالات الأخرى فهي: ألاّ نخرج من هنا إطلاقاً، لأنهم يريدون الاحتفاظ بنا حتى يصبح المعسكر قرية من دون أبراج حراسة ونبقى هنا سكاناً بالتّعوّد، لأنّا لم نصبح حتى تاريخه روساً ولا أوكرانيين، أو أن يجبرونا على البقاء هنا حتى

نقول إننا لم نعد نريد ترك مكاننا، لأنّنا مقتنعون، أنْ لا أحد ينتظرنا في ديارنا، التي يسكنها الآن ناس آخرون، وأهلنا صاروا مهجّرين، ولا أحد يدري إلى أين هُجّروا وربما لا يملكون هم أنفسهم أوطاناً. وهناك احتمال آخر، أن نريد البقاء هنا في النهاية، لأن الوطن ماعاد يعنينا في شيء ولا نحن أيضاً نعنيه في شيء.

عندما ينقطع الإنسان لفترةٍ طويلة عن أخبار وطنه وأهله ، يسأل المرء نفسه، عمّا إذا كان فعلاً يريد العودة إلى ذلك الوطن، وعن المتبقّي الذي يرجوه من هناك. فالمعسكر يأخذ منك حتى رغبتك في التمنّي. ويجبر المرء على ألا يختار شيئاً، بل يجعله يرفض أن يُسألَ عن خياراته. هو يريد العودة إلى بيته في الوطن بطبيعة الحال، لكنه وحين يتذكر ذلك يبعد هذه الذكرى إلى الخلف؛ إذ لا يثق المرء بقدرته على الذهاب بشوقه نحو الأمام. فلقد اعتقد أن الذكرى شوق وكفى. ومن أين يأتي الفرق بين الذكرى والشوق، عندما يدور في رأسه دائماً الشيء نفسه، لقد ضيّع هذا العالم، لدرجة أنّه لم يعد يفتقده.

قلت في نفسي: ماذا سأصبح إن عدت إلى الوطن؟ سأهيم على وجهي في الوديان بين السلاسل الجبلية مثل أي عائدٍ إلى الوطن، حيث أسمع أمام خطواتي صوت تش–تش–تش كأني قطار. ثم أسير إلى مصيدتي باختياري، وأقع في أكثر فخاخ الإلفة إثارة للخوف، إنه عائلتي كما أعتقد قائلاً، لكن في الحقيقة أقصد رفاقي من المعسكر. ستقول أمي إنّ عليّ أن أصبح عامل مكتبة، فالمكتبيّ لا يضطر أبداً للخروج في البرد أثناء تأدية عمله. وسوف تتابع: وأنت كنت دائماً مولعاً بالقراءة. أما جدي فسيقول، يجب عليك أن تفكر جيداً، ربما يكون من الأفضل أن تسافر متاجراً من بلدٍ لآخر يعني أن تصبح جوّالاً تجارياً. ثم يتابع قائلاً، لأنك كنت دائماً مولعاً بالسفر. ربما تقول أميّ أيضاً ماقالته، ثم يكرّر جدي الشيء نفسه، لكننا كنا نعيش هنا السلام الرابع ولم أكن أعرف على الرغم من وجود الأخ البديل، فيما إذا كانوا مايزالون على قيد الحياة. ففي المعسكر كانت مهنٌ مثل الجوّال التجاري جيدة من أجل سعادة المخ، فهي تقدّم لك زاداً للكلام.

على مقعد الصمت في القبو تحدثت مرة مع ألبرت جيون حول ذلك، حتى إنني استطعت إغراءه بالخروج من صمته. قلت له، ربما أُصبح فيما بعد جوالاً تجارياً، أحمل

في حقيبتي كميات كبيرةً من الأمتعة القديمة وأدور مروّجاً لمناديل الحرير وأقلام الرصاص والطباشير الملونة والمراهم ومزيلات البقع.

جلب جدّي معه مرّة لجدتي قوقعة من هاواي، كانت كبيرة مثل قمع الغرامافون وفيها من الداخل صدفة زرقاء. ربّما أصبح معلّم بناء، معلّم بناء يسحب مخطّطات بناياته التي سيعمّرها على ورق الكربون، قلت وأنا جالس في القبو على مقعد الصمت، أو معلّم بناء يسحب خرائط البناء باستخدام طريقة بخار الأمونياك الزرقاء الجافة، وعندئذٍ سيكون لديّ مكتبي الخاص. سأقوم ببناء فيللات للأغنياء، إحدى تلك الفيللات ستكون دائرية تماماً مثل سلل الحديد في المعسكر. حيث أضع الخطة أوّلاً على ورق الزبدة. أضع في المركز مصعداً مغزلياً بين القبو وقبّة البناية. وستكون الشقق جميعها مثلثات متساوية الأضلاع ينطلق رأسها من مركز البناية حيث المصعد وينتهي ضلعاها بقاعدة قوسيّة بمقدار ربع دائرة أو سدس دائرة أو ثمن دائرة وكأنها قطع التورتة. يوضع ورق الزبدة في إطار فوق ورق السحب، ثم يوضع القالب من خمس إلى عشر دقائق في ضوء الشمس. ثم يلف المرء ورق السحب في أنبوب فيه أبخرة النشادر، وبعد وقت قصير يخرج المخطط برونقه الجميل من الأنبوب، وتحصل في النهاية على نسخة جافّة وجاهزة، لونها يتخبّط بين ألوان الورد والليلك والقرفة البنيّة.

سمع ذلك ألبرت جيون وقال: نسخةٌ على بخار النشادر، ألم تشبع من الأبخرة يارجل، أراك كأنّك قد تعبت من الحياة. ألا ترى أننا موجودون في القبو لأننا لا نملك مهنة في اليد، مثل مهنة الحلاق أو الحذاء أو الخياط. هذه هي المهن الجيدة، بل هي أفضلها في المعسكر. لكنّ أصحابها هنا كانوا قد تعلّموها سابقاً وجاؤوا بها من بلدانهم، إما أن تكون قد فعلت مثلما فعلوا وإلا فإنّك لن تتعلم مهنةً في حياتك أبداً. إنها مهنٌ لها علاقة بقدَرِك في الحياة، لوعرفنا أنّا سنساق يوماً إلى معسكر كهذا، لصرنا حلاقين وحذائين وخياطين، وليس جوالين تجاريين أو معلميّ بناء أو معلميّ ازرقاق في أي حال من الأحوال.

كان ألبرت جيون على حقّ. هل حَمْلُ (البيتون) ونقلهُ مهنة. عندما لايفعل المرء عبر كل تلك السنوات الطويلة إلا حمل (البيتون) أو حجارة البلوك أو رفش الفحم أو إخراج

حبات البطاطا من الأرض بالأيدي أو تنظيف القبو، فسيعرف هذا المرء كيف يدبّرُ أموره الحياتيّة بمنطق «ماشي الحال»، لكنه سيبقى في النهاية بلا مهنة.

إنها أعمال شاقة، لكنّها ليست مهناً. فهم لا يريدون منّا إلاّ العمل فقط، فلم يسبق لهم أن سألونا عن مهننا أبداً، كنّا لهم يدهم الطّولى واليد الطولى ليست مهنة.

لم يبق من الجوع الوحشيّ الذي امتلكنا في السابق شيء وتابعت الملوخيّة نموها خضراء فضيّة، لتصبح فيما بعد خشبيّة مبرقّعة بالأحمر. ولأننا خَبرنا الجوع لم نعد نقطف منها بل اشترينا طعاماً دسماً من السوق والتهمناه مثل بشرٍ مصروعين. لقد أصبح الحنين إلى الوطن الآن هشّاً، ولقد سُمِّن هذا الحنين بلحم جديد وسريع النموّ. وقد وجب عليّ وأنا أرتدي هذا اللحم الجديد على جسدي أن أقوِّل للقديم منه محاولاً إيهامه: سآتي يوماً على بلاط شارع أنيق، أنا أيضاً سآتي.

عميق مثل الهدوء

بعد أن انتهى زمن العظم والجلد ومبادلات الإنقاذ – وقدم زمن الباليتكي والنقود والأكل واللحم الجديد على الجلد والثياب الجديدة في الحقيبة، جاء تسريحي اللامعقول من المعسكر.

حول السنوات الخمس في المعسكر يمكنني أن أقول اليوم خمسة أشياء:

رفشة واحدة = غرام خبز واحد.

نقطة الصفر هي مالا يمكن قوله.

مبادلة الإنقاذ هي ضيفٌ من هناك.

نحن– المعسكر كلمة تدلّ على المفرد.

المحيط يذهب باتجاه العمق.

غير أنّه يمكن استبدال هذه المقولات الخمس بواحدة، وواحدة فقط:

هي عميقة كالهدوء فيما بينها وليس أمام شهود.

الذي لايبدي حراكاً[1]

عدتُ في بدايات شهر كانون الثاني، يناير 1950 من المعسكر إلى الديار في الوطن. الآن أجلس ثانيةً في حجرة جلوس، على كنبة على شكل مربّع مجوّف تحت سقف الجصّ الأبيض كأنني أجلس تحت الثلج. كان أبي يرسم جبال الكاربات، كان يرسم كلّ بضعة أيام لوحة جديدة بالألوان المائيّة لجبالٍ متعرّجة رماديّة وشجر تنّوبٍ محته الثلوج، كنت ترىً ذلك في كلّ لوحاته تقريباً. كان يرسم شجرات التنوب على شكل صفوف حين تأتي عند قدمي الجبل، ويرسمها على السفح في مجموعات، أمّا على القمم المتعرّجة كأسنان المشط فكانت أزواجاً وفرادى، وبينها هنا وهناك يزرع إحدى شجرات البتولا متشعّبة الأغصان كأنّها قرون أيائل. كان واضحاً من اللوحات أنّ رسم الغيوم صعب جداً على والدي، كان ينقلها عن مخدات ديوان بيتنا الرمادية المتشابهة، أمّا جبال الكاربات فكان يرفعها مثقلة الجفنين نعسانة أينما ظهرت في لوحاته.

كان جدّي قد مات، أما جدتي فقد جلست على كنبتها القماشيّة لتحلّ كلمات متقاطعة. إذ كنت تسمع صوتها بين الفينة والأخرى تسأل عن كلمةٍ تحتاجها لإكمال الحلّ مثل: ماذا يطلقون على الكَنَبَة في الشرق، جزء من الحذاء يبدأ بحرف النون، سلالة أحصنة، سقف من قماش الأشرعة.

حاكت أمي جورباً إثر جورب من صوف الغنم للطفل البديل روبيرت. أول زوج جرابات كان أخضر والثاني أبيض. ثم جاء الرمادي والمبرقع بالأبيض المحمرّ، ثم الأزرق والرمادي. بعد ذلك بدأت الحيرة تدبّ في وجه أمّي – لقد حاكت كتلة من القمل هذه المرّة. ومنذ ذلك الحين لم أر في الجوارب إلا حدائقنا المحاكة بين البرّاكات مليئة بأطراف كنزات الصوف الناتئة من الأرض في غسق الصبح. كنت مستلقياً على الكنبة، وكبّة الصوف في قصعة تنكيّة إلى جانب كرسيّ أميّ. كانت كبّة الصوف أكثر حياة منّي.

تسلّق خيط الصوف، يعلق قليلاً في الأعلى ثم يلقي بنفسه ساقطاً إلى الحضيض. كان

1– الذي لايبدي حراكاً وهو مصطلح وضعته الكاتبة لشخص متعطّل تماماً، على الرغم منه. والتسمية تشخيص لوضع نفسيّ محدد عاشه بطل الرواية بعد عودته من المعسكر.

الجوربٍ يحتاج إلى كبتيّ صوف، كلّ واحدةٍ بحجم قبضة اليد حتى يجهز، أما طول الصوف اللازم للجورب فلم يكن من الممكن حسبانه. ربما تناسب، لو أضيف صوف الجوارب كلّها بعضه إلى بعض، مع البعد بين ديوان بيتنا ومحطّة القطار. تجنبت المرور بمنطقة ماحول محطّة القطار. رجلاي الآن دافئتان، ولا يحكّني إلا بقع الصقيع على مشطيّ الرجلين، حيث كانت توضع الضمادة على الرجلين، وهي أوّل مايتجمّد في الجسد حين كان يأتي الزمهرير في المعسكر زائراً. كانت أيام الشتاء قصيرة، إذ يصبح النهار أغبر بدءاً من الرابعة بعد الظهر، فتضغط جدتي على زرّ المصباح الكهربائي. كان ضوء المصباح داكناً يسيل مثل قمع فاتح الزرقة ينتهي بأهداب زرقاء. حصل السقف على قليل من الضوء، ولكنّ ديكور الجصّ بقي معتماً وبدأ بالذوبان في العتمة، ثمّ عاد في صباح اليوم التالي إلى بياضه. فأوهمت نفسي، بأن ديكور الجصّ هذا طريّ التّجمّد في الليل، عندما ننام في غرفٍ أخرى، وكأنّه ديكور من الجليد المحاك في الأرض البور خلف زيلن. كانت دقّات الساعة مسموعة إلى جانب البرّاد، وبندول الساعة ينوس جارفاً الوقت كالرفش بين قطع الأثاث ليلاً ونهاراً، فمن البراد إلى النافذة ومن الطاولة إلى الديوان ومن الفرن إلى كنبة القماش. كانت دقات الساعة أرجوحة روحي، وفي صدري صارت رفشي الذي يشبه القلب، ما أحوجني إليها الآن.

في نهايات شهر كانون الثاني، يناير جاء عميّ إدوين في الصباح الباكر وأخذني معه لكي يعرضني على معلّمه في معمل الصناديق الخشبيّة. في زقاق المدرسة بعد بيتنا ببيت أطلّ وجه من شباك السيد كارب، وقد بدا ماتحت رقبة ذلك الوجه إنموذج زهرةٍ مقطوع من كريستال الجليد. حول الجبهة تدلت جديلةٌ من الشّعر الجليدي وإلى جانب جذع الأنف جحظت عين منزلقة باخضرار - رأيت بيا تساكل في معطفها الصباحي الملوّن بأبيض الزهر وهي تحمل على رأسها جديلتها البنيّة الثقيلة. في النافذة جلست كما في كلّ يوم قطّة السيد كارب، ولكن قلبي توجّع على بيا، توجّع على تقدمها السريع في العمر.

لقد عرفت أنّه لايمكن لتلك القطّة أن تكون أكثر من قطّة، وأن عمود التلغراف ليس نقطة حراسة، وأن اشتعال الثلج الأبيض ليس شارع المعسكر الرّئيس. لقد عرفت ألاّ شيء

يمكن أن يكون إلا هو نفسه هنا في الوطن، لأن كلّ شيء بقي في مكانه كما كان، كلّ شيء ماعداي.

بين الشبعانين من الوطن أصابني دوار من الحريّة، واضطربت عاطفتي لتتناسب مع خوف كخوف الكلاب، مع الانهيار، كان مخّي يحتاج إلى الخضوع والاستكانة.

لقد رأيت بيا تساكل تنتظرني في النافذة، وهي رأتني بالتأكيد حين مررتُ من هناك. كان يجب عليّ أن أحيّيها، أو على الأقل أن أومئ برأسي أو ألوّح بيدي محيياً. لقد خطر لي ذلك متأخراً، إذ كنّا قد قطعنا الآن بيتين في مشوارنا، وحين وصلنا إلى نهاية زقاق المدرسة وانعطفنا إلى زاوية الشارع لفّ عمي زنده حول زندي. لقد شعر عمّي بالتأكيد أن جسمي يسير ملتصقاً به، أما أنا ففي مكانٍ آخر مختلف جدّاً. ربما لم يعلّق عمّي يده بيدي، بل تعلّق بمعطفه القديم، الذي كنت أرتديه.

كانت رئته تصفر. وبدا لي أنه ماكان يريد قول الذي كان قد قاله بعد صمت طويل. وأنّ جناحيه الرئويين أجبراه، على القول بصوتٍ ثنائي النبرة: عساهم يقبلونك في المعمل، يبدو لي أن شللاً تسرّب إلى بيتكم. لقد قصد بكلامه الشخص الذي لايدي حراكاً.

في المكان الذي كان يغطّيه لُسيْنُ قبعته على الأذن اليسرى، ابتعدت غضون الجلد على محارة أذنه بنعومة بعضها عن بعض تماماً كما فعلت على أذنيّ أنا. فقررت أن أتفحّص أذنه اليمنى. لذلك بدلت مشيتي إلى جهته اليمنى. كانت أذنه اليمنى أُذني أنا أكثر من اليسرى. حيث يبدأ الطرف الناعم للأذن أعمق في الأسفل، كما كان أطول وأعرض، وكأنّه مكويّ.

قبلوني للعمل في معمل صناديق الخشب. كنت أخرج كلّ يوم من «الذي لايبدي حراكاً» ثم أدخل إليه بعد العودة من عملي في المساء. كنت حينً أصل البيت تسألني جدتي كلّ يوم:

هل جئتَ.

وأنا أقول: نعم جئت.

ثمّ تسألني في كلّ مرّة حين أغادر المنزل:

هل أنت ذاهب.

وأنا أقول: نعم أنا ذاهب.

كانت في كلّ سؤال تسأله تقترب منّي خطوة واضعة يدها على جبينها وكأنّها لا تصدق ما أقوله لها. كانت يداها شفافتين، ليس عليهما أكثر من الجلد والشرايين والعظم، كانتا رفّينِ من الحرير. كم تمنّيت لوكان باستطاعتي السقوط على كتفيها مقبّلاً عنقها، حين كانت تطرح عليّ تلك الأسئلة. لكنّ «الذي لايبدي حراكاً» منعني.

كان روبيرت الصغير يسمع أسئلة جدّتي اليوميّة. وحين كان يخطر على باله أن يقلّد الجدّة يجري ورائي خطوةً ويضع يده على جبينه ويسأل دفعة واحدة:

هل جئت، هل أنت ذاهب؟

ودائما حين كان يتحسس جبينه بيده، يثير انتباهي تجاعيد جلده الغض على رسغه. وفي كلّ مرة تهجم عليّ فكرةُ أخذ أخي البديل من عنقه وخنقه، حين كان يلقي عليّ أسئلة الجملة الواحدة. لكن «الذي لايبدي حراكاً» كان يمنعني.

في أحد الأيام، حين عدتُ من عملي، رأيتُ طرف قطعةٍ من القماش خارجاً من تحت غطاء ماكينة الخياطة. وفي يومٍ آخر تدلّت على قبضة باب المطبخ مظّلة مطرية وعلى الطاولة وضع صحنٌ مكسور، كسرتان متساويتا الحجم وكأن الصحن قصّ في منتصفه تماماً، ورأيت أمّي تربط إبهامها بمنديل جيب. وفي يومٍ آخر كانت حمالات بنطال أبي ملقاةً على الراديو ونظارات جدتي في حذائي. ثمّ فيٍ يومٍ آخر كانت لعبة روبيرت، الكلب القماشيّ موبّي، مع رباطات حذائي معقودةً على مسكّة إبريق الشاي، ووجدت مرّةً في قبّعتي قطعة خبزٍ يابسة.

ربما قاموا بتعرية «الذي لايبدي حراكاً» من ثيابه حين خرجتُ من المنزل. ربما ينتعشون وتعود إليهم حيويتهم حين لا أكون موجوداً. فقد سارت الأمور هنا في البيت كما كانت هي الحال مع ملاك الجوع في المعسكر. لا شيء واضحٌ، هل يسكن في داخلنا الجمعي هذا «الذي لايبدي حراكاً»، أم لكلٍّ منّا واحده الخاصّ. ربّما سخروا منّي ضاحكين بعد خروجي من البيت. ربّما أشفقوا عليّ أو شتموني. ربّما قبّلوا الصغير روبيرت. ربّما قالوا،

إنّ عليهم أن يصبروا عليّ، لأنهم يحبّونني، أو فكّروا بذلك بصمت وتابعوا أشغالهم كالمعتاد. ربّما، ربّما وجب عليّ أن أضحك، حين أعود للبيت، أو أن أشفق عليهم أو أشتمهم. ربّما كان عليّ أن أقبّلَ روبيرت الصغير. ربّما وجب عليّ أن أقول، إنّ من واجبي الصبر عليهم، لأنني أحبّهم. ولكن، كيف يجب عليّ أن أقول هذا كلّه، عندما لا أستطيع أن أفكّر حتى بيني وبين نفسي بذلك.

في الشهر الأول بعد عودتي تركت المصباح الكهربائيّ في الغرفة مضاءً طوال الليل، لأنني أخاف النوم من غير ضوء الخدمة. أنا أعتقد، أنّ الإنسان يحلم في الليل، حين يتعبه النهار. بعد أن سُمح لي بالعمل في معمل صناديق الخشب، عاد إليّ الحلم لأوّل مرّةٍ حين ذهبت للنوم في ذلك اليوم.

في البيت نجلس، جدتي وأنا، سويةً على كنبة القماش، ويجلس روبرت على كرسيّ إلى جانبنا. أنا صغير مثل روبيرت وروبيرت كبير مثلي، روبيرت يصعد على كرسيّه، يأخذ ديكور الجصّ عن السقف فوق الساعة، ويضع الجصّ حول رقبتي وحول رقبة جدّتي مثل شال أبيض. يقف أبي على ركبتيه أمامنا على السّجادة وبيديه كاميرا اللايكا، إذ تقول أميّ: ابتسموا، إنها آخر صورة لها قبل أن تموت.

رجلاي لا تتجاوزان حافة الكرسي إلا قليلاً. من هذا الموقع لا يستطيع والدي أن يأخذ في لقطته الفوتوغرافيّة إلا بعضاً من أسفل حذائي، أي القسم الأماميّ للنعل القريب من الباب، فهو لايملك أيّ خيارٍ آخر أمام مثل هذه الأرجل القصيرة، حتّى لوأراد. أخلع الجصّ من فوق الكتفين، لكنّ جدّتي تضمني وتعيد الجصّ إلى رقبتي ضاغطة إياه بيديها الشفافتين. ثمّ تشير أمي لأبي بواسطة إبرة الحياكة، فيبدأ بالعدّ التنازلي - ثلاثة، اثنان، ويضغط على زر الكاميرا ملتقطاً الصورة عند لفظه للرقم واحد. بعدها تغرز أمي إبرة الحياكة مائلةً في تسريحة شعرها وتنزع الجصّ عن أكتافنا. أما روبيرت فإنه يصعد على كرسيّه حاملاً الجصّ بيديه ويعيده إلى مكانه في السقف.

هل عندك ولد في فيينا

منذ أشهر ورجلاي في الوطن، حيث لا يدري أحدٌ بالذي رأيته وعانيته أثناء غيابي الطويل. حتى إنّ أحداً لم يسأل عن ذلك. وأنت تستطيع الكلام فقط عندما تستطيع أن توصل لمن يستمع إليك هدفك من الكلام. لقد سعدتُ بعدم سؤالهم لي عن أيّ شيء، ولكني في نفسي كنت في الحقيقة منزعجاً. لوكان جدي مازال على قيد الحياة لسألني، لكنّه مات منذ سنتين. يعني أنه مات بسبب القصور الكلويّ في الصيف الذي أتى بعد السلام الثالث وبقي عند الأموات، خلافاً لما حدث لي.

زارنا جارنا السيد كارب في أحد المساءات، حين أعاد إلينا الميزان المائي[1] الخاص بالبنّائين الذي كان قد استعاره في وقتٍ مضى. وعندما رآني بدأ يتلعثم في الكلام. شكرته على مشدّاته الجلدية الصفراء ثم كذبت عليه حين قلت بأنّ المشدات دفّأت ساقيّ في المعسكر. حتى إنّها جلبت لي الحظّ، تابعت قائلاً، لأنني بسببها عثرتُ مرّةً على عشرة روبلات في السوق. من شدّة دهشة السيد كارب انزلقت حدقيات عينيه رائحة غادية وكأنهما لبّا حبتي كرز. شبّك ذراعيه ومسّحهما بإبهامي يديه ثمّ تأرجح في وقفته وقال: لقد انتظرك جدّك دوماً. في يوم وفاته صعدتِ الجبال إلى الغيوم، قدمتْ غيوم كثيرة ومن كلّ الاتجاهات إلى المدينة، كانت الغيوم غريبة مثل حقائبٍ غريبة وكانت تعرف أن جدّك قد دار الدنيا برحلاته البعيدة.

لقد جاءت غيمة من طرفك بالتأكيد، حتى ولو لم تدر أنتَ بذلك. انتهت مراسيم الدفن في الساعة الخامسة صباحاً، بعدئذ أمطرت السماء بهدوء استمرّ نصف ساعة تماماً. مازلت أذكر أنّ يوم الدفن كان يوم أربعاء وكان عليّ يومذاك أن أذهب إلى المدينة لشراء الغراء. وفي طريق العودة إلى البيت رأيت جرذاً عارياً أمام عتبة بيتكم. كان مجعّد الجلد مرتجفاً ومتكوراً على باب بيتكم الخشبي، وأدهشني أنّ يكون ذلك الجرذ بلا ذنب، قلت في نفسي، ربّما كان جالساً عليه. حين اقتربت منه أكثر وجدت أنّ مارأيته كانت سلحفاة

1- الميزان المائي Wasserwaage: وهو أداة يستخدمها البناؤون لتسوية السطوح ويسمونه اصطلاحاً «الزئبق».

مليئة بالثآليل وليس جرذاً. كانت نظرتها إليّ مروعة وهي فاتحةً فمها ذا الحنكين الأبيضين المنتفخين. أردت في اللحظة الأولى أن أبعدها بمظلتي المطريّة، لكنّي كنت خائفاً. الأفضل ألاّ أفعل، قلت لنفسي، إنّها سلحفاة أرضيّة تلوّح ببالونيها الأبيضين المنفوخين، وهذا له علاقة بموت ليو. لقد اعتقد الناس، أنّك صرت في عداد الأموات. إذ انتظرك جدّك طويلاً في البداية، وفي السنوات الأخيرة بدأ يخبو أمله الذي ينتظر عودتك. الجميع كان يعتقد، أنّك متَّ. وأنت لم تكتب، لذلك تعيش الآن. قلت له، ليس لأحد الأمرين من علاقة بالآخر.

اضطرب إيقاع تنفّسي، لأنّ السيد كارب كان يعلك بشاربيه المنسّلين ويشعرني أنّه هو نفسه يشكّ بما حكاه. كانت أمي تختلس بنظراتها عبر نافذة الشرفة إلى الفناء، رغم أنه لم يكن هناك مايدعوها لذلك غير بعض السماء وسطح الخمّ المغطّى بالكرتون القيري. صاحت الجدّة، انتبه لما تقول ياسيد كارب. أنت كنت قد حكيت لي حديثك هذا بشكلٍ مختلف. فأنت في حديثك السابق لم تجعل لبالونات السلحفاة البيضاء المنتفخة أية علاقة بموت زوجي. لقد قلت لي يومئذٍ أنّها تحية من زوجي الميت. بربر السيد كارب وكأنّه يتكلم مع نفسه: الحقيقة هي ماقلته الآن. حين مات زوجك لم يكن باستطاعتي أن آتيك فوق كلّ ما أصابك أيضاً بخبر المتوفي ليو. جرّ الصغير روبيرت ميزان تسوية البناء المائي على الأرض مقلداً القطار تش تش تش. ثم وضع كلبه القماشي موبّي على سطح قطاره وشدّ الأم بثوبها وقال: اركبي في القطار، سنسافر إلى الفينش. لَمعتْ العين الخضراء المنزلقة في ميزان الماء وكان موبّي الكلب جالساً على سطح القطار، أما في داخل ميزان الماء فقد جلست بيا تساكل ونظرت عبر نافذته على أصابع رجليّ السيد كارب. لم يقل السيد كارب أيّ شيء جديد، فقد كان جميع ماأتى به من ألفاظ يخرج عن حدود اللياقة. كنت أعرف أن الرعب أكبر من المفاجأة، فقد تنفس بيتنا الصعداء بعودتي لكنه لم يفرح. لقد خنتُ أيام حزنهم ببقائي على قيد الحياة.

منذ عودتي إلى ديار الأهل صار للكلّ عيون. فالكلّ رأى، أن حنيني غير المحدود للوطن لم ينطفئ. أمام أكبر نافذة في البيت جلست ماكينة الخياطة وعليها السفينة الصغيرة

المكروهة والخيط الأبيض تحت غطائها الخشبي. أمّا الغرامافون فقد عاد ثانيةً إلى حقيبتي المهترئة ووضعت الحقيبة على طاولة الزاوية، في مكانه الذي احتلّه دائماً. الستائر الخضراء والزرقاء نفسها مازالت معلّقة وأنواع الورود نفسها مازالت تتلوّى متداخلةً فيما بينها على السجادات الصغيرة، وقد ثني شريط حافتها اللبّادي كما كانت دائماً. أمّا الأبواب والشبابيك فقد بقيت على حالها في سابق عهدها، تَصرّ عند الفتح والإغلاق كما كانت ومنذ كانت. أرضيات الغرف تطقطق في أماكنها السابقة نفسها ومسند درج الشرفة بقي متشقّقاً في مكانه السّابق نفسه. كانت كلّ درجة من درجات السلّم تالفة لكثرة الاستخدام، وتدلّى على حاجز الدرج أصيص الورد في سلته المعدنية. لا شيء في البيت كان يعنيني. لقد كنت سجين نفسي ومنتزعاً منها مرمياً إلى خارجها، ماعدتُ منتمياً لهم وفي ذات اللحظة كنت أفتقد ذاتي.

قبل ترحيلي إلى المعسكر عشنا سبعة عشر عاماً بعضنا مع بعض، تشاركنا عيشنا الأشياء الكبيرة كالأبواب والخزائن والطاولات والسجادات.

والأشياء الصغيرة كالصّحون والفناجين والمملحة والصابون والمفاتيح والضوء والنافذة ومصابيح الضوء الكهربائي. أمّا الآن فقد تبدلت الأمور وتبدّلت. كنّا نعرف كم تغيرنا وأنّا لن نعود ثانية كما كنّا. ياله من عبء أن تكون غريباً! لكن العبء الأكبر هو حين تكون القريب الغريب، أن تتأرجح بين التّقرّب والتّغرّب. كان رأسي في الحقيبة وكنت أتنفس بالروسيّة. لم أكن أريد الذهاب وفاحت مني رائحة البعد، كما أنّني لم أكن أستطيع قضاء اليوم كلّه في البيت. كنت أحتاج لعمل كي أغادر صمتي. صرتُ في الثانية والعشرين من عمري ولم أتعلّم شيئاً حتّى الآن. هل تثبيت صناديق الخشب بالمسامير مهنة، ها أنذا أعود لأصبح من جديد يداً طولى لأحدهم.

بعد ظهر أحد أيام شهر آب، أغسطس عدت من معمل الصناديق، ووجدت على طاولة الشرفة رسالةً لي، رسالة أرسلها لي الحلاق أوسفالد إنيبيتر. كان أبي ينظر إليّ بينما أنا أقرؤها، وكأن أحداً ينظر إلى فمك وأنت تأكل. قالت الرسالة:

عزيزي ليو! أرجو أن تكون الآن بين الأهل في الوطن. نحن لم نجد أحداً من أهلنا في

البيت حين عدنا، لذلك تابعت رحيلي إلى النمسا. الآن أنا في فيينا، حي مارغاريتن، كثير من أولاد بلدنا يسكنون مثلي هنا. ربما تستطيع يوماً زيارتنا في فيينا، عندئذ سأتمكّن من حلاقة شعرك ثانيةً. لقد وجدت شاغراً عند أحد أبناء بلدنا وأعمل حلاقاً من جديد. أشاع تور بريكوليتش أنه كان يعمل في المعسكر حلاقاً، وأنّي أنا من قام بدور الكابّو. صحيح أنّ بيا تساكل قد انفصلت عنه، لكنّها تابعت ترويج كذبته. قامت بتعميد طفلتها باسم ليا. هل لهذا علاقة بالاسم ليو؟ قبل أسبوعين وجد بعض عمال البناء جثة تور بريكوليتش تحت أحد جسور نهر الدانوب. كان فمه مشدوداً بكرافيتّة، فقد ضربه قاتلوه ببلطة وشقّوا جبهته نصفين ثم تركوا البلطة ملقاة على بطنه. ليس للقاتل أيّ أثر حتى الآن. كم يؤسفني أنني لست ذلك القاتل. إنّ تور بريكوليتش يستحق هذه الميتة.

وبعد أن طويت الرسالة سألني أبي: هل لديك ولدٌ في فيينا.

قلت: أنت قرأت الرسالة، وهي لاتتضمن ماله علاقة بهذا الذي تقول.

قال: لا أحد يدري، ماذا فعلتم في المعسكر.

قلت: فعلاً لا أحد يدري.

حملت أمي أخي البديل على ذراعها، أمّا روبيرت فقد حمل على ذراعه كلبه القماشي المحشوّ بنشارة الخشب موبّي وذهبت معه إلى المطبخ. وحين عادت كانت تحمل على إحدى يديها روبيرت وعلى الأخرى صحن حساء. أما روبيرت فقد أمسك بالكلب موبّي ضاغطاً به على صدره وفي يده ملعقة من أجل ذلك الحساء، أي من أجلي. منذ أن عملت في معمل الصناديق وأنا أتسكع بعد انتهاء دوامي في المدينة، تحميني أوقات مابعد الظهر الشتوية، فالدنيا كانت تظلم باكراً، إذ تنتظر واجهات المحلات التجارية مثل مواقف الحافلات تحت الضوء الأصفر. وقد انتظرني في تلك الواجهات شكلان جبسيان أو ثلاثة أشكال وهي تلبس أزياءها الجديدة. انتصبت تلك الأجساد بتراصّ بعضها إلى جانب بعض مع لصاقة السعر أمام قدميها، كأنّما وجب عليها أن تنتبه كيف تخطو، وكأنّ لصاقة السعر علامات وضعتها شرطة السير، بل كأن نعشاً مرّ من هنا قبل مجيئي. شبابيك العرض الصغيرة كانت مرتفعة ومليئة بالبورسلان وآنية الصفيح. كانت تبدو حين مروري

بها رفوفاً محمولة على كتفيّ. في أحد الأضواء الحزينة انتظرتْ أكوام من سلع تعيش أطول مما يعيش الإنسان الذي يشتريها. ربما تعيش ماعاشت الجبال. من المتحلّق الكبير دخلت ماشياً إلى الحارات السكنية. في الواجهات تدلّت ستائر مضاءة.

بدت التزيينات الزهرية المختلفة ومتاهات الخيطان المتداخلة سوداء متشابهةً في كسرها للضوء وإدخاله كأنّها أغصان أشجارٍ عارية. لم يكن سكان الغرف يدرون أن ستائر بيوتهم تحيا وأن خيطهم الأبيض يختلط دائماً مع الخشب الأسود بأشكال عديدة، حين تعصف الريح. لم أشهد صفاء السماء إلا من نهايات الشوارع، من هناك رأيت نجمة المساء تذوب ووجهي معلّق عليها. بعد ذلك مضى من الوقت ما يكفي لكي أتيقن أنّ الجميع انتهى من تناول الطعام حين وصلت إلى البيت.

لقد نسيت كيف آكل بالشوكة والسكين. لم ترتجف يداي فقط بل ارتجفت حتى اللقمة التي أبلعها في حلقي. فقد تعرفت على الكيفية التي يجوع بها الإنسان وكيف يمطّ بطعامه زمناً، إن حصل عليه، أو يبتلع هذا الطّعام مثلما تفعل أفعى. لم أعد أعرف الالتزام بمدة محددةٍ للوك الطعام في الفم ولا متى عليّ بلعه كي يكون أكلي على الطريقة الراقيّة. كان أبي جالساً قبالتي، وبدت لي المائدة كبيرة وكأنها نصف الكون. تفحصني أبي بعينين نصف مطبقتين وكان يخفي إشفاقه علي. تحت رموش عينيه أضاء كامل ذعره وردياً كالجلد الكوارتزي لشفته من الداخل. كانت جدتي أفضل من رعاني وحنّ عليّ في كلّ الظروف. فقد كانت تطبخ الحساء الكثيف، ربما لكيلا أضطر وأزعج نفسي باستخدام الشوكة والسكين.

في ذلك اليوم من شهر آب، أغسطس، وحين وصلت الرسالة من فيينا قدموا حساء الفاصولياء الخضراء مطبوخاً مع أضلاع الذبيحة. نسيت الجوع بعد أن قرأت تلك الرسالة. قطعت صفيحة سميكة من الخبز وأكلت أوّلاً فتات الخبز الذي سقط بسبب تقطيع الخبز على الطاولة، بعدئذٍ بدأت أرتشف حسائي. ركع أخي البديل على الأرض وألبس كلبه القماشي مصفاة الشاي على رأسه مثل قبّعة ثم أركبه على طرف درج خزانة الشرفة الصغيرة.

بالنسبة إليّ كانت كلّ أفعال وحركات روبيرت رهيبةً. كان ولداً جمّعه أهلي تجميعاً – فعيناه من أميّ، عجوزان ودائريتان وفيهما زرقة المساء. قلت في نفسي، ستبقى عيناه كما هما. شفته العليا من جدتي مثل قبّات القمصان المدبّبة تحت الأنف. وستبقى شفته السفلى هكذا دون تغيير. أظافر أصابعه المحدّبه من جدي، ولن تتغيّر. أذناه منّي ومن عمّي إدوين، تلك التجعيدات المبرومة التي تنحني ناعمةً في الأعلى قرب شحمة الأذن. ستّ آذانٍ متشابهة من ثلاثة جلود، فتلك الآذان ستبقى هكذا. أنفه لن يبقى كما هو، فكرت أنا، فالأنوف تتغيّر مع نموّ الإنسان. ربّما يرثها بعد اكتمال نموّها من الأب، إذا ماحدث وصارت حوافّها عظميّة على جذر الأنف. وإذا لم يحدث ذلك، فلن يرث روبيرت من أبيه شيئاً. ويسمح عندئذ لأبي بألاّ يضيف شيئاً لابنه البديل. جاء روبيرت إليّ على الطاولة حاملاً بيده اليسرى كلبه القماشيّ موبّي وعليه مصفاة الشاي وأسند يدهُ اليمنى على ركبتي، وكأنّ ركبتي زاوية كرسي. بعد يوم عودتي قبل ثمانية أشهر، حين أخذوني يومئذٍ بالأحضان، لم يلمسني أحد قطّ في هذا البيت. كنت لهم رجلاً مترفّعاً لا يقربه أحدٌ، أما بالنسبة إلى روبيرت فقد كنت قطعة أثاث جديدة في البيت. لقد لامسني بيديه كما يتمسّك بقطعةَ موبيليا كيلا يقع على الأرض أو ليضع شيئاً في حضني. هذه المرّة دسّ لي في جيب سترتي كلبه موبّي، وكأنني دِرجَه الخاص. وبقيت هادئاً، وكأنني فعلاً دِرج. كم كان بودّي أن أبعده عني، لكنّ «الذي لايدي حراكاً» فيَّ منعني. أخذ أبي الكلب القماشيّ منّي ومصفاة الشاي من جيب السترة وقال لروبيرت: خذ كنوزك.

ثم حمل روبيرت نازلاً السلّم إلى الفناء. جلست أمي أمامي إلى الطاولة وراحت ترنو إلى ذبابة على سكين الخبز. حركتُ في طبق حساء الفاصولياء الذي أتناوله وعادت ذاكرتي بي إلى المعسكر حيث رأيت نفسي جالساً عند أوسفالد إنييتر أمام المرآة في صالون حلاقته في المعسكر.

حينئذٍ قَدم تور بريكوليتش داخلاً عبر الباب إلينا، وأنا الآن أسمعه يقول: الكنوز الصغيرة هي تلك التي كُتبَ عليها «هذا أنا هنا». الكنوز الكبيرة هي تلك

المكتوب عليها «أنت تعرف بالتأكيد». وأحلاها على الإطلاق هي التي كتب عليها «كنتُ هنا».

خرجتْ «كنت هنا» من فمه كما تخرج كلمة توفاريش. وباعتبار أنني لم أحلق منذ أربعة أيام، فقد مرّت في مرآة شباك الشرفة يد أوسفالد إنييتر التي يغطيها الشعر الأسود تجرف رغوة صابون الحلاقة بشفرةٍ حادة. وخلْفَ الشفرة مرّت على جلدي لمسة كما لو أنها شريط من المطاط الواصل بين الفم والأذن. أو أنها كانت أيام زمان هي فم الشّق الطويل، الذي منحنا إياه الجوع. كان أبي رغم قلّة معرفته مثل تور بريكوليتش يستطيع الكلام عن الكنوز، لأنّ كلا الرجلين لم يخبر في حياته كيف يغيّر الجوع وجه المرء ويتحوّل مع الوقت إلى «بوز جوع». أما الذبابة التي كانت على سكين الخبز فقد كانت تعرف الشرفة جيداً، كما كنت أعرف صالون الحلاقة في المعسكر. طارت الذبابة من سكين الخبز، وحطّت على الخزانة، ثم من الخزانة إلى شريحة الخبز التي في يدي، ثم بعد ذلك إلى طرف الصحن، ومن هناك عادت إلى سكين الخبز. في كلّ مرّة كانت الذبابة تطير مرتفعة بشكل عمودي، تدور مغنيّة وفي النهاية تحطّ صامتة. لم تحطّ الذبابة مرّة واحدة على غطاء المملحة ذي الثقوب الناعمة المصنوع من النحاس الأصفر، لأكتشف فجأةً، لماذا لم أستخدم أبداً تلك المملحة منذ عودتي من المعسكر. فمن غطائها برقت عينا النحاس الأصفر لتور بريكوليتش. ارتشفت الحساء، وأنصتتْ أمي لوقع الارتشاف، وكأنني كنت أقرأ لها رسالة فيينا للمرة الثانية. على سكين الخبز لمع بطن الذبابة لمّا دارت، حيناً مثل قطرةٍ من الندى وحيناً آخر مثل قطرة القار، الندى والقار وكما تنسحب الثواني، حين يكون الجبين مشطوراً فوق خطمه بشكلٍ مائل. هازوفيه. ولكن كيف تدخل كرافيتّة كاملة في فم تور الصغير؟

العكّاز

بعد انتهاء شغلي مشيت بعكس طريق البيت من الطرف الآخر لشارع الفيللات عبر المتحلق الكبير. أردتُ أن أعيد زيارة كنيسة الثالوث المقدّس وأرى إذا كان الركن الأبيض والقديس، الذي كانت قبّةُ معطفه شاة، مازالا موجودين.

على المتحلّق الكبير رأيت صبيّاً سميناً يلبس جوارب بيضاء طويلة حتى ركبتيه وبنطالاً قصيراً مخططاً وقميصاً أبيض مكشكشاً كأنه خرج لتوّه هرباً من إحدى الحفلات. رأيت الصبي يقطف باقةً من الداليا البيضاء ويطعم الحمام. الحمامات الثماني اعتقدن أنّ المنثور على بلاط الشارع الحجريّ خبزٌ. كنّ ينقرن الداليا البيضاء المرشوشة ثم يتركنها لتعود ساقطة في مكانها، ثم تنسى الحمامات بعد ثوان قصّة الداليا البيضاء، يملن برؤوسهنّ إلى إحدى الجهتين ويبدأن بنقر نفس زهرات الداليا التي كنّ حاولنها سابقاً، من جديد. لقد خان الحمامات اعتقادها في أنّ زهرات الداليا فتات خبز وصرفت من أجل ذلك وقتاً طويلاً. وماذا كان يفكّر الصبيّ أثناء ذلك؟ هل كان ولداً محتالاً، أم كان غبيّاً مثل جوع الحمامات. لم أكن أريد التفكير بمسألة تضليل الجوع. لو وزّع الصبي على الحمامات فتات الخبز بدلاً من فتات الداليا، لما بقيتُ واقفاً هناك. كانت الساعة تنبيء بالسادسة إلا عشر دقائق. مررت سريعاً قاطعاً الساحة، فربّما تقفل الكنيسة أبوابها في السادسة مساءً.

وبغتةً أرى ترودي بيليكان قادمة باتجاهي، كانت المرة الأولى منذ عودتنا من المعسكر. التقت عيوننا في آخر لحظة، لقد كانت تتعكّز على عصاً. ولأنها لم تستطع بعد ذلك تجاهلي ألقت عكازتها على البلاط، وانحنت إلى حذائها كأنّها تريد ربطه. لكنّ حذاءها لم يكن مفتوحاً.

كنّا قد عدنا كلانا منذ أكثر من نصف سنة إلى مدينتنا، فنحن من بلدٍ واحد. وإكراماً لأنفسنا أردنا أن يتجاهل بعضنا بعضا، إذا ماصدف أن التقينا. وهو أمرٌ لا يستطيع أحدٌ فهمه. أدرت رأسي مبعداً ناظريّ بسرعة، رغم رغبتي الكبيرة في ضمّها بين ذراعي لأقول لها، إنني أوافقها على موقفها. كم تمنيت لوقلت لها: كم يؤسفني، اضطرارك للانحناء! أنا لا أحتاج إلى عكّاز، وأستطيع في المرّة القادمة أن أنحني لأربط حذاءك وحذائي، إذا

سمحتِ لي. كان عكّازها جيد الصنع ناعماً وله في الأسفل مخلب صدئ وفي الأعلى كرة بيضاء على مقبضه.

بدلاً من أن أذهب إلى الكنيسة انعطفت بشكلٍ حاد إلى اليسار في شارعٍ ضيّق، كنت قد جئت منه للتّو. طعنتني الشمس في ظهري، وتبعثرت الحرارة تحت شعرِ الرأس، وكأنّ رأسي من صفيح أملس. انسحبت الريح ناسجة سجادة من غبار، وارتفع في الجوّ غناء قادمٌ من أعالي الشجر. ثمّ جبلت الريح على الرصيف قمعاً من الغبار، الذي اهتزّ عابراً جسدي حتى انكسرت شوكته. وحين سقط أصبح بلاط الشارع الحجري مبرقعاً بالسواد. صفرت الريح، ورمت أول قطرات غيثها. لقد وصلت العاصفة، فقد كنت تسمع خشخشة أهداب الزجاج ثم تبدأ خيطان الماء فجأة بتطريز الأمكنة. هربت داخلاً أحد حوانيت بيع لوازم الكتابة.

وأثناء الدخول مسحت بأكمامي الماء من فوق وجهي. خرجتْ البائعة من بابٍ صغير مغطّى بستار. كانت ترتدي حذاءً من اللباد المضغوط وله شناشيل، وكأن فرشاة نبتت على مشطي قدميها. وقفتْ خلف طاولة البيع. و بقيت واقفاً بجانب الواجهة أتطلع إليها بعين واحدة فقط، وبالعين الأخرى أنظر للخارج، وقد استمر ذلك بعض الوقت. الآن أرى حنك البائعة الأيمن منتفخاً ويداها ملقاتان على الطاولة وخاتمها الذي بدا ثقيلاً جدّاً على يديها العظميتين كان خاتماً رجاليّاً. عاد حنكها الأيمن وتسطّح وكأنّه فارغ من الداخل عندما انتفخ اليساريّ من جديد. الآن أسمع صوت شيءٍ يتعثّر بأسنان شخص، كانت تلك أسنان البائعة، فهي تمصّ سكّرة في فمها.

أغلقت البائعة عينيها بالتتالي بفارق وقت قصيرٍ وكان غطاء عينيها من الورق. قالت: ماء الشاي يغلي، ثمّ اختفت في الباب الصغير، وفي اللحظة نفسها رأيت قطّةً تخرج من تحت الستارة. اتجهت القطة صوبي ولامست بنطالي متمسّحة كأنها تعرفني. أخذتها على ذراعيّ. لم يكن لها وزن يذكر. لم تكن قطّةً، قلت في نفسي، إنها ليست أكثر من تغليف السأم بفروٍ رماديّ مخطّط وبصبر الخوف الذي يعتريك في شارعٍ ضيّق. كان لها رائحة سترتي المبلّلة. أنفها كان جلدياً ومقبباً مثل عقب القدم. وحين وضعت خفيها الأماميين

على كتفي ونظرت إليّ في أذني، أوقفت تنفّسها. أبعدتُ رأسها عنّي، فقفزت نازلة إلى الأرض من غير أن تصدر قفزتها أيّ صوت، فقد حطت على الأرض كما يحطّ منديل، فقد كانت فارغة من الداخل. والبيّاعة أيضاً خرجت من الباب الخلفي الصغير فارغة اليدين. أين ذهبت بالشاي؟ لا يمكن أن تكون قد شربته بهذه السرعة، ومع ذلك فقد بدا حنكها اليميني منتفخاً وخاتمها حكّ على طاولة البيع.

طلبت منها دفتراً.

دفتر حساب أم دفتراً مخططاً.

قلت لها، مخططاً.

أليس لديك قطع نقودٍ صغيرة، فأنا لا أستطيع أن أبدّل، قالت بينما كانت ترتشف شيئاً ما، ليصبح كلا خدّيها منتفخين وتخرج السكرة من فمها منزلقةً على الطاولة. كانت شفّافة منقّشة، تلقّفتها بسرعة ودسّتها في فمها. لم تكن أبداً سكرة، لقد مصّت الفتاة قطرةً من زجاج مجلوخةً وقادمةً من الثريّا.

دفاتر مخطّطة

كان اليوم التالي يوم أحد، حيث بدأت الكتابة في الدفتر المخطّط، وسميّت الفصل الأوّل: مقدّمة مبتدئاً بالجملة: هل ستفهمني؟ علامة استفهام.

كنت أقصد الدفتر بالضمير أنتَ. في الصفحات السبع القادمة عالجت قضية رجلٍ اسمه ت. ب. ورجلٍ آخر بالاسم ب. غ. وواحدٍ بالاسم ك. ه. ثم واحدٍ بالاسم أو. إي. وامرأة اسمها ب. تس. وأعطيت ترودي بيليكان لقب إوزّة. وقد كتبت بالخط العريض أسماءً مثل: معمل الكوك ومحطة قطار الفحم يازينوفاتايا، وكذلك كوبيليان وكاتي البلانتونيّة، كما ذكرت اسم أخيها الصغير لاتسي ولحظات صحوها. ثم انتهى الفصل بجملة طويلة تقول:

في الصباح الباكر وبعد أن غسلت وجهي انفصلت قطرة ماء من فوق شعري وسرت مثلما يسري الوقت نازلة على أنفي حتى وصلت إلى فمي. من الأفضل أن أترك لحيتي تنمو ثم أحلقها على شكل شبه منحرف، كي لا يتعرف عليّ بعد ذلك أحد في المدينة.

قمت في الأسابيع التي تلت بتوسيع المقدّمة وإطالتها لتملأ ثلاثة دفاتر.

وقد أغفلت مسألة عودتنا، ترودي بيليكان وأنا، من المعسكر إلى الوطن وأنّهم أعادونا من دون اتفاق مسبق بعربتي نقل حيوانات مختلفتين. كما أسقطت ذكر حقيبتي، حقيبة الغرامافون العتيقة. أما حقيبتي الخشبيّة الجديدة وثيابي الجديدة فقد وصفتهما بدقة فائقة.

ووصفت كذلك حذاء الباليتكي والطربوش والقميص والكرافيتّه والطقم، لكني أخفيت رحلة العودة إلى الوطن وصراعي مع البكاء وكذلك وصولي إلى نقطة تجميعنا السابقة حين رحلونا إلى المعسكر قبل خمس سنوات في زايفيتول مارماتشي، أوّل محطة قطار لرحلتنا في رومانيا. وأخفيت أيضاً أسبوع الحجر الصّحي في مستودع بضائع على نهاية رصيف المحطّة، رغم أنّني أصبت يومها بانهيار نفسيّ سبّبه خوفي من الحريّة القادمة والهاوية التي ستتلقفني فور ملامستها، هاوية تعود بي إلى الوطن من أقصر الطرق. كنت جالساً في لحمي الجديد وثيابي الجديدة وكانت يداي منتفختين قليلاً بين حقيبة الغرامافون

وحقيبة الخشب الجديدة كما لو أنني في عشّ طير. لم تكن عربة نقل الحيوانات التي نقلتنا مختومة بالشمع الأحمر. بعد قليلٍ سيفتح الباب، فالقطار يتدحرج فوق رصيف محطة سايفيتول مارماتشي. ثلج خفيف سقط على الرصيف، فأنا أمشي على سكر وملح. كان ماء الحُفر متجمّداً بلون بنيّ، والجليد يخمش الوجه مثل صورة أخي المدروزة على كرت بريد الصليب الأحمر.

حين أعطانا الشرطيّ الرومانيّ بطاقات العبور إلى الوطن، شعرت أنّي أملك في يدي الآن وداع المعسكر وشهقت بالبكاء. لم تستمرّ الرحلة أكثر من عشر ساعات من المعسكر حتى وصولي إلى البيت، بدلنا خلالها القطار مرّتين، مرّةً في بايامار وأخرى في كلاوزن بورغ. كانت مغنيتنا لوني مِش ملتصقةً بحنانٍ بالمحامي باول غاست، حدّقت بي هامسةً، وأنا فهمت كل كلمةٍ قالتها:

أنظر كيف يبكي، لقد فار فيه شيء ما.

لقد فكرتُ كثيراً بتلك الجملة. ثم كتبتها على صفحةٍ خالية إلا منها. وفي اليوم التالي شطبتها. وفي اليوم الذي تلاه كتبتها ثانية تحت مثيلتها المشطوبة.

ثم شطبت ماتحت المشطوبة، ثم عدتُ وكتبتها تحتها. وحين امتلأت الصّفحة انتزعتها من الدفتر وتركتها ذكرى.

وبدلاً من أن أذكر الجملة التي قالتها جدّتي، أنا أعرف أنك ستعود، بدلاً من منديل الجيب الأبيض من الباتيسته والحليب الصّحي، قمت مثل منتصرٍ بوصف الخبز الشخصي وخبز الوجنات في عدّة صفحات. ثم كتبت عن صبري في مبادلات الإنقاذ مع خطّ الأفق وشوارع الغبرة. وحين وصلتُ إلى ملاك الجوع وقعت في غرامه، وكأنّ ملاك الجوع لم يفعل شيئاً آخر إلا إنقاذي، كأنّه لم يعذبني. لذلك شطبت كلمة مقدّمة وكتبت فوقها خاتمة. لقد كان أكبر فشلٍ داخليّ حلّ بي، أن أكون طليقاً ووحيداً لايتغيّر وشاهد زور على نفسه.

خبأت دفاتري الثلاثة المخططة في حقيبتي الخشبيّة الجديدة. كانت حقيبتي الخشبية تلك خزانة لثيابي ووضعتها تحت سريري منذ أن عدت إلى الوطن.

أنا مازلت البيانو

بقيت أعمل في تركيب الصناديق الخشبيّة وتثبيتها بالمسامير عاماً كاملاً. ووصلت خبرتي بصنعتي خلال ذلك درجة استطعت فيها ضغطَ اثني عشر مسماراً دفعة واحدة بين شفتيّ طرطقة اثني عشر آخرين بين أصابعي في نفس الوقت. كنت أستطيع دقّ المسامير بسرعة تنفسي. وقال لي معلّم الورشة: أنت موهوب، لأنّك تملك يداً عوجاء.

لم يكن ليدي علاقة بذلك، ماله علاقة بذلك كان النّفَس المسطّح للتورم الروسي. فقد تحوّلت مقولة «رفشة واحدة تساوي = غراماً من الخبز» إلى «رأس مسمار واحد = غراماً من الخبز». كان رأسي محشواً بالطرشاء ميتسي وبيتر شيل وإرما بفايفر وهايدرون غاست وكورينا ماركو، هؤلاء الملقون عراةً في باطن الأرض. بالنسبة إلى معلم ورشة الصناديق فقد صار هؤلاء عبر تفكيري صناديق لعلب الزبدة والباذنجان. وبالنسبة إليّ كانت الصناديق التي أصنعها هنا نعوشاً من خشب الشربين الطريّ. كانت المسامير تفلت هاربةً عبر أصابعي موثّقةً نجاح عملي. فقد رفعت سرعة دقّها في الصناديق إلى ثمانمئة مسمار في الساعة، بهذا لم يستطع مجاراتي أحد. كان لكلّ مسمار من تلك المسامير الصغيرة رأس صلب وكانت تحصل كلّ ضربةٍ على رأس ذلك المسمار تحت مراقبة ملاك الجوع وإشرافه.

سجّلت في العام الثاني دورة عامل (بيتون) مسائيّة. وهكذا استطعت أن أعمل في النهار معلم (بيتون) في ورشة للبناء على نهر الأوتشا. وهناك رسمتُ على ورق النّشاف أول مخطّط لبيتٍ دائريّ، حتّى النوافذ كانت دائريّة. لم تكن تعجبني الأشكال ذات الزوايا، لأنّها شابهت في ذهني عربات قطار نقل الحيوانات. في كلّ خطٍّ رسمته على الورق فكّرت بتيتي، ابن رئيس ورشة البناء.

مرّةً وفي أواخر الصيف جاء تيتي معي إلى حديقة البتولا. في مدخل الحديقة وقفت فلاحة عجوز تبيع في سلّة بيدها ثمار الفريز البريّ. كانت الثمار حمراء كالنار وصغيرة كرأس اللسان. في القبّة الخضراء للثمرة يوجد ساق يشبه السّلك الناعم جداً. ومن ثمرة هنا وأخرى هناك تدلّت ورقة معرّجة بثلاث أصابع. أعطتني البائعة العجوز واحدةً كي

أتذوّقها، ثم اشتريت لتيتي ولي قمعين كبيرين منها. تمشينا حول القسم المنظّم من الحديقة ثم أغريته بالذهاب معي على طول غدير الماء باستقامة عبر الأعشاب حتى وصلنا إلى خلف التلّة ذات العشب المحلوق. وبعد أن أكلنا ثمرات الفريز ضغط تيتي بيديه قمعه الفارغ وأراد رميه بعيداً. قلت له: أعطني إياها. حين مدّ يده إليّ بها، أمسكت بيده ولم أتركها بعد ذلك. نظر تيتي إليّ ببرود وقال: هيه. غير أنّه ماعاد بالإمكان محو ماحدث بالضّحك والكلام.

مرّ الخريف قصيراً هذا العام ولوّن أوراق شجره سريعاً. وأنا تجنبت حديقة أشجار البتولا.

في شهر تشرين الثاني، نوفمبر من شتائي الثاني في الوطن سقط الثلج ومكث ملازماً أماكنه. كانت المدينة الصغيرة تبدو معلّبةً في طقم من القطن. كان الرجال كلّهم لديهم نساء ولدى النساء كلّهنّ أطفال والأطفال كلّهم لديهم زلاجات. لقد كان الجميع شبعان حتّى السمنة من الوطن. كانوا يتجوّلون عبر ذلك البياض بمعاطفهم الرماديّة الضيّقة. كان معطفي فاتح اللون وسخاً في بعض أجزائه وكبيراً جداً عليّ. ومعطفي هذا كان بدوره أيضاً شبعان من الوطن. إنّه معطفي المهترئ نفسه الذي حصلت عليه من عمّي إدوين. كانت وقع الأنفاس الخارجة من الفم تؤرجح المتفرّج وتفشي سرّه: الشبعانون من الوطن كلّهم يصنعون حياتهم هنا، ولكنّها تفرّ من كلّ واحدٍ منهم. كلّهم يراقبها بعيونه وعيون الجميع تبرق مثل بروشات من العقيق اليماني والزبرجد وحجر الكهرمان. في صباح أحد الأيام أو في القريب العاجل أو فيما بعد سوف يقف «حظٌّ زائدٌ عن حدّه بقطرة» بالمرصاد لجميع هؤلاء. كنت أحنّ في الوطن إلى شتاءاتٍ شحيحة، فقد كان ملاك الجوع يتجوّل معي أنّى ذهبت.

وملاك الجوع هذا لايفكّر، فقد قادني إلى شارع أعوج. من نهايته الأخرى رأيت أحد الرجال القادمين. لم يكن يرتدي معطفاً، بل غطّاءً مخططاً وعليه شناشيل من جميع أطراف. لم يكن لديه امرأة، بل عربة أطفال. لم يجلس أيّ طفل في العربة وإنما كلب أسود اللون برأس أبيض. كان رأس الكلب يتمايل مرتاحاً بإيقاع. وحين اقتربت الملاءة المخططة

منّي رأيت على الصدر الأيمن للرجل ملامح رفشٍ له شكل القلب. وبعد أن مرّت بي عربة الأطفال تلك وتجاوزتني، أصبح الرفش القلبيّ بقعة ملفوحة بنار مكواةٍ وأصبح الكلب علبة صفيح على رقبتها قمع مطليّ. وحين التفتُّ إلى الرجل، عادت علبة الصفيح ذات القمع لتصبح كلباً، في تلك اللحظة كنت قد وصلت إلى حمّام نيبتون.

كان للإوزّة الموجودة في رمز الحمّام في الأعلى ثلاثة أقدام زجاجيّة من خوابير جليديّة. هزّت الريح الإوزة وانكسرت إحدى تلك الأرجل الزجاجيّة وانتثر على الأرض الخابور الجليديّ وكأنه ملح خشن كنّا نطحنه في المعسكر. هرست الملح بكعب حذائي، وحين أصبح ناعماً بما يكفي لرشّه، ذهبت عبر باب الحديد المفتوح ووقفت أمام المدخل. من دون تفكير ذهبت من هناك عبر الباب إلى الصّالة، حيث عكست الأرضية القاتمة صورتي، وكأن الأرضيّة ماءٌ هادئ، حيث رأيت معطفي الشّاحب تحتي يسبح باتجاه صندوق المحاسبة. طلبت من المحاسبة بطاقة.

سألت المرأة هناك: بطاقة واحدة أم بطاقتين.

أرجو أن يكون خداع البصر وحده هو الذي تكلم عبر فمها، وليس التشكيك بي، كما آمل أنّها لم ترَ إلاّ ازدواجيّة المعطف ولم ترني في الطريق وقد عدتُ لممارسة حياتي القديمة. كانت المُحاسبةُ امرأة جديدة. أمّا الصالة فقد تعرّفت عليّ من جديد وتعرّفت عليّ الأرضيّة اللامعة أيضاً والأعمدة في الوسط والتزجيج الرصاصيّ على شباك قطع التذاكر والحيطان السيراميكيّة المزركشة بنماذج من زهر اللوتس.

للزّينة الباردة ذاكرتها الخاصة، والزخارف لم تنسني. كانت محفظة نقودي في جيب سترتي، لذلك قلت حين بدأت أبحث عنها في جيوب معطفي:

لقد تركت محفظة نقودي في البيت، ليس لديّ نقود.

قالت المحاسبة: لا ضير عليك، لقد انتزعت البطاقة من دفترها، تدفع لي في المرّة القادمة. سوف أسجّل اسمك عندي. قلت لها: لا، لا يمكنني قبول هذا.

مدّت يدها من غرفة المحاسبة تريد الإمساك بي من معطفي. رجعت عنها عائداً إلى الخلف، نفخت حنكي، سحبت رأسي، وجررت رجليَّ على كعبيهما إلى الأمام ماضياً

قرب العمود الوسطي باتجاه الباب.

صاحت خلفي: إني أثق بك، سأكتب اسمك على دفتري. الآن فقط أرى قلم رصاص أخضر خلف أذنها. دفعت بظهري قبضة الباب لأفتحه، كان عليّ أن أسحب الرتاج لأن اللولب المعدني يغلق من تلقاء نفسه. خرجت عبر الشّقّ، صرّ الباب حين أغلق خلفي ثمّ أسرعت عبر الباب الحديديّ إلى الشارع.

كان الظلام قد أطبق ، ونامت الإوزةُ بيضاءَ على رمز الحمّام وكان الهواء راقداً كالسواد. في زاوية الشارع تحت المصباح الكهربائي أثلجت الدنيا لوالب رماديّة اللون. ورغم أني لم أتحرك من مكاني سمعت خطواتي في رأسي. فرحت أمشي، ولم أسمعها بعد ذلك. فاح فمي برائحة الكلور وزيت زهر الخزامى. فكّرت بالإيتوبا ثم رحت أحكي مع نفسي من مصباح كهربائيّ إلى آخر بعده حتى وصلت إلى البيت مع غثيان الثلج الطائر. لم يكن هو نفس الثلج الذي غادرت به وإنما كان واحداً آخر جوعان وآتٍ من بعيد، كان يعرفني من زمن البيع الجوّال من بيتٍ إلى بيت، أقصد التبييت.

وأيضاً في هذا المساء اقتربت جدتي خطوةً جديدة منيّ ووضعت يدها على جبينها لكنها سألت:

أتيت اليوم متأخراً، هل لديك صديقة.

في اليوم التالي انتسبتُ لدورةٍ مسائية باختصاص (البيتون). وهناك في ساحة المدرسة تعرفت على إيمّا. كانت إيمّا تزور إحدى دورات المحاسبة. لها عينان صافيتان، لكنهما ليستا كالنحاس الأصفر مثل عيني تور بريكوليتش وإنما مثل وبر السفرجل. ولديها مثل كلّ سكان المدينة معطفٌ رماديٌّ مشبعٌ بالوطن. بعد أربعة شهورٍ من تعارفنا تزوجتُ إيمّا. في ذلك الوقت كان والد إيمّا مريضاً على فراش الموت، ولذلك لم نحتفل بعرسنا حين تزوجنا. وانتقلتُ للعيش مع إيمّا عند أهلها. وأخذت معي كلّ ماكان لي، دفاتري الثلاثة المخطّطة والثياب التي حشوتها كلها في حقيبتي الخشبيّة التي جاءت معي من المعسكر. أربعة أيام بعد زواجنا توفي والد إيمّا. فسكنتْ أمُّها غرفة المعيشة وتركت لنا غرفة نومها مع سرير الزوجيّة.

سكنّا نصف عام عند أمّ إيمّا. ثمّ انتقلنا تاركين هيرمان شتات إلى العاصمة بوخارست. حمل بيتنا الجديد الرقم 68، وهو تماماً عدد أسرّتنا في برّاكة المعسكر. كان بيتنا في الطابق الرابع، واحتوى على غرفةٍ واحدة وركناً للطبخ، كان المرحاض على المدخل. غير بعيدٍ عن بيتنا، حوالي العشرين دقيقة مشياً على الأقدام، كانت حديقة. وعندما قدم صيف المدينة الكبيرة وامتلأ الجو غباراً، صرتُ آخذ الطريق الأقصر إلى هناك، الطريق الذي لم يكن يتّسع لأكثر من خمس عشرة دقيقة من الزمن. وحين كنت أنتظر مصعد بنايتنا ذات الدرج كنت أرى حبلين مجدولين بلون فاتح يتدليان في حفرة المصعد ويأخذان معهما المصعد صعوداً ونزولاً، ذكّرني الحبلان بجدّيلتي بيا تساكل.

جلستُ مع إيمّا في مساء أحد الأيام في الصفّ الثاني إلى جانب الأوركسترا في مطعم اسمه الإبريق الذهبي. وحين جاء النّادل إلينا يخدم طاولتنا قام بإغلاق أذنيه وقال لنا: هل تسمعون، لقدأكّدتُ للمدير طوال الوقت أنّ صوت البيانو غير صحيح. وماذا فعل مديري، لقد طرد عازف البيانو.

نظرت إليّ إيمّا نظرةً حادّة، وقد دارت في عينيها مسننات صفراء. مسننات كانت صدئة، إذ إنّها حين غمزتني بقيت رموشها معلّقة على ذلك الصدأ. ثم ارتجف أنفها، حيث تحررت المسننات وقالت إيمّا بعينين صافيتين:

والآن هل رأيت، إنّها تقع دائماً على رأس العازف، والبيانو بريء دائماً. لماذا انتظرت بجملتها هذه حتى ذهب النّادل، كم أتمنى لو أنّها لا تستوعب ماذا تقول. كنتُ ألقّبُ في الحديقة أيام زمان ب: اللاعب. في الحديقة الجديدة البعيدة عن البيت والقريبة من محطّة القطار اخترت لنفسي لقب البيانو.

وفي يوم ممطرٍ جاءت إيمّا إلى البيت وهي تضع قبّعةً من القشّ على رأسها. كانت قد نزلت لتوّها من الباص. وبالقرب من محطّة الباص إلى جانب أوتيل صغير يحمل اسم دبلومات، كان يقف رجلٌ تحت المظّلة. وحين مرّت إيمّا بقربه سألها الرجل عمّا إذا كانت تسمح له أن يرافقها تحت مظلّتها بعض الطريق إلى محطّة الباص التاليّة على الزاوية. كان الرجل يضع على رأسه قبّعةً من القشّ. كان أكبر من إيمّا بمقدار الرأس والقبّعة القشّية،

وهكذا كان على إيمّا أن ترفع المظلّة عالياً. وبدلاً من أن يريحها من المظلّة ويأخذها منها، دسّ يده في جيبه ودفع بإيما خارج المظلّة ليصبح نصفها تحت المطر. قال الرجل، عندما يسقط المطر صانعاً فقاعات على الأرض يكون ذلك علامةً على أنّ هطوله سيستمرّ أيّاماً طويلة. ثم تذكّر أنها أمطرت بهذا الشكل عندما ماتت زوجته، ولهذا كان عليه يومئذٍ أن يؤجّل الدفن يومين تاليين، ومع ذلك لم يتوقّف المطر. فقام في الليل بوضع أكاليل الزهور في الخارج لكي ترتوي بالماء، لكن ذلك لم ينفعها، فقد شربت ماءً كثيراً زائداً عن الحاجة وأصابها العفن. بعد هذا الحديث صار صوته زلقاً، حيث بربر ببعض الكلام الذي أنهاه بجملة تقول: لقد تزوّجتْ زوجتي نعشاً.

وحين قالت إيمّا، إن الزواج أمر مختلف عن الموت، قال الرجل، يجب على المرء أن يخاف قبل أن يقدم على كليهما. وحين سألت إيمّا، لماذا الخوف، طلب منها محفظةَ نقودها. وقال: وإلا سأكون مضطراً لسرقة واحدة في الباص من سيّدات ماقبل الحرب، سيّدة بلغت من العمر أرذله، لاتمتلك في محفظتها أكثر من صورة زوجها الميت. وحين ركض هارباً من المكان، طارت قبعته القشيّة وحطّت في حُفرة ماء. لقد أعطتْ إيمّا محفظةَ نقودها للرجل، الذي قال لها: لا تصرخي وإلا انتفضت هذه التي في يدي، كانت في يده سكين.

بعد أن قصّت عليّ إيمّا قصّتها، أضافت جملة أخيرة تقول: الخوف لا يعرف الرحمة. وأنا أحنيت رأسي بالإيجاب.

غالباً ماحدثت تطابقات في الرأي مثل هذه بيني وبين إيمّا. لن أقول أكثر من هذا، لأنني عندما أتحدث فإنني أعبُر إلى صمتي بشكلٍ مختلف وإلى أسرار الحدائق جميعاً وإلى كلّ ما أتفق عليه مع إيمّا. استطاعت حياتنا الزوجيّة أن تستمر أحد عشر عاماً. ولو سارت الأمور حسب إرادة إيمّا لاستمرّت إيمّا معي، إني على علمٍ بذلك، لكنّي لا أعرف لماذا كانت تريد الاستمرار.

في تلك الأثناء قاموا باعتقال الوقواق وصندوقة الليل في الحديقة. وكنت أعرف أنّهم تقريباً برمّتهم يصرّحون بمالديهم لدى الشرطة وأنّه لن تنفعني محاولاتي الكلامية في

إقناعهم، إذا ماذكر هذان الاثنان لقبي: البيانو. قدمت طلب زيارة للنمسا. حيث قمت بدعوة نفسي بالنيابة عن عمتي فيني وكتبت نصّ الدعوة لنفسي بنفسي، كي تسير الأمور بسرعتها القصوى. في المرّة القادمة تسافرين أنتِ، قلت لإيمّا. ووافقتْ إيمّا، فقد كانوا يومئذٍ لا يسمحون للأزواج بالسفر معاً إلى الغرب. خلال سنوات معسكري تزوّجت عمتي فيني في النمسا. ففي إحدى زياراتها إلى حمّامات الملح في أوزنا باي، سافرت عمّتي فيني بالباص «العظائي»، وهناك التقت بألويز الحلوانيّ من مدينة غراز في النمسا. كنت قد قصصتُ على إيمّا مرّة حكاية مكواة الشعر وموجات الشعر والجراد تحت فستان عمتي فيني الشفّاف وجعلتها تعتقد أنني أريد فعلاً رؤية العمّة ثانية والتّعرف على زوجها الحلواني ألويز.

لقد كان ذلك ذنبي الأعظم حتى يومنا هذا، فأنا جهزت نفسي من أجل سفرةٍ قصيرة، وصعدت القطار بحقيبة خفيفة وسافرت إلى غراز. ومن هناك كتبت بطاقة بريد بحجم كفّ اليد:

غاليتي إيمّا،

إنَّ الخوف لا يعرف الرحمة.

أنا لن أعود.

لم تكن تعرف إيمّا الجملة التي قالتها جدتي. فنحن لم نتحدّث وفي أيّة مرّة حول المعسكر. وها قد عدت إلى الجملة تلك واستخدمتها على بطاقتي البريديّة مضيفاً إليها كلمة لَنْ، كي تساعد تلك الجملة نقيضها.

جملة صار عمرها أكثر من ثلاثين عاماً.

تزوجت إيمّا مرّةً ثانية.

أمّا أنا فلم أرتبط بعد ذلك بعلاقة، كان كلّ ماعشته بعد ذلك حالاتٍ من التبديل البهيميّ.

صار إلحاح السّعادة في جشعها ودناءتها ينتمي ومنذ وقت طويل إلى الماضي، على الرغم من أنّ المخّ مازال يسمح في كلّ خطوة بالغواية. فمرّة يغويك بعض تَهَتُّك في

الشارع، وتأخذك في أخرى يدان ساحرتان في محلٍّ للبيع. أما في الترامواي فالغواية تقتادك باحثةً عن محلٍ للجلوس. وفي عربة القطار حين تسأل: هل هذا المحلّ فارغ، وإذ يتأخّر الرّد أتأكد من صدق حدسي حين أبدأ، بطريقتي تلك، بوضع أغراضي على الرفّ. في المطعم يغويك هذا النوع من الخدمة، بغضّ النظر عن الصوت، حين يقولون لك: نعم سيديّ. أكثر الأماكن غواية لي وحتّى الآن هي المقاهي. فأنا أجلس إلى طاولةٍ ما وأمرّ على وجوه الضيوف ضيفاً ضيفاً، لتأتي غواية بعض الرجال من طريقتهم في ارتشاف ما في فناجينهم.

وحين يعيدون الفنجان إلى صحنه يبرق جلد شفتهم الداخلي مثل الكوارتز الوردي. هم ضيف أو ضيفان من هذا النوع والباقي عاديون.

بسبب ضيفٍ أو ضيفين يتصاعد شبق اللحظة في الرأس. حتّى لو عرفت أنهم جامدون كتحفٍ في واجهة زجاجيّة فإنهم يبدون شباباً. حتى لو كانوا يعرفون أنني لا أناسبهم، لأنّ عمري سلبني وراح. مرّةً سلبني الجوع ولم أعد مناسباً لشالي الحريري، وبعكس توقعاتي عادوا وأمدّوني بلحم جديد. ولكنك حين ينهبك العمر لا يستطيع أحد أن يمدّك بشيء، إذ لم يخترع الإنسان حتّى الآن لحماً ضدّ مثل هذا النهب. كنت سابقاً أعتقد، أنني أستطيع أن أصمد في الليل في وجه ترحيلي إلى المعسكر السادس والسابع وحتى الثامن. بل لربّما عوضّت عن سنواتي الخمس المسروقة بمثلها عمراً في شيخوختي. لكنّ هذا لم يحدث، لأن حسابات ضياع اللحم مختلفة. فدواخل هذا الضياع مقفرةٌ ومن الخارج يلمع في الوجه جوع العيون. ويقول لك:

أنت مازلت البيانو

نعم، أقول أنا، البيانو الذي لم يعد صالحاً للعزف.

عن الكنوز

الكنوز الصغيرة هي ماكتب عليها «أنا هنا» والكنوز الكبيرة هي التي كتب عليها «هل مازلت تعرف» وأجمل الكنوز هي التي كتب عليها «لقد كنت هنا».

«لقد كنت هنا» يجب أن تكون موجودة على الكنوز، كما يقول تور بريكوليتش. تحرّكت حنجرتي تحت ذقني طالعةً نازلة، وكأنني ابتلعت كوعي. قال الحلاق: نحن مازلنا هنا، فالخامس يأتي بعد التاسع. كنت أعتقد أيام زمان حين كنت آتي إلى صالون الحلاقة في المعسكر أنّ الإنسان الذي لايموت هنا فإنه سيموت بعد رحيله عن هنا مباشرة. نحن الآن بعيدون عن المعسكر، أحرار، وربما أيضاً في بيوتنا، لذلك يستطيع واحدنا أن يقول «لقد كنت هناك». أما ماتعنيه مقولة «الخامس يأتي بعد التاسع» فهو أنّ بعض المشكلات قد أصابت الإنسان وابتلي بحظٍّ عاثر ويجب عليه أن يقول متى وأين أصابته المشكلات وابتلي بالحظ العاثر؟ وكيف يمكن لشخص مثل تور بريكوليتش أن يشعر بعد عودته إلى بلده ولو بعد حين بالحريّة ويقول إنّ الحظَّ لم يكن ضرورياً بالنسبة إليه؟ ربما قرر أحدٌ ما ومنذ أيّام المعسكر أن يقتل تور بريكوليتش بعد انتهاء ذلك المعسكر. واحد من الذين كان ملاك الجوع يتجوّل معهم أينما حلّوا، بينما كان تور بريكوليتش يتبختر بأحذية لّماعة مثل حقائب اللاتيكس في شارع المعسكر الرئيس. ربما كان أحدهم في زمن العظم والجلد وأثناء ترديد الشعار في الاجتماع أو في الحبس يتمرّن بينه وبين نفسه ويردد عدداً لايحصى من المرات، كيف يمكن قصم جبين تور بريكوليتش في وسطه بالبلطة. أو كان هذا أثناء عاصفة ثلجية مطموراً حتى رقبته في الثلج على أحد خطوط سكّة الحديد أو على الياما في المعسكر أو في الفحم أو في رمل الكاريرا أو في برج الإسمنت.

أو أنّه كان مضطجعاً على سريره من غير نوم في ضوء الخدمة الأصفر في البرّاكة، حيث فار دمه وأقسم على أخذ الثأر. ربّما خطط للقتل في نفس ذلك اليوم، الذي كان فيه تور بريكوليتش يأتي إلى صالون الحلاقة ويتكلم عن الكنوز بنظرته الزيتيّة، أو في تلك اللحظة حين سألني في المرآة: كيف هي الحال عندكم في القبو؟ أو ربما في تلك اللحظة، عندما قلت: لطيفة، كلّ وردية هي لوحةٌ فنيّة. لربّما كان القتل بطريق كمّ الفم بالكرافيتّه ثم

الضرب بالبلطة على البطن لوحة فنيّة متأخّرة.

صرت أعرف تقريباً أنّ الموجود على كنوزي هو «هنا أبقى». وأنّ المعسكر تركني أعود إلى الوطن، لخلق مسافة يحتاجها المعسكر نفسه ليكبر في المخّ. مذ عدت إلى بلدي وكنوزي خاليةٌ من «أنا هنا» ومن «كنت هنا»، إن الموجود عليها هو« لن أرحل من هنا». وهكذا يتوسع المعسكر باستمرار من مساحة الصدغ اليسرى وحتى اليمنى، هكذا يصير من واجبي أن أتكلم من كل تفكيري وكأني أتكلّم من حرم المعسكر. لا يستطيع المرء أن يحمي نفسه، بالصمت ولا بالكلام، فهو يبالغ في واحدٍ كما في الآخر، رغم أنّ مقولة «كنت هنا» غير موجودة في هذا ولا في ذاك، مع العلم أنّه لا يوجد مقياس سليم لذلك.

ورغم ذلك فالكنوز موجودة، لأنّ تور بريكوليتش معه الحقّ. فعودتي إلى الوطن تبقى حظّاً منكسراً ودائم الشكر، إنّه دوّامةُ الاستمرار في الحياة، دوّامةٌ تبدأ بالدوران من أجل كلّ قاذورة. إنها تملكني في يدها مثل كلّ كنوزي، كنوزي التي لا أستطيع مقاومتها ولا الاستغناء عنها، وأنا بحاجة إليها منذ أكثر من ستين عاماً.

أنت ضعيف أمام كنوزك وهي ملحّة ولصيقة بك ومقرفة وناسية ومتحاملة ومتآكلة وجديدة. إنها مهر أرتور بريكوليتش ولا يمكن التفريق بيني وبينها، أنا حين أحصيها أتعثّر، بفخرٍ تغلبني على أمري.

هي أمنيات خوفي المكمّمة.

هي سرعتي اللاإراديّة، فأنا أقفز مرّةً واحدةً من الصفر إلى الكليّ. إنّني برضوخي المعاند أصدّق كلّ قائل وفاعل وأعترف له بحقّه فيما يفعل ويقول، كي أستطيع أن أدينه.

إنها انتهازيتي المتعثّرة.

إنّها بخلي المهذّب.

هي حسد حنيني المنهك، حين يعرف الناس ماذا يريدون من الحياة. إنّها شعور مثل صوف مضطربٍ بارد ومجعّد.

هي فراغي السامق، حين أكون محرجاً من الخارج ومن الداخل فارغاً منذ كان عليّ أن أنهي جوعي. إنها شفافيتي الجانبيّة، حيث أنفصم عن بعضي حين أسير إلى الأمام.

هي ساعات مابعد ظُهر يومي الفظّة، حيث يجرّ الزمن نفسه ببطءٍ معي بين قطع الأثاث المنزلي.

هي خذلان محكم الضبط. أنا أحتاج القرب، لكنّي لا أمنح نفسي لأحد كي لا أغادر قبضة اليد حيث أنا. أنا أتقن الابتسامة الحريريّة أثناء انسحابي. أنا ومنذ ملاك الجوع لا أسمح لأحدٍ بامتلاكي.

إنّ أثقل كنوزي هو اضطراري للعمل، إنه الحالة العكسيّة للعمل الإجباري ومبادلة إنقاذية معه. فيّ يقعد المضّطر على الغفران، فهو أحد أقرباء ملاك الجوع وهو يعرف كيف يدرّبُ كلّ الكنوز الأخرى. إنه يصعد فيّ إلى المخّ، ويزيحني باتّجاه سحر الاضطرار، لأني أخاف أن أصبح حرّاً.

من غرفتي يرى المرء برج السّاعة على جبل القلعة في مدينة غراز وعلى شبّاكي يوجد لوحة رسم كبيرة. على طاولتي يضطجع آخر مخطّطات البناء التي اشتغلتها مثل غطاء طاولةٍ ثقّبه الرصاص. كان الجوّ مغبّراً مثل الصيّف في الخارج فوق الشوارع.

حين أراقب هذا المخطّط أجد أنه لم يعد يستطيع أن يتذكرني. أمام بيتي يذهب رجلٌ يومياً منذ الربيع للتنزه ويجر خلفه كلباً أبيض قصير الشعر وبيده عكاز أسود نحيل للغاية ينتهي بانحناءة بسيطة يستعملها الرجل كمقبض، وكأنّ ذلك العكّاز قضيب من الفانيلا المنفوخة. لو أردتُ أن أحيّي هذا الرجل لقلت له: كلبك يشبه خنزيراً أبيض، استطاع الحنين إلى الوطن ركوبه عابراً به السماء أيام زمان. في الحقيقة كنت أريد التّكلم مع الكلب. كم كان مناسباً لو أنّ هذا الكلب راح مرّةً يتنزه وحده أو مع قضيب الفانيلا، من دون ذلك الرجل. ربما يحدث هذا في يومٍ ما. فأنا سأبقى في كلّ الحالات ساكناً هنا، والشارع سيبقى أيضاً في مكانه والصيف سيستمر طويلاً. لديّ الوقت وسأنتظر.

أحَبُّ عليّ إليّ الآن أن أجلس إلى طاولةٍ صغيرة بيضاء مغطاة بطبقةٍ من الصمغ، طولها متر وعرضها متر، طاولةٍ صغيرةٍ مربّعة. وعندما تدقّ ساعة البرج نصف الثالثة تسقط الشمس في غرفتي. وتلقي طاولتي الصغيرة ظلّها على الأرض صندوق غرامافون. والغرامافون يغني لي أغنية وليدة الحجر أو البالوما الراقصة بلباس البليسيّه. آخذُ المخدّة

من الصوفا وأراقص وقت مابعد الظهر الغليظ، وقتي.

يوجد أيضاً شركاء آخرون.

ولقد رقصتُ مرّةً مع إبريق الشاي.

ومع السكريّة.

ومع علبة الكعك.

مع التلفون.

ومع المنبّه.

ومع نفّاضة السجائر.

ومع مفتاح البيت.

شريكي الأصغر هو زرّ معطفٍ مقطوع.

وجدتُ مرّةً حبّة زبيب مغبرة تحت الطاولة المغلّفة بالصمغ، فرقصتُ معها. ثم أكلتها بعد ذلك، فامتلأتُ بنوع من البعد.

خاتمة

بعد أن دخل الجيش الأحمر في صيف 1944 متقدّماً في عمق الأراضي الرومانيّة، تمّ اعتقال الدكتاتور الفاشي أنطونيسكو وإعدامه. واستسلمت رومانيا مباغتةً ألمانيا النازية، حليفتها حتى ذلك الحين، بإعلانها الحرب عليها. وفي شهر كانون الثاني 1945 طلب الجنرال السوفييتي فينوغرادوف باسم ستالين من الحكومة الرومانيّة تقديم كل الألمان الذين يعيشون على الأراضي الرومانية للمساعدة في «إعادة بناء» الاتحاد السوفييتي الذي دمّرته الحرب. وهكذا تمّ سوق كلّ الرجال والنساء بين السابعة عشرة والخامسة والأربعين من العمر للعمل الشّاق في معسكرات العمل الإجباري السوفييتيّة.

لقد عملت أمّي أيضاً في أحد معسكرات العمل الإجباري مدة خمس سنوات.

ولأنّ سوقها يومذاك إلى المعسكر يذكّر بماضي رومانيا الفاشي فقد أصبح الموضوع كلّه فيما بعد تابو. ولم يكن يتحدّث أحد عن سنوات العمل في تلك المعسكرات إلا ضمن نطاق العائلة أو مع الموثوق بهم من بين الذين خدموا فيها. وحتى في تلك الأوساط لم يكن الحديث أكثر من بعض التلميحات من هنا أو من هناك. تلك الأحاديث المسروقة رافقت طفولتي، رغم أنّي يومئذٍ لم أفهم مغزاها ومحتواها، لكنّ رائحة الخوف فيها وصلتني.

وهكذا بدأت في العام 2001 بتسجيل الأحاديث التي كانت تدور بيني وبين أولئك المرحّلين إلى المعسكرات من أهالي قريتي. لقد عرفت، أن أوسكار باستيور كان من بين المرحّلين وحكيت له أني أريد الكتابة عن الموضوع. وهكذا أراد مساعدتي بذكرياته عن تلك الأيام، حيث التقينا بشكل منتظم، هو يحكي وأنا أكتب، وسريعاً مانضجت رغبتنا، أن نكتب الكتاب سويّة.

ولما توفي أوسكار باستيور عام 2006 فجأة ودون سابق إنذار، كنت قد أنجزت أربعة دفاتر من الملاحظات المكتوبة بخط اليد، إضافة لمخطوطات عددٍ من فصول الكتاب.

كنت بعد موته كالمجمّدة، وما زاد عظمة المصيبة في فقده هو هذا القرب الشخصي الذي حملته تلك الملاحظات.

بعد سنةٍ من وفاته استطعت أن أودّعه وأعود إلى نفسي لأكتب الرواية وحدي، هذه الرواية التي مااستطعتها لولا التفاصيل التي سردها لي أوسكار باستيور من حياة المعسكر اليوميّة.

هيرتا موللر، آذار، مارس 2009

نبذة عن المترجم:

ولـد الـدكـتـور وحـيـد نـادر في بمنه/طرطوس، سوريا 1955، درس في الجامعات السورية والألمانية حيث حاز هناك على درجة الدكتوراه. وهو يعمل اليوم كمترجم ومـدرس ويقيم في ألمانيا. يكتب الشعر باللغة الألمانية والعربية وله ديوان شعر بالعربية وديوان قيد الطباعة باللغة الألمانية. وقد قام بترجمة مجموعة من الشعراء بشرق ألمانيا إلى اللغة العربية. وهو عضو في اتحاد الكتاب بمدينة ماجديبورغ/ألمانيا.

أرجوحة النفس

لقد حمّل السوفيت ذنبَ الجرائم النازية للأقلية الألمانية وبأمر من السوفيت قيد خلال الحرب اعتباراً من الأول من كانون الثاني/يناير عام 1945 كل الرومانيين من اصل ألماني الذين كانت أعمارهم تتراوح بين 17 و 45 سنة إلى معسكرات العمل الشاق "لإعادة بناء ما دمرته الحرب"، كما كانت هناك قوائم يُقتاد البشر على أساسها إلى التجمعات في محطات القطار ومنها إلى المجهول في عربات كانت مخصصة في العادة لنقل الدوابِ ثم تستمر الرحلة فيها أسابيع وأسابيع وغالبية تلك المعسكرات تقع في أوكرانيا.

واستغلت الكاتبة هذه الأحداث التاريخية لتبني عليها عالمها الروائي إذ تحدثت مع بعضمن بقي على قيد الحياة من هؤلاء المعتقلين ومنهم الشاعر أوسكار باستيور، قال لها يوماً: سأساعدكِ "بكل ما عشتُه".

كانت هيرتا موللر تلتقي أوسكار باستيور، هو يتحدث وهي تكتب، كلماته اختلفت عن كلمات الأم، حدثها عن نقطة الصفر في وجود الإنسان وكينونته وعن الذكريات المرة والتفاصيل الصعبة.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة KALIMA

JOHANNES GUTENBERG UNIVERSITÄT MAINZ

ISBN 978-9948-01-455-3
9 789948 014553

cover by phxcom.com